نياندرتال

*

نياندرتال (التجربة)
روايـــة
الطـبعة الأولى: ٢٠١٩
رقم الإيـداع :   / 2019
الترقيـم الدولي: - -978-977-803
الغلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.
تليفـون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

Arabic Language Copyrights ® 2019 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution. The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.

سراج منير

نياندرتال

رواية

فهرسة أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

منير، سراج

نياندرتال : رواية/ تأليف : سراج منير. ـ ط١. ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٩

٢٤٨ ص، ٢٠ سم

تدمك: 978-977-803- -

١ – روايــة

أ- العنوان

رقم الإيداع: **الطبعة الأولى ٢٠١٩**

إهداء

إلى محمد أبوزيد، من قال لي "اكتب فإن المداد يزداد كلما خط القلم" فكان كما قال

١

كنت أجري على غير هدًى، وقد تقطعت أنفاسي وبدأت قواي في التهاوي، ولكنني لم أكن أملك ترف الاختيار. تسابقت ساقاي وأنا أدوس على أغصان أشجار مكسرة وبركة وحل عجيبة اللون، وروث حيوانات نفّاذ الرائحة، ووجهي يصطدم بفروع أشجار بارزة هنا وهناك. لم أكن أعرف أين أنا ولا ماهية ما يطاردني ولا إلى أين أهرب؟

***

كان التفسير الوحيد المنطقي لحظتها هو أنني أحلم. يقولون إن الأحلام أحيانًا تكون واضحةً جدًّا لدرجة أنها تخدعك. كيف يعقل أن أستيقظ من نومي لأجدني نائمًا على الأرض في غابة؟! ليس عندنا غابات أصلاً ولم أخرج من مصر في حياتي إلا مرةً واحدةً. حين قمت من النوم كانت رائحة روث حيوان تملأ أنفي، لكنها كانت مختلطةً برائحة نفاذة تشبه ذلك الغراء الذي يدمن البعض شمّه. كان خدي متكئًا على غصن جاف وحولي أشجار أوراقها تميل إلى الزرقة المغبرة، تمتد فروعها من أسفل الجذع حتى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبًا، ثم يمتد الجذع عاريًا بعد ذلك مسافةً عاليةً كأشجار "البامبو".

ولأنني اعتقدت أنني أحلم، أغمضت عيني ثانيةً لعل الحلم ينتهي، لكن سرعان ما شعرت بأنف يشتم وجهي، ثم ارتعدت فرائصي؛ خوفًا وقرفًا حين أحسست بلسان لزج يلعق ساعدي وكأنه يتذوقه. سحبت ذراعي بسرعة وفتحت عيني لأجد ذئبًا أو كلبًا كبيرًا ذا جلد مبرقش مصفر يتأملني بفضول. تراجع الحيوان حين فتحت عيني وأخذ يدور حولي وهو يراقبني. مددت يدي أبحث عن شيء أضربه به، لكن لم أمسك إلا عودًا صغيرًا، قذفته ناحيته فتراجع خطوتين، ثم نظر إلى السماء وعوى بصوت معدني غريب. مرت ثوان قبل أن يرد عليه أكثر من عواء، وبدا واضحًا لي أن هذا الذئب اعتبرني وليمةً ويستدعي أصدقاءه؛ ليجاملهم بوجبة بشرية. حين شعرت بذلك انطلقت راكضًا وهو خلفي. كان يجري بهدوء، لم يحاول أن يلحقني! ما يوحي بأنه يستمتع بمطاردتي.

ليس حلمًا.. أنا متأكد، قلبي يكاد ينخلع من الجري ووجهي يحرقني بشدة من كثرة ما جرح من هذه الأشجار العجيبة وأغصانها المتداخلة. أضاءت في ذهني كلمة (الأغصان) وافترضت أنها الحل...

تسلقت فروع أول شجرة كبيرة قابلتني. تذكرت نفسي منذ ثلاثين عامًا وأنا أصعد جميزةً هنا وتوتةً هناك، لكن العصب لم يعد كما كان. صعدت قليلاً حتى ارتفعت عن الأرض قدرًا كافيًا. ظل الحيوان واقفًا تحتها، لا يحاول الصعود ولا يبدو لي أنه يستطيع.

التقطت أنفاسي وأنا أراقبه وأحاول أن أسترجع ما حدث: ما الذي جاء بي إلى هنا؟

مرت دقائق والحيوان (دعوني أسميه "الذئب" تبسيطًا للوصف) ينتظر ثم ظهرت مجموعة من أربعة ذئاب، وانضمت إلى ذئبي الواقف أسفل الشجرة. لا أعرف اللغة التي حدثهم بها! لم يصدر صوتًا، لكنني وجدتهم ينظرون إليّ جميعًا، ثم اقترب أكبرهم من الفرع الذي بدأت الصعود عليه، وأخذ يتشممه ثم ابتعد مزمجرًا. أخذ الخمسة ينبحون تجاهي بشكل متصاعد يوحي بالعدائية. وكأن كبيرهم رأى فيّ عدوًا خطرًا وليس مجرد وليمةً.

رأسي كاد ينفجر وأنا أجلس على الفرع أراقب الذئاب بالأسفل بنباحها الذي يجعلني أقول إنها كلاب، وأعود أتذكر عواءها فأقول إنها ذئاب. كان نباحًا أشبه بالسباب البذيء، وأنا جالس على الفرع مخلوع القلب، لا أعرف ما الذي أتى بي إلى هنا ولا كيف أهرب.

كل ما كان في بالي وقتها، كيف سأبقى معلّقًا هكذا وهذه الوحوش تتربص بي؟ في نفس اللحظة التي قلت لنفسي: "كيف يمكن أن تكون الأمور أسوأ"، وجدت الإجابة حين اقتربت الذئاب أكثرو أمسك كل منهم بفرع من الشجرة، وبدؤوا في تجاذبها بشدّة. كانوا أقوياء للغاية وبدأت الشجرة تهتز بالفعل وأنا أتمايل معها، وأكاد أسقط من الفزع.

أمسكت الفرع بقوة بيدي اليمنى، ولفت انتباهي وجود ثمار بين الأغصان تشبه الدّوم، لكنها بحجم كرة اليد. أمسكت واحدة فوجدتها قاسية، خلعتها ثم ألقيت بها بعنف على رأس أحدهم فعوى متألّمًا، وتوقف عن اجتذاب الفرع بفكّيه. تحمّست وأعدت الكرّة عدة مرات حتى تراجعوا قليلاً في الوقت الذي نفدت فيه ذخيرتي من الثّمار.

اقترب أحدهم بحذر، وحين لم أقذفه بشيء أمسك الفرع ثانيةً وتتبّعه الباقون، وبدؤوا يهزون الشجرة بعنف أكثر هذه المرة.

حاولت أن أصعد للفرع الأعلى؛ لأتمكّن من التقاط ثمار أخرى أعطّلهم بها بعض الوقت. حركات بائسة من فأر حبيس، لا يعلم هل سينقذه أحد أم سيترك لمصيره. التقطت ثمرة وقذفتها بقوة نحو كبيرهم في نفس اللحظة التي غيّرت فيها وضعي، ما جعل اتّزاني يختلّ وجعلني أطير في الهواء لأسقط بينهم دون حراك.

٢

كانت السّقطة أخفّ مما أتوقع...

الأرض كانت رخوةً. وخفّفت من وقع السقطة محاولاتي المستميتة للإمساك بفروع الشجرة وأنا أسقط. لم تفلح تلك المحاولة في منعي من السقوط قدر ما نجحت في تمزيق جلد ذراعي. حين سقطت على الأرض كان الدم يسيل من ذراعي الأيمن بشكل أكثر، كان فيه جرح طويل من منتصف ذراعي حتى الرّسغ. لم يكن غائرًا، لكنه كان أعمق من خدش بسيط.

لم أعر تلك الجروح انتباهًا؛ فأنا على وشك أن أصير وليمة لمجموعة من الحيوانات التي لم أر مثلها من قبل. بدأ الخمسة يتشمّمونني ويدورون حولي وأنا على الأرض لا أقدر على الحركة. عدلت وضع ساعدي، فزمجر كبيرهم ما جعلني أسكن تمامًا. لعله يكون من الذين يمقتون اللّحم البشري، ويحاصرني فقط لأنّه يعتبرني تهديدًا يجب التّعامل معه.

اقترب بفمه من ذراعي المجروح وأخرج لسانه ولعق خيط الدم السائل من الجرح، ثم رفع رأسه للسماء وعوى ثم تنحّى جانبًا. جاء

الثاني وانتظر حتى تجمع خيط آخر من الدم ولعقه وعوى، وهكذا فعل الباقون وأنا ممدّد بلا حراك. كانت أفعالهم أشبه بطقوس من قبيلة بدائية منها بسلوك حيوانات مفترسة.

في تلك اللحظة أيقنت أنني أحلم. بعد أن أستيقظ سوف أتّصل بقناة تفسير الأحلام وسوف يجيبني المفسّر ويقول: "إنّ هذه الذئاب هي الشّهوات التي تستهلكني، ولعقها للدّم دليل على أنّها تستنزف روحي".

شهوة الجسد، شهوة المال، شهوة التّملّك و... و... إلى آخر ذاك الكلام الفارغ.

هذا الحلم شديد الوضوح قد يكون علامة مرض نفسي...

سوف أذهب لطبيب نفسي وسيؤكد لي أنّ هذه الذئاب ترمز إلى عقد حياتي. فهذا الذئب مثلاً، هو مدرس الرياضيات الذي اضطهدني ثلاث سنوات، يضربني كل حصة دراسية؛ كنت غبيًّا في الأرقام بشكل لا يوصف، ولم آخذ عنده درسًا خصوصيًّا كبقية الأغبياء الذين يريدون تجنّب أذاه. وكان أبي يعتبر ضرب المعلم للتلميذ ممارسة إيجابية جدًّا، ولم يخطر بباله أنها -أحيانًا- تكون نوعًا من السادية والتشفي.

هذا الذئب القصير هو "سعد النصاب"، الذي أخذ مني تحويشة خمس سنوات وأرسلني للإمارات؛ حيث اكتشفت أن عقد العمل زائف وعدت بخفّيّ حنين. أمّا الذئب الأكبر فهو إحساسي الدائم بعدم الرضا عن مهنتي، مع أنّ دخلها جيد، أنفق عليَّ وعلى زيجاتي الفاشلة وعلى

كتاباتي المغمورة، عن شهادتي التي لم تعطني شيئًا وعن وحدتي القاتلة بلا امرأة ولا عيّل ولا تيّل.

لكن كيف سيفسر طبيبي النفسي أن هذه الذئاب لا تبدو كالذئاب خطمها ضيق وطويل، وآذانها قصيرة جدًّا وجلدها مبرقش كالنّمور تعوي أحيانًا بصوت فيه نبرة نحاسيّة، وتنبح أحيانًا وكأنها تسعل ؟!

سيقول إنها من خيالي المهتز بفعل حالتي النفسية.

الآن حان وقت الوليمة وهم يستعدون لنهش لحمي. اقترب الكبير واللّعاب يسيل من شدقيه، لكنه توقف حين ظهرت مجموعة أخرى من بين الأشجار القصيرة في الناحية التي لم أدخلها. دون مقدمات بدأت المعركة، كان القطيع الآخر من ثلاثة ذئاب رملية اللون بلا بقع، حجمها أكبر من المجموعة التي تحتجزني. هجم الكبير على أصغر واحد في المجموعة الثانية، وهجم اثنان على كل واحد من الباقين. تخطيط يبدو أنه مدبر من قَبْلُ. احتدمت المعركة وارتفع العواء المتألّم أحيانًا، المستغيث أحيانًا والمتحفّز أحيانًا أخرى.

بدأت أتسلّل وعيني عليهم وأنا أتحسس الأرض بيدي. كان الذئب الأكبر في مجموعتي (طبعًا مجموعتي فقد لعقوا دمي جميعًا) قد أوشك على القضاء على خصمه. لمست يدي على الأرض مقبضًا تحت جذع الشجرة التي كنت فوقها أمسكت به وجذبته، شعرت به يرتفع قليلاً معي ثم يرتدّ وكأنه مشدود بزنبرك. جذبته ثانيةً فأصدر صوتًا جعلهم جميعًا يتجمدون ويتوقفون عن العراك. بدؤوا جميعًا في النّباح عليّ والتحرك ببطء في اتجاهي، لكنني رفعت المقبض أكثر، ووجدته

يغطي بابًا لما يبدو أنه نفق أو غرفة تحت الأرض. فرميت نفسي فيه بسرعة وارتدّ الباب منغلقًا خلفي وابتلعني الظلام.

مكثت دقيقتين بلا حراك وأنا أسمعهم ينبحون ويخمشون الأرض. بدأ الظلام يخف قليلاً، وظهر أمامي النّفق الذي سقطت فيه أو هربت إليه. كان واسعًا يرتفع أكثر من مترين، وعرضه متران ونصف تقريبًا، يمتدّ مستقيمًا ويتسرّب ضوء داخله من فتحات صغيرة في سقفه. كان عطن الرائحة مثل بركة راكدًا، وكنت أشعر بعطش شديد. كان حلقي يكاد يلتصق ببعضه من شدة الجفاف. تحسست الجدران كانت تنز بقطرات ماء، مثل النشع الذي يخرج من جدار فوقه ماسورة ماء مكسورة. خطر ببالي أن ألعق الماء من على الجدار، لكن أصابتني الفكرة بالغثيان، وآثرت أن أنتظر؛ لعلي أجد مصدر هذا الماء. مشيت عدة أمتار بسيطة قبل أن تخور قواي وأجلس على الأرض لكي أريح جسدي المكدود.

تحاملت على نفسي وابتلعت ريقي وهممت بلعق الماء من على الجدار، قبل أن ألمح جزءًا في السّقف قريبًا منّي يتساقط منه الماء بانتظام. مشيت تجاهه بصعوبة وجلست تحته فاتحًا فمي لأعلى مبتلعًا قطرات الماء واحدةً تلو الأخرى، غير مهتمّ بما مرّ على بالي من أفكار عن مصدر الماء وطعمه الغريب.

الآن بدأت أدرك أنني لا أحلم. بدأت أخرج من حالة الإنكار التي أعيشها. أنا في غابة، تطاردني حيوانات مفترسة أختبئ منها في نفق، أشرب ماءً عطنًا وأشعر بجوع شديد وبآلام في سيقاني ووجهي وجروح ساعدي. أحاول أن أسترجع أحداث اليوم السابق، آخر شيء

لا يزال يعلق بذاكرتي في العالم الطبيعي، ذلك العالم المليء بضجيج السيارات وصراعات البشر.

أذكر أنني استيقظت بالأمس وذهبت إلى (كومباوند) تعاقدت مع أصحابه على إجراء صيانة أسبوعية لأعمال السباكة. أنا أمتلك دكانًا للأدوات الصحية والسباكة، عملي كان مجزيًا، أختال بما أكسب فيه على قرنائي في بلدتي؛ لأعوض بذلك ما يمتازون هم به عني، فكل منهم لديه أسرة وأبناء بخلافي أنا الذي أخذت عهدًا على نفسي، عهدًا بعدم الإنجاب.

تزوجت مرتين وكل مرة كنت أختار امرأة توافق على شرط عدم الإنجاب: الأولى كانت أمًّا بالفعل والثانية تأخرت في الزواج، ولم تكن جميلة بأي مقياس، ووافقت على شرط عدم الإنجاب، ولأن النساء حمقاوات بالسليقة، ولأنهنّ ينسين وعودهنّ سريعًا حين يتعلق الأمر بغريزتهنّ للأمومة، فقد تراجعت الأولى والثانية عن هذا الوعد وكان الطلاق.

قمت في الصباح بالمرور على كل مخارج المياه التي تروي الزروع الموجودة، ثم إصلاح النافورة ومراجعة مضخات حمامات السباحة والاستجابة لأعطال السباكة هنا وهناك. العمل كثير ولا ينتهي، والمدير شديد السّماجة، وأغلب سيدات (الكومباوند) لئيمات ومقرفات. الكثير منهن جميلات وبعضهن يخرجن أمامي بملابس مكشوفة. لكنني تعودت أنّهنّ مجرد أشياء موجودة حولي لم أحاول مرةً أن أستكشف أو أنظر. لست ملتزمًا أو ذا أخلاق رفيعة، لكنني لست مولعًا بالنساء للحد الذي يجعلني أخاطر بفسخ عقد مجز كهذا.

في المساء مكثت في دكاني ساعةً، ثم تركته لمساعدي وذهبت إلى جلسة أدبية أقضيها مع مجموعة من الكتّاب المغمورين أمثالي على مقهًى في العباسية. كنت أحاسب على المشاريب كل مرة، فأنا أغناهم وأنا الوحيد من بينهم الذي لم يتأفّف من العمل الحرفيّ. وتركت وظائف الحكومة التقليدية التي يعملون بها.

كان يوم أمسٍ عاديًّا، كأيّ يوم لا ينبئ أبدًا بما أعايشه الآن. أفكر ورائحة العطن في النّفق تزكم أنفي في سبب وجودي هنا فأقول: (قد أكون مختطفًا، وهناك عالِمٌ مجنون يُجْري عليّ تجربة ما. قد أكون فاقدًا للذاكرة ونسيت أحداث أعوام كاملة سابقة في حياتي، سافرت فيها وعملت تاجر مخدرات أو سلاح مع عصابة من "كولومبيا" وأصابني حادث أنساني كل ما سبق).

على أيّ حال، سأموت الآن من الجوع أو من نزلة معوية حادّة من الماء العطن الذي ملئت به بطني، وسيفتقد العالَم تاجرَ مخدرات كبيرًا مثلي.

نعم! لا بد أنّ أحد ملاك الفيلات في (الكومباوند) جنّدني للعمل معه، ويبدو أنني كنت ماهرًا، فكلّفني بمهام في كولومبيا وسقطت بي طائرة البضاعة في هذه الغابة، ففقدت خمس سنوات من ذاكرتي.

ابتسمت بارتياح، وقد أعجبتني الفكرة. فتجارة المخدرات لا تؤذي غير المدمنين، وهي قليلة الشر لو قارنّاها بالشرّ الذي ترتكبه حكومات العالم كلها في حق شعوبها أو في حق شعوب أخرى.

أعجبتني فلسفتي أكثر من الفكرة التي أحاول بها تفسير وضعي الحالي.

حاولت أن أغفو، لدقائق ظللت ساكنًا مغمضًا عينيّ، محاولاً أن أبعد عن ذهني كل الأفكار الملحّة، حتى انتفضت على وقع قشعريرة سرت في جلدي حين أحسست بشيء يمشي عليه. طوّحت ساقي بقوة ورأيت ثعبانًا متوسط الحجم يسقط على الجدار المقابل ويمشي باتجاهي ثانيةً.

نعم يمشي لم أخطئ التعبير، كانت له أقدام دقيقة على طول بطنه تشبه أقدام أم أربعة وأربعين، لكنها أسفل منه بدلاً من أن تكون على جانبيه.

كان أسرع من الثعبان العادي، وصل إليَّ في أقل من ثانيتين.. لدغني فقذفته ثانية بقوة أكبر، ثم أمسكته من منتصف جسمه وضربت رأسه في الحائط بعنف حتى سكنت حركته.. أمسكته بسرعة وتفحصت نابيه، لأرى إن كان سامًّا أم لا! وأنا أجهل من دابة في أمور الثعابين، لكنني أذكر أنني شاهدتهم في أحد البرامج يفعلون ذلك. فشلت في فهم تكوين فم ذلك الثعبان ذي الأقدام، وزاد فزعي حين أحسست بألم ينتشر من مكان العضة إلى أعلى فخذي، فشمرت سروالي ونظرت لأثر النابين فوجدت بثورًا تمتد لأعلى، وانتابني إحساس بأني أريد أن أحكها بعنف. استسلمت لقدري ومددت جسدي وقلت لنفسي إن السم بدأ في العمل، لكن مضت نصف ساعة، ولم يحدث شيء سوى الحكة الشديدة، وكأن ذلك الثعبان يمتلك زبانة نحلة بدلاً من السم.

غفوت مرة ثانية بعد أن هدأت الحكة، وحين استيقظت كان الجوع هو ما يشغل بالي. فكرت أن أعود أدراجي لمدخل النفق وأصعد ثانية

لأفتش عن بعض الثمار التي تصلح للأكل. لا أذكر أنني رأيت ثمارًا غير تلك القاسية التي كنت أقذف بها الذئاب.

نهرت نفسي عن الكسل بصوت عالٍ وحاولت القيام، داست يدي على الثعبان، وأنا أستند عليها للوقوف، وهنا خطر ببالي أن آكله.. أسلخه ثم آكل لحمه نيئًا، كما كنا نفعل في فرقة الصاعقة التي حصلت عليها في خدمتي العسكرية. لم أتردد كثيرًا وبدأت في تجهيز وجبتي حين تناهى إلى مسامعي صوت صراخ امرأة يأتي من نهاية النفق الأخرى.

٣

أغلق سعيد حاسوبه الشخصي حين دخلت دكتورة هند عليه وهو جالس جوار عُمَر المريض المحجوز في قسم الحروق الحرجة. وقفت هند تنظر بحزم لمريضها الممدد على السرير مؤكدة أن الوقت قد انتهى، وأنها تساهلت معه كثيرًا. نظر إليها في استعطاف، فقالت –وهي تجاهد حنوها عليه–: "بقالك ساعتين بتملي سعيد القصة بتاعتك، وتأجل في معاد الغيار، ومعاد وجبتك". رفع ذراعه الملفوفة بالضمادات، وهو يطلب منها التفاوض، سيشرب زجاجة الميلك شيك الممزوج بالبيض كاملة، ثم يكتب له سعيد صفحة إضافية قبل أن يقوم معها لغرفة الغيار.

عمر المريض الذي استقبلته منذ شهر تقريبًا يعاني من حروق عنيفة لا أحد يعرف سببها. حروق غريبة الشكل لم تر مثلها من قبل، كما أن توزيعها على جسده يشعرك أن لسانًا من لهب اندفع من الأرض أسفله فأصاب أطرافه السفلى، وجانبي جذعه وذراعيه. مرة تلو الأخرى سألته عن كيفية إصابته بتلك الحروق دون أن يرد. بعد أن أصابته حمى لمدة أسبوعين متتاليين اقترب فيهما من الموت، قرر أن يبوح بسر إصاباته، لكنه أصر أن تُكْتب قصته حتى يقرؤها العالم.

كان معه سعيد شقيق مساعده الذي يعمل عنده في دكان السباكة، يستأجره ليكتب له بضع ساعات كل يوم. بعد أن قرأت أول أجزاء قصته شعرت أنه ربما مصاب بهلاوس سببتها سموم الحرق التي وصلت لعقله... طلبت له عرضًا على طبيب نفسي، لكنه لن يأتي قبل ثلاثة أيام، فالمستشفى هنا ليس فيها قسم للأمراض النفسية، وهم يرسلون في طلب طبيب من مستشفى العباسية للكشف عليه.

أمسك عمر بزجاجة المغذي وشربها بسرعة ممتعضًا، وهو يشتكي من طعم البيض الذي يجعل الميلك شيك أكثر زفارة من فسيخ نتن. قبل أن تتركه ليكمل، نادت على الممرضة لتعلق زجاجة من المحلول في الأنبوب الذي يغوص في أوردة رقبته.

كان سعيد يجلس على كرسي جوار سريره في غرفة الرعاية المركزة. سرير كهربائي يعتبر هو الشيء الوحيد الذي يعمل في هذه الغرفة التي تحوي مريضة أخرى يفصلها عنه ستارة رمادية سميكة. جواره مونيتور معطل وجهاز تنفس صناعي يقف متربصًا منتظرًا دوره في إنهاء حياته. فتح سعيد الحاسوب الشخصي ثانية، وأعاد فتح الملف الذي يكتب فيه، وبدأ هو يقص حكايته بصوت مجهد.

***

كانت المرأة تصرخ مستغيثة بكلمات مصرية واضحة.. ظننت من قرب صوتها أن النفق قصير لا يمتد أكثر من عشرة أمتار، لكنني وجدت صوتها يأتي من أعلى باب آخر في السقف يمتد النفق بعده لمسافة لا أعرفها، كان الباب مرتفعًا تكاد يدي تلمسه حين أقفز بكل قوتي، فكيف لي بفتحه. ما زالت المرأة تصرخ بإلحاح وتنادي أن ينجدها أحد.

صراخها يشوش تفكيري وأنا أنظر حولي أفتش عن طريقة أصعد بها لأفتح الباب.

مررت يدي على الجدران أسفل الباب يمينًا ويسارًا لعلي أجد سلمًا في الجدار، أو بروزًا أتعلق به، والمرأة تصرخ ثانية! وأنا أقول لنفسي إن هذه الهيستريا ستجعلني أتركها وليمة للذئاب في الخارج. خطر ببالي للحظة أن أتركها فعلاً فقد أصعد لإنقاذها فأقتل أنا.

لن يقتل أحد؛ سأفتح الباب فتحة قصيرة وأشير لها لتجري فتختبئ معي، خطة سريعة وفعالة وآمنة. ثم إنني لن أبقى هنا للأبد لا بد أن أجد طريقة للخروج من هذا النفق. أخيرًا وجدت بروزات متدرجة في الجدار فعلاً تصعد إلى الباب. أمسكتها، كانت زلقة لكنني تشبثت بقوة وبدأت الصعود. صرخت المرأة بصوت عالٍ ثانية، أجفلت من صرختها ففلتت يدي وسقطت على الأرض وأنا ألعن النساء، وحظي العاثر الذي ألقاني في غابة غريبة مع امرأة لا تكف عن الصراخ.

تحاملت على نفسي وحاولت ثانية حتى وصلت إلى الباب، ودفعته بحذر شديد بيدي اليمنى، في حين قبضت يدي اليسرى بقوة على مقبض بجوار الباب. رأيتها لم أتبين ملامحها، ولكن ثيابها كانت أكثر من عادية. كانت ترتدي سروالاً أسود فضفاضًا، وبلوزة طويلة زيتونية تصل إلى منتصف فخذها ورأسها مغطى بطرحة خضراء آخرها شريط من لون آخر.

كانت تقف على فرع من شجرة، وقف أسفلها حوالي عشرة جرذان كبيرة في حجم القطط. لمحتني فنادت عليَّ راجية أن أهشهم بعيدًا عنها. لم أتحرك أشرت إليها بعصبيه أن تجري نحوي دون أن أتكلم، حتى

لا ألفت نظر الجرذان إليَّ، أشارت ثانية ونادت عليَّ، وحين وجدتني أكتفي بالإشارة هتفت بغيظ: "خلي عندك دم يا بني آدم، انت مش راجل"!

سببتها في سري، لكنها كانت على حق؛ هذه مجرد جرذان ويجب أن أخرج وأهشها عنها وأنقذها من هذا الموقف، ثم إن صياحها قد يجذب الذئاب وأنا في غنى عنها. دسست ذراعي ورأسي بين الباب والأرض ثم رفعت جسدي حتى خرجت. صحت على الجرذان فتوجهوا نحوي فأمسكت غصنًا سميكًا من على الأرض وخبطتهم به فتفرقوا.

اقتربت منها ومددت يدي لأربت على كتفها، ففوجئت بها تمسك بتلابيبي وهي تصرخ وتسألني من أنا وكيف جئت بها إلى هذا المكان حاولت أن أهدئ من روعها، لكنها ظلت تهذي وتقول إنها مختطفة وأنني المسؤول. كان من الواضح أنها مصدومة، حاولت أن أربت عليها ثانية، لكنها دفعتني بعيدًا وجلست على الأرض تبكي.

تركتها حتى بدأت تهدأ، ثم اقتربت منها وقلت لها إنني مثلها تمامًا، كنت نائمًا واستيقظت لأجد نفسي في هذه الغابة. سألتني كيف أفسر ذلك، فطلبت منها أن ننزل للنفق، ونكمل كلامنا فيه قبل أن تعود الذئاب ثانية. نظرت إليَّ بتشكك وسألتني عن النفق وكيف اكتشفته. أخبرتها بالقصة... أبت أن تنزل معي بطريقة أوحت إليَّ بأنني أدعوها إلى شقتي.

أقسمت لها أنني حسن النية، وأنني أخشى ممَّا قد يصادفنا في هذه الغابة، لكنها تمنعت بحدة. قلت لها إن الماء في الأسفل، رفضت! قلت

لها إن لدي ثعبانًا طازجًا ومسلوخًا وجاهزًا للأكل، امتعضت وكادت أن تقيء، لم يقنعها بالنزول معي إلا صوت عواء ذئب قادم من غير بعيد.

مشت خلفي مسرعة حتى وصلنا إلى الباب، وحين أمسكت بمقبضه وجذبته، أبى أن ينفتح معي. امتقع وجهي واضطربت، حاولت ثانية وثالثة دون جدوى وهي تنظر نحوي بجزع. انتفضت مفزوعة حين تصاعد العواء ثانية. نظرت حولي لأستبين الطريق إلى الباب الذي نزلت فيه. كانت كل الأشجار متشابهة، والممرات بينها لا يميزها شيء، وقفت حائرًا فسألتني عن شكل النفق وشكل الباب، واتجاه المقبض، فهمت ما كانت تفكر فيه. كانت ذكية وحسنة التصرف بعكس ما يوحي به صراخها المتكرر.

بحساب اتجاه المقبض واتجاه النفق، خمَّنت الممر الذي سنسلكه. جذبتها من يدها واتجهت نحوه سريعًا، لكنها نزعت يدها من يدي بعنف، مؤكدة أنها ستمشي خلفي دون الحاجة لأن أمسك يدها. مشيت مهرولاً أمامها وأنا أتمتم مغتاظًا من هذه الرأس التي ينبغي كسرها. سمعنا عواء الذئب يقترب حين أوقفتني وهي تقول إننا مشينا مسافة أطول من عشرين مترًا، ولا بد من أننا تجاوزنا الباب!

وقفت مبهوتًا وأخذت أنظر حولي يمينًا ويسارًا إلى أن رأيت الشجرة التي كنت عليها. جرينا نحوها ونظرت إلى الأرض فوجدت مقبض الباب مكسورًا. حاولت أن أشد بقاياه فانزلقت من يدي وصار العواء عواءين ويقتربان أكثر.

لم أجد أمامي مفرًّا من صعود الشجرة ثانية، والانتظار حتى يمران. حين قلت ذلك ردت بعصبية أنهم سوف يتتبعون رائحتنا، أكدت لها أن رائحة دمائي لا تزال طازجة، وستغطي على رائحة عرقنا بالتأكيد. عاونتها على الصعود وهي متبرمة، وصعدنا للأعلى، وكما توقعت مشى الذئبان في طريقهما متوجهين على الأرجح لوليمة أخرى. نظرت إليَّ وهي تسألني هل ننزل الآن فطلبت منها الانتظار قليلاً حتى يبتعدا.

نزلَتْ قبلي وسقطت على الأرض كدبة. لم تكن بدينة لكنها كانت ممتلئة قليلاً للحد الذي يطمر خصرها، ويجعل جذعها قطعة مستقيمة بلا انحناءات. جلست على الأرض تلتقط أنفاسها وتحكي لي كيف وجدت نفسها هنا.

٤

كانت ترتجف وهي تتكلم وأنا أخشى أن أقترب منها، حتى لا تُسمعني ما لا أرضاه. لم تخبرني أي شيء عن نفسها في البداية. قالت إنها كانت في مصعد وأن المصعد ارتج بها بشدة، وارتطم رأسها بأحد جدرانه، فأغمي عليها ثم أفاقت لتجد نفسها على الأرض هنا، وأنها ظلت بلا حراك مذهولة من الصدمة تحاول استيعاب ما يحدث. لم تشك مثلي أنها تحلم وكل ما في خاطرها أنها مختطفة لسبب لا تعلمه.

كان صوت العواء يصلها أحيانا، وكان ذلك سببًا آخر لتظل متجمدة في مكانها حتى رأت الجرذان الكبيرة التي جعلتها تجري بلا توقف حتى انقطعت أنفاسها، وحاصرتها الفئران أسفل الشجرة. سألتها ألا يمكن أن تكون فاقدة للذاكرة وأن عدة سنوات مرت انمحت من ذاكرتها. نظرت إليَّ غير مصدقة أنني أطرح هذه الفكرة الغريبة، وكشفت عن ساعدها وفيه أثر لسعات قالت إنها حصلت لها بالأمس حين كانت تجهز الغداء.

سألتني عن الماء فهي أوشكت على الموت عطشًا، قلت لها عن الماء في النفق، امتعضت مني واقترحت أن نبحث عن مصدر للماء النظيف،

فما دام يتسرب في النفق فلا بد أن هناك جدولاً أو نبعًا قريبًا. نظرت لها مترددًا؛ رأيها فيه وجاهة لكنني لا أثق بآراء النساء، فآراؤهن دومًا تقود للمهالك، وكما كان يقول أبي: "شورة الست لو صحت بخراب سنة".

كيف سيكون شكلي وأنا أمشي خلف رأي امرأة هكذا، ثم إن النفق أمان وليس فيه سوى ثعابين غير سامة. من يدري ما الذي سنقابله إذا مشينا في الغابة: نمرًا أو دبًّا أو عفريتًا أزرق. ألحت ثانية فهززت رأسي موافقًا، لكن سنقوم بالأمور على طريقتي. سنفتح باب النفق معًا ثم نضع قطعة خشب في الفتحة حتى لا ينغلق. لن نمشي أكثر من خمسين مترًا في أي اتجاه، ثم نعود لباب النفق ونسلك اتجاها آخر.

بدأنا المشي، شكل الأشجار هو نفسه تتخلل بينها شجيرات قصيرة عليها ثمار حمراء لا أدري أفاكهة هي أم طماطم. مدت يدها لتأخذ واحدة لكنني حذرتها "انتي عارفه إيه دي! مش يمكن تسممك" نظرت إليَّ بيأس ثم تركتها. جاوزنا خمسين مترًا ولم نجد ماءً فعدنا ثم سلكنا ممرًا آخر ظهرت فيه أشجار عالية، تمتد فروعها حتى قممها، عليها حيوانات تشبه النسانيس الصغيرة، ترمقنا في فضول، ثم بعد ثلاثين مترًا اختفت تلك الأشجار، وبقيت فقط أشجار أقصر تظهر خلفها من بعيد أشجار طويلة أخرى.

ظهر لنا جدول ماء أخيرًا يقطع مسارنا عموديًّا، عليه تهللت أساريرنا وهممنا نشرب من الماء بأيدينا دون حذر. كان العطش يسبق تفكيرنا، لحسن الحظ كان الماء عذبًا فيه طعم لاذع قليلاً كأن أحدًا سكب عليه قليلاً من الخل.

ارتوينا وتمنت هي لو كان معنا زجاجة أو قربة نملؤها بدلاً من الذهاب إلى الجدول كلما شعرنا بالعطش. كنا عائدين للنفق صامتين كأن على رؤوسنا الطير، حين سألتها عن اسمها. قالت دون أن تنظر إليَّ: "شادية... وأنت"؟ فأجبت: "عمر".

كان وقع اسمها غريبًا.. اسم من جيل قبلنا، وددت أن أسألها عن سبب هذا الاسم، لكني أحسست بالسخف فسألت عن عملها. جاوبتني ونحن نمشي عائدين إلى باب النفق: "موظفة في الحكومة"، نظرت إليها وأنا أقول مازحًا: "من بتوع فوت علينا بكره"، رمقتني بنظرة لا تخرج إلا من موظفة متزمتة تنظر لمواطن لحوح يرجوها أن تنجز أوراقه وهي لم تتناول إفطارها بعد.

بدلاً من أن نكمل تعارفنا سألتني إن كنت لاحظت أننا أوشكنا على الغروب. لاحظت أنا منذ استيقظت أن السماء مصفرة، كأننا في يوم عاصف لكن دون غبار، نظرت إلى السماء حين قالت ملاحظتها، وجدت لونها يميل إلى البرتقالي المشوب بلون بني. لون شعر منال علي وحسين فهمي. منال التي كنا يمشي أصدقائي خلفها في المرحلة الثانوية من المدرسة حتى البيت، ولم يجرؤ أحدهم على محادثتها، حتى كلمتني هي بعد حصة عند مدرس خصوصي وكان ردي سمجًا جعلها تنظر إليّ بقرف وتتركني.

وصلنا إلى النفق ونزلت هي أولا ثم أنا. كان مظلمًا أكثر من المرة الأولى. أصرَّت هي على أن نبحث عن مصدر للضوء، قلت لها إنه كان منيرًا وسط النهار بفعل فتحات في السقف. لم نمضِ وقتًا طويلاً في النقاش حتى بدأنا في البحث عن مفتاح للضوء أو شيء من هذا القبيل.

بحثنا كثيرًا دون جدوى، ثم جلسنا في يأس وانفجرت هي في البكاء. حاولت طمأنتها بالكلام ثم ربت على كتفها، فأجفلت.. اعتذرت لها، فقالت محذرة: إن ظرفًا استثنائيًّا كحالتنا تلك لا يشفع لي في التغاضي عن الأصول، ثم أشاحت بوجهها وهي تقول: "أنا آسفة، بس مكنتش أتخيل إني أبقى مع راجل غريب لوحدنا كده".

تراجعت مذهولاً من كلامها، وتساءلت بحدة إن كانت قد تخيلت أن تصحو من النوم لتجد نفسها في غابة تجري وراءها جرذان ضخمة. وكأن كلامي ذكرها بغرابة وضعنا، فانفجرت في البكاء ثانية، فاعتذرت مرة أخرى رغم أني لا أعتذر كثيرًا في العادة.

قالت: "أنا جعانة أوي"، لم تكمل جملتها إلا وأضواء خافتة بدأت تظهر تدريجيًّا وتضيء النفق. أول ما رأيت وجدت ثعباني الحبيب أمامي، قلت لها إنه الحل الوحيد، لم تقبل! أخرجت من جيبها ثمرة، وقالت إنها التقطتها في الطريق، وأنها رأت النسانيس تأكل منها. تعجبت من دقة ملاحظتها، فلم أشغل بالي بذلك ربما لأنني كنت أمني نفسي بأكل الثعبان.

قسمت ثمرتها نصفين. كانت أشبه بتفاحة كبيرة إلا أنها من الداخل فيها بذور كثيره دقيقة وعصارة قليلة. رفضت هديتها بامتنان ليس تكرمًا مني، ولكن من مبدأ ما تعرفه أفضل ممَّا لا تعرفه. بدأت أعالج الثعبان، وأنا أنظر إليها لأرى أثر مذاق تلك الثمرة على وجهها. كانت طعمها سيئًا شبهتها بالسبانخ الفاسدة، لكنها تناولتها على أي حال، فهي لن تكون أسوأ من ثعبان نيئ.

"لو سمحت عاوزة أنام" قالتها بفراغ صبر، ما لي أنا ونومها! لا يعقل أنها تريد مني أن أهدهدها أو أحكي لها حدوتة، قلت لها مازحًا: "على الرحب والسعة"، وإن البيت بيتها، فطلبت مني أن أبتعد مسافة كافية، بحيث تنام على راحتها. مسافة تجعلها غير ظاهرة لي، زفرت في ضيق شديد من هذه المرأة التي تتصرف وكأننا نبيت في عزبة أهلها.

تركتها ومشيت أستطلع النفق، كان مضيئًا أكثر من إضاءته أثناء اليوم، وبدت لي جدرانه الحجرية الرطبة أكثر. بعدما تجاوزت الباب الثاني الذي خرجت منه لها أول مرة كان النفق ينحرف يمينًا، ساقني فضولي فتتبعت الطريق وفوجئت به يمتد طويلاً وضوء يظهر في نهايته. ضوء أبيض مختلف عن الأضواء الباهتة الصفراء في السقف... لا بد أن في هذا الضوء مفتاحَ الحل لموقفنا هذا.

ناديت بصوت عالٍ: "مدام شادية"! تردد صدى صوتي عاليًا في النفق، فجاوبتني بغلظة مستفسرة عما أريد، ومحذرة من استخدام لقب مدام قبل اسمها. طلبت منها ثانية أن تأتي متجاهلاً كلامها، ثم سبقتها وهي تمشي خلفي حتى وصلنا لمصدر الضوء.

كان النفق مسدودًا بجدار، وكان ثمة باب كبير يمتد من الأرض إلى السقف، يحتل ثلثيه تقريبًا وحوله شريط ضوء أبيض، وعلى يمين الباب شاشة زجاجية كبيرة طولية تحتل باقي الجدار. تبادلنا النظرات المذهولة قبل أن أحاول فتح الباب، لكنه كان صامدًا لا يهتز. كان معدنيًّا طرقت عليه فأصدر صوتًا مصمتًا.

كانت هي تتفحص الشاشة قبل أن تشير إلى يمينها، حيث زر صغير أزرق مكتوب عليه (اضغط هنا)، وبدون تفكير ودون أن

أشاورها ضغطت الزر. فتحت فمها لتعترض إلا أنها صمتت حين أضاءت الشاشة بلون فيروزي، وخرجت منها موسيقى وترية لم أسمعها من قبل، ثم اختفى اللون الفيروزي وظهر رجل على الشاشة غريب الخلقة، وخلفه ستارة بيضاء صافية وبدأ يتكلم.

٥

كان واسع العينين، ذا فم عريض بارز، وأنف كبير مفلطح.. جبهته كبيرة مائلة للخلف، صوته رصين كأنه يلقي محاضرة، قال بعربية فصيحة: "العزيز عمر، العزيزة شادية، مرحبًا بكما في الجزيرة الرابعة من الأرخبيل الهلالي. لا ترهقا نفسيكما بمحاولة تذكر كيف جئتما إلى هنا فقد كنتما مخدرين في أثناء ذلك. لا تحاولا تفسير أو فهم الغرض من وجودكما هنا. أريد منكما التركيز فيما يلي.

الباب المجاور لهذه الشاشة يفضي إلى ملجأ مجهز بالكامل بكل وسائل الحياة الحديثة، وبمؤن تكفي لسنوات، إذا اخترتما فتح هذا الباب فسوف تبقيان هنا ولن يسمح بالمغادرة لمدة ثلاث سنوات، أثناءها سوف يكتب كل منكما أدق تفاصيل حياته، منذ بدأ وعيه حتى اليوم، كل الأحداث وكل المشاعر والانطباعات والأفكار التي صاحبتها. في نهاية كل عام سنستقبل جزءًا من المذكرات، ولا تقلقا بشأن كيفية التذكر، فهناك عقار مخصص لذلك لكل منكما".

كانت ملامح الرجل تحوي القليل جدًّا من التعابير إذا قارنتها بالطبع بوجهي الذي تصبب عرقًا وبوجه شادية التي أوشكت على البكاء.

"في نهاية كل سنة سيصل لكما جزء من شفرة فتح باب. بعد إكمال الأجزاء الثلاثة ستتمكنان بواسطتها من فتح باب يقودكما إلى مرفأ السفينة التي ستأخذكما من هنا".

صمت الرجل قليلاً، وكأنه ينتظر لنستوعب حديثه. كان بين حاجبه مسافة عريضة لا أعتقد أنها تسمح له بتقطيب جبينه ليتناسب مع ما قاله لاحقًا.

"أي محاولة لكتابة مذكرات كاذبة أو اختلاق أحداث ستكون عواقبها مضاعفة المدة، وأي محاولة لفتح الباب قبل انتهاء المدة قد تنتهي بموت أحدكما".

سببته بفجاجة معترضًا على كلامه، في حين صرخت هي مولولة، وقبل أن تستفيض في ولولتها أكمل الرجل: "هناك بديل آخر، هو أن تبحثا في الجزيرة عن طريقة للخروج منها، وفي حال نجاحكما لن يمنعكما أحد، وسوف نزودكما بثلاث حقائب تحوي وسائل لإعاشتكما في أيامكما الأولى من محاولة البحث". ابتسم الرجل أو هكذا خُيِّلَ إليَّ قبل أن يقول: "لكن عليَّ التحذير، فالجزيرة كبيرة وخطرة للغاية، والنجاة فيها من هجمات حيواناتها ليست مشكلة أصعب من مشكلة تدبير الغذاء والاحتماء من غضب الطبيعة".

أحسست بغيظ شديد، وداخلي إحساس متزايد بأننا فئران تجارب، وشادية جواري تتمتم وعيناها مغرورقتان. هذا الأحمق لم يجد غيرنا ليجري علينا تجاربه، ألم يكن في مقدوره أن يأتي بشاب رياضي مفتول العضلات، وعالمة في الأحياء أو الكمبيوتر مثلاً. لم يجد إلا رجلاً مترهلاً وامرأة ممتلئة وكلاهما يعمل في مهنة لا علاقة لها بأي مغامرات.

أظلمت الشاشة لثانية، قبل أن يظهر رجل آخر يشبه الأول، لكنه مفتول الساعدين. ملابسه توحي بأنها زي عسكري. قال الرجل: "يمكن أن تختارا دخول الملجأ في أي وقت من الآن ولمدة أسبوعين يمكن لكما استكشاف الجزيرة، لكن إذا مات أحدكما خلال الأسبوعين سيفقد الثاني الحق في دخول الملجأ".

للمرة الثانية تأتي سيرة الموت بمنتهى البساطة، كأنه خطوة اعتيادية علينا التعايش معها. كأننا انتحاريان أو فردا كوماندوز.. ابتسمت رغمًا عني حين جال ذلك الخاطر برأسي وأنا أتخيل كوماندوز اسمها شادية طولها متر ونصف ووزنها يقارب الثمانين.

"بعد انتهاء التعليمات ستظهر لكما ثلاث حقائب: الأولى فيها أدوات، قداحات، أحبال، أقراص مشتعلة، مطرقة إلى آخره، إضافة إلى كتيب تعليمات وخريطة للجزيرة. في الثانية أسلحة، سكاكين، وحراب، وفي الثالثة أدوية وضمادات وكتيب إرشادات لاستخدامها... حظًّا سعيدًا لكما".

أظلمت الشاشة وأضاء مصباح في السقف، وانفتحت كوة في الحائط على يسارنا بها ثلاث حقائب كبيرة. لم يتحرك أحدنا، ظلِلْنا مذهولين نتبادل النظرات. عليَّ أن أفعل شيئًا غير الانصياع لهذه اللعبة اللعينة. من الذي يقوم بها على أي حال، مخابرات دولة ما تؤدي تجارب على قوة تحمل البشر أم عصابة من المليونيرات الذين يريدون التسلية أم عالم مجنون.

كانت دموعها تنساب بصمت حاولت أن أتكلم لأهدئ من روعها للمرة العاشرة هذا اليوم، لكنها تهاوت فاقدة الوعي. اقتربت منها،

كانت تتنفس بانتظام، فآثرت تركها حتى أفكر بهدوء. تذكرت كلام الرجل عن الحقائب والضمادات في إحداها. فتشت فيها حتى وجدت مطهرًا مسحت به جرح ذراعي. لم أغطه بضماد لكي لا أستهلك مخزوننا سريعًا، فالجرح طويل وهو سطحي لا يثير القلق. لم يكن عندي القدرة على فحص باقي الحقائب، كنت مجهدًا وأريد أن أنام. ألقيت جسدي على الأرض وغرقت في نوم عميق.

رأيت في نومي زوج أختي الكبرى الذي عشت في بيته أربع سنوات قضيتها في مرحلتي الثانوية. كان حقيرًا يجيد التقليل من شأني والتحدث بطريقة تحرق دمي، دون أن أمسك عليه خطأ. كنت أطارده في الحلم.. كان بيده حقيبة تشبه التي أخرجت منها الضماد منذ قليل، جريت خلفه حتى فقدت أثره في شارع قديم يشبه شوارع الغورية؛ حيث كنت أقيم أيام الجامعة. وقفت تائهًا حتى سقطت على مياه قذرة من شرفة فوقي، نظرت إلى الأعلى فوجدتها طليقتي الثانية.

كنت نذلاً معها. حملت رغمًا عني فهجرتها وبعد شهرين فقط أجهضت.. قالت طبيبتها إنها أجهضت بسبب حالتها النفسية، لم أصدق هذا الخرف، كنت متأكدًا أنها تكذب لتستعطفني لنعود معًا، وتحمل ثانية وأقبل بالأمر الواقع، حتى لا أُتَّهم بقتل ابني ثانية. كنت أذكى من أن تنطلي عليَّ الخدعة، طلقتها وارتحت، لكن بعد فترة أدركت أني ظلمتها وقررت ألا أتزوج ثانية قبل أن أفكر مليًّا.

أيقظتني شادية بصوت زاعق وهي تنهرني على النوم بعمق، كأنني في بيتنا. لا أعرف أيهما أسوأ الرحلة أم الصحبة! هذه المرأة حادة الطباع ونكدية لأقصى درجة وأنوثتها محل شك. لو كان معي فتاة برقة وجمال

نجاة في "سوق العصر"، ربما كنت اخترت قضاء ثلاث سنوات في الملجأ دون تفكير، لكن حظي أوقعني في فتحية زوجة سيد كشري في "لن أعيش في جلباب أبي".

سألتني ماذا سنفعل وقالت إنها تفكر في الإضراب عن الطعام، وأن هذا سيجبر مختطفينا على إخراجنا من لعبتهم تلك. ضحكت ساخرًا وقلت لها إنهم يعتبرون موتنا شيئًا عاديًّا، وأن أصحاب هذه الجزيرة إما مخابيل أو قتلة أو على الأقل يعتبرون موتنا ضررًا جانبيًّا، كما يفعل طيار يقصف بالقنابل بيتًا به مئة شخص ليقتل عدوًّا واحدًا.

تحدثت قائلة إنها لا يمكنها الغياب كثيرًا. إن في رقبتها طفلة يتيمة تربيها، ابنة شقيقتها التي ماتت في حادث مع زوجها، وأنها لا تعرف الآن ما سيحدث لها ومن سيرعاها. أمها مريضة ولا تقدر على رعايتها، قد يأخذها شقيقها الأكبر لكن زوجته حرباء لن تعامل الفتاة أبدًا بشكل طيب، ستجعلها تتمنى لو تذهب لملجأ أيتام.

لم تفصح عن عمرها لكنني رجحت أنها في الثلاثينات، وكانت الطفلة في العاشرة ترعاها منذ كانت في الرابعة. لم يوافق خطيبها على أن تعيش الطفلة معهما بعد الزواج ففسخت خطبتها له، ولم يوافق على ذلك الشرط أحد آخر، لم تجد رجلاً بمعنى الكلمة يوافق أن يتحمل مسؤولية طفلة يتيمة الأبوين. لو قيمتني بمقياسها الأعوج ذلك فأنا لا أعد رجلاً بالمرة.

لن يبحث عني أحد؛ كان هذا ما جال بخاطري، وأنا أستمع إليها. سيظل دكاني مغلقًا وقد يسطو عليه مساعدي، أو يعرف ابن عمي بأمر اختفائي ويطالب به إرثًا. زبائني سيفتشون عن سباك آخر، أصدقاء

المقهى سيقولون إنني نذل سافرت إلى الخليج دون أن أخبرهم، وبقية أقربائي في البلد سيقولون إنني إما مت أو أن الفلوس جرت في يدي ونسيتهم.

لن يحدث شيء لو مكثت ثلاث سنوات هنا: أكل ومرعى وكتابة مذكرات من أيام الطفولة؛ حيث تسلق الأشجار، والعوم في الترعة، ولعب الكرة في جرن الشوادفي، وسرقة الفول الحراتي والذرة من الغيطان، وشويهما ليلاً إلى أيام ثانوي؛ حيث التنقل بين مهن مختلفة، وحيث أفلام عادل إمام ونادية الجندي إلى آخره. لكن هذه المسكينة لن تتحمل البقاء هنا وهناك من ينتظرونها، حياتها جزء من كل، وحياتي جزء فاقد للكل.

سأفعلها وأجازف معها بالبحث عن مخرج، سأكون رجلاً بمقياسها هذه المرة. لا تنقصني الرجولة ولم أكن نذلاً، لم أتخل عن أحد من قبل، لكنني ظللت طيلة عمري أهرب من المسؤولية وأختار الحلول الأسهل، لم أختر أن أعافر أو أعاند الظروف... أبحث دومًا عن أقرب مخرج حتى لو كان يؤدي إلى نتيجة أقل كثيرًا من المطلوب، سأجازف تلك المرة، ليس من أجلي، بل من أجل هذه المرأة التي لا أطيق صحبتها.

٦

كان الصباح هادئًا... توجهنا إلى الجدول أولاً لنروي عطشنا، ونملأ القرب الجلدية التي زودونا بها، ثم نجرب بعض الثمار لنفطر عليها. هناك ثمار كثيرة هنا تصلح للأكل، وقد وصفها كتيب الإرشادات بدقة، ووصف أيضًا الثمار الضارة، منها ما يصيب بالقيء والإسهال، ومنها ما يجلب الهلاوس، والنوع الأخير شديد الشبه بأحد الثمار القابلة للأكل. لن يضيرني كثيرًا لو أخذت هذا الأخير، فقليل من الهلاوس قد يفيد.

كنت متسلحًا بسكين عريض وصاعق كهربائي من النوع الذي يستخدم للماشية، أمشي متحفزًا مرهفًا كل حواسي. سوف أصعق أول ذئب يقابلني، وسوف يبلغ قطيعه ليعرفوا أننا لسنا لقمة سائغة فيكفوا عن مطاردتنا. كانت المنطقة حول الجدول ممتلئة بأشجار قصيرة مثمرة، بعضها يصعب اقتلاعه، ما اضطرني لاستعمال السكين لقطعه من شجرته. جمعنا كمية لا بأس بها وجلسنا على الأرض نفرزها. كنا كحبيبَيْنِ في نزهة نيلية، غير أن ملابسنا كانت قذرة وكلانا عابس لا يتكلم.

قضمت أربعة أنواع مختلفة من الثمار، وجميعها ذات طعم لا يطاق. تركت الأكل وأطلقت سبابًا وأنا أعتذر للقلقاس الذي عرفت قيمته الآن. شادية على النقيض أكملت أكل ثمرة، قضمت منها وكانت محددة في اختياراتها: ثمرتان غنيتان بالطاقة، وواحدة فيها تركيز بروتينات مرتفع، وأوراق أخرى غنية بالفيتامينات والمعادن. كانت تمسك بالكتيب وتراجع واحدة واحدة. تمتعض قليلاً مع أول قضمة، ثم تبتلعها بصعوبة وتكمل.

اقترحت عليها أن ننزل للماء ونغتسل بثيابنا، ونجلس لنجففها في الشمس. "هو انت ما بتشغلش مخك أبدًا"، نظرت إليها مستهجنا، فقالت إننا لا نعرف ما يمكن أن يقابلنا في الماء، اعترضت على كلامها، فالجدول ضحل ولا شيء فيه يخيف ولا حتى سمكة. نزلت الماء متحديًا، وفردت جسدي على سطحه، أغمضت عيني وتركت نفسي أستمتع بهذا الإحساس المنعش في هذا الجو الصيفي الجاف. تناسيت لوهلة ما أنا فيه، وتخيلت نفسي في بلد آسيوي أقضي عطلتي. نظرت نحوها بظفر، فأدارت وجهها بضيق قبل أن تبتسم في شماتة حين صرخت وخرجت من الماء مفزوعًا.

كانت تلتصق بوجهي وأطرافي ثلة ديدان سوداء تقرصني، قالت لي هي، إن اسمها علقات، وأنها تمص الدم ما أفزعني أكثر. كان نزعها مؤلمًا للغاية، لا تقبل الواحدة أن تخرج إلا وهي تاركة قرحة مكانها. كانت تساعدني على انتزاعها، وهي تضحك لأول مرة منذ رأيتها. عدنا أدراجنا إلى النفق، وقمت بتطهير جروحي، ثم قمت صاغرًا بأكل خمس ثمرات، والغريب أنني شعرت بالشبع فعلاً.

كان في إحدى الحقائب خارطة تفصيلية للجزيرة؛ كانت الجزيرة شبه مستطيلة، وإن كان ضلعها الغربي محدبًا وكأنه ضلعان. كان أقصى امتداد لها طولاً سبعة كيلومترات وعرضا أربعة ولدهشتي كان غرب هذه الغابة جبل صغير لم نره إلى الآن من كثافة الأشجار الطويلة غرب مكان إقامتنا. في هذا الجبل شلال يصب في نهر تتفرع منه عدة جداول. تمتد الغابة شرقًا وجنوبًا، لا يفصلها عن الشاطئ سوى أمتار قليلة، أما في شمالنا فالنهر يقسم الغابة، ثم ينحني ليصب عند الشاطئ الشمالي الذي تفصله عن الغابة أرض منبسطة واسعة.

بدأت في شرح خطتي لها.. سوف نعتبر أن النفق معسكرنا، والنهر علامتنا الأساسية، سنمشي من النفق تجاه النهر، ثم نمشي بمحاذاة النهر لنصل إلى الجبل، عند منبع النهر سنعبره، ثم نمشي على سفح التل حتى نصل إلى الشاطئ. "هنمشي على الشط من أول الجبل هنا لحد نهاية النهر هنا"، قلتها وأنا أشير بيدي على الخارطة، متقمصًا دور قائد كتيبتي في سيوة، وهو يشرح لنا دورنا في مناورة عسكرية مشتركة. كان معنى خطتي أننا سننهي اكتشاف الشاطئ في ستة أيام على الأكثر على اعتبار أننا سنعود للمبيت في النفق كل يوم.

حركت رأسها غير مقتنعة، فهي لا تتخيل أن من أتوا بنا إلى هنا سيجعلون الأمر بهذه السهولة. قالت وهي تشير بأصابعها على نقاط زرقاء دقيقة متناثرة على سفح الجبل: "تقدر تقولي إيه دي"، حككت فروة رأسي وأنا أفكر. كان كل ما ظننته أنها نقاط لإكمال الشكل فقط، خاصة أن الخريطة مرسومة بشكل فني، وليست مجرد خطوط. قلت لها إنها تضخم المسائل، وإنها تفترض الأسوأ كعادة النساء، جادلتني قليلاً

لكنها في النهاية لم تجد طائلاً من ذلك، فنحن في النهاية مجبران على البحث عن طريق للخروج من هذا الكابوس.

اقترحَت أن نأخذ معنا مؤنًا ونكمل رحلتنا حول الشاطئ، دون العودة هنا لنوفر الوقت. استنكرت الفكرة، فالنهار خطر في هذه الجزيرة فما بالك بالليل! كان في حقائب المؤن خيمتان فرديتان وكيسا نوم، وكأن من جهزوه قد افترضوا أننا سنبيت في العراء، وكانت تلك حجتها الإضافية. هززت رأسي رافضًا بشدة، وتمتمت قائلاً إن: "شورة الواحدة لو صحت بخراب سنة"، رفعت حاجبيها في استنكار وهي تقولك "على أساس إنه أنا اللي شورت عليك تنزل المية".

احتدم النقاش بيننا وقبل أن ننهيه تناهى لأذني صوت مياه هادرة، وهي تنظر خلفي بدهشة. التفت فرأيت طوفانا من الماء قادمًا من الجهة الأخرى من النفق، حتى وصل إلينا وظلت المياه تتدفق بسرعة. ارتفع مستوى الماء سريعًا حتى تجاوز منتصف فخذي، وهي تصرخ قائلة إنها لا تعرف العوم. صعدت على الدرج الموصل للباب وحاولت فتحه. أطلقت سبابًا عاليًا حين عاندني الباب وأبى أن ينفتح مسافة أكثر من مقدار قبضة يد.

كان واضحًا أن هذا جزءًا من اللعبة اللعينة، ولا أستبعد أن ذئاب الأمس كانت ذئابًا مدربة تعرف ماذا تفعل، فالذئاب الطبيعية ستنهشني مباشرة. نزلت لها ثانية وطلبت منها أن تهدأ، وأن تبحث معي عن أي شيء يصلح، كخرطوم أو أنبوب مجوف. حاولت أن تفهم، فانفعلت وقلت لها لا وقت للشرح، والغريب أنها انصاعت هذه المرة، وأخذت تفتش في الحقائب كما أمرتها. اقترحَت أن نكسر صاعق الماشية، فجزؤه

الأوسط أنبوب مجوف، فرفضت الفكرة بحجة أن هذه أداة لا ينبغي التضحية بها.

كان منسوب الماء يعلو سريعًا، ونحن نبحث، وهي فالتة الأعصاب تقلب الأشياء على غير هدى. ارتفع منسوب الماء أكثر، حتى وصل إلى مستوى سرتي، وأسفل صدرها، وانغمرت أرفف الحقائب بالماء، فصار البحث مستحيلاً. طلبت منها أن تصعد على الدرج وتتمسك به فأنا أستطيع السباحة.

قررت أن أضحي بالصاعق وأكسره حين يصل منسوب الماء إلى الباب، لأجعل منه أنبوبا نمده للخارج ونتنفس به. كنت موقنًا أن الأمور ستصل إلى هذا الحد، وأنهم سيعذبوننا في هذا الوضع لدقائق، ثم ينحسر الماء كأن شيئًا لم يكن؛ الموضوع كله مجرد مرحلة أخرى من هذه التجربة المريضة. وصل الماء إلى رقبتي في الوقت الذي وقفت فيه شادية على الدرج وتذكرت في هذه اللحظة أن أكياس الخيام بها قوائم معدنية مجوفة من ذلك النوع الذي يمكن تغيير طوله. غطست في الماء ونادت هي على بصوت مرتعد، وصلت للحقيبة وأخرجت قائمين وصعدت للأعلى.

كانت قدماي لا تلمسان الأرض، وارتفع الماء أكثر حتى غمر النفق تمامًا، وبدأ يطفح من الفتحة الصغيرة للباب. كانت في حالة من الهلع، شرحت لها قبل أن يغمر الماء وجوهنا أن هذه مجرد لعبة، وأننا لن نموت، ودربتها على أخذ نفس من فمها من خلال الأنبوب. مرت دقائق ونحن هكذا نتنفس بثبات وصبر، ثم اضطربت هي دون أن أدري السبب، مددت يدي وأمسكت كتفها مطمئنًا، هدأت ثانية وعادت للتنفس بانتظام.

مر وقت لم أدرِ مقداره، لكنه كان كافيًا لأشعر بإرهاق شديد في ساقي وذراعي، فأمسكت بالدرج لأستريح محاولاً قدر الإمكان ألا ألمسها. بدأت تترنح، وبدا لي أنها على وشك الانهيار، فمددت ذراعي لأساعدها، زاد ثقلها على ذراعي وأحسست بها تستسلم للسقوط، فقرصت ذراعها بعنف. دفعتني بيدها حين فعلت ذلك وقد أفاقت واعتدل جسدها واشتدت قبضتها على الدرج. كانت عيناها مغمضتين طيلة الوقت، ولم يكن التواصل معها ممكنًا إلا باللمس.

خارت قواها ثانية، فقرصتها لكن دون جدوى، وبدأت في الغرق. لم يكن هناك مفر إذًا؛ أمسكتها ورفعتها لأعلى في اللحظة التي توقف فيها الماء أخيرًا عن الفيضان، وبدأ ينحسر حتى صار بمستوى شبر أسفل سطح النفق تم توقف. لففت ذراعي خلفها وسندتها ليظل رأسها فوق الماء وهي مغمى عليها. رججتها بعنف وقرصها من ظهرها بأطراف اصابعي حتى فتحت عيناها وشهقت وهي تأخذ نفسها، ثم لدهشتي أراحت رأسها على كتفي وهي نصف واعية.

صرخت بغضب طالبًا منهم أن يكتفوا وأن يفرغوا النفق، سببتهم وتحديهم إن كان فيهم رجلاً يواجهني. لم يجبني أحد وأنا طافٍ في الماء مستند بيد وقدم على الدرج، وذراعي الأخرى تمسك بامرأة نصف واعية والوقت يمر.

٧

كانت عبوة محلول الملح تفرغ السائل من بطنها المفتوح، ليسقط على الشاش الجاف الذي يغطي جرح عمر، فيشرب الشاش القليل من المحلول، ويترك الجزء الأكبر يسقط على الأرض مصطحبًا معه ما تيسر من القشور والدماء. كان عمر ينتظر بفزع لحظة نزع الشاش من على جرحه، ويرجو الممرضة أن تتمهل وأن تسكب الكثير من المحلول.

واجه الموت كثيرًا، لكنه في تلك اللحظات كان يموت بالفعل، ينخلع قلبه مع كل قطعة شاش تنزع. يتفصد العرق من جلده السليم بنفس القدر الذي يتفصد به الدم من جروحه. كان هو المريض الوحيد الذي ليس معه مرافق يعتني به، لكنَّ مرافقي المرضى الآخرين يتناوبون عليه ويعاملونه كما يعامل كل منهم قريبه. هذه تقف معه أثناء الغيار تشد على يديه، وأخرى تطعمه، وشاب يتبرع له بالدم، وعجوز تجلس معه ليلاً تحكي له عن الأيام الجميلة التي ولت.

وجدوه ملقى على الأرض مغمى عليه؛ سأله الأطباء كيف احترق أنكر أنه يعرف، سأله ضابط الشرطة ووكيل النيابة، سأله الكثيرون لكنه لم يجب، فلن يصدقه أحد مهما أقسم. بعد أن استطاع

النجاة من أزمة الأسبوع السابق، قرر أن يكتب قصته في شكل رواية. كان فيما مضى يحاول الكتابة عشرات القصص القصيرة ورواية واحدة لم يقرأ أيًّا منها غير معارفه ونفر قليل.

شجعته دكتورة هند، وقالت إن الكتابة مفيدة لحالته النفسية... كانت تضحك كلما أقسم لها أن الرواية حدثت له فعلاً، وأنه يصر على أن يكتب على غلافها أنها مأخوذة من قصة حقيقية. عندما أخبر الدكتور سامح –طبيبه الثاني– شجعه هو الآخر. سامح كان طبيبًا مجتهدًا وحنونًا، لكنه ينقلب إلى وحش في غرفة الغيار، لا يهتم بصراخه ولا أنينه، ويصر أن ينظف جروحه باهتمام زائد حد الوجع المُكْئِب، ثم يحرك مفاصله بعنف، فيمزق أنسجته المهترئة بحجة أنها تلتئم بطريقة تشوه مفاصله.

الأسوأ كان حين يصر سامح أن يجلسه في الجاكوزي حين ترتفع حرارته بشدة. كان فيما مضى يتمنى أن يجلس في جاكوزي من الذين يقوم بتركيبهم في الفيلات والشقق الفاخرة، وذات مرة فعلها كان صاحب الفيلا غائبًا، وكان مطلوبًا منه أن يصلح بعض التوصيلات، ملأ الجاكوزي بعد أن أتم عمله، وجلس فيه مستمتعًا بتيار الماء يدغدغ جسده. اليوم صار الجاكوزي أداة تعذيب يدعي الطبيب أنها نافعة.

يجلس معه في المساء يسامره، ويقول إنه يؤلمه لمصلحته، وأن الحنو الزائد ضار في حالته. لا يقتنع عمر بهذا الكلام، فهو متأكد أنهم في الجانب الآخر من العالم يهتمون بآلام المرضى ويفعلون شيئًا ما يجعل علاجهم فعالاً دون ذلك الألم الوحشي.

في ذلك اليوم أجلسَ عمرَ على كرسي متحرك معه في مكتبه، ليغير من كآبته، وطلب له فنجانًا من القهوة معه، وقال لعمر إنه سيكتب له اليوم بدلاً من الولد سعيد، الذي انشغل بعمل آخر وغاب اليوم. فتح الحاسوب الشخصي وبدأ يكتب خلف عمر، في وقت كان فيه أربعة مستمعين آخرين يتنصتون على حكاية عمر بالخارج.

***

بدأ الماء ينحسر ببطء وأفاقت شادية أخيرًا، ولحسن الحظ كانت مجهدة، فلم تضربني قلمين لأنني كنت أمسك بها. جربت ثانية أن أدفع الباب فانفتح مثلما توقعت تمامًا، فقد انتهت تلك المرحلة من اللعبة. أشعر أنني "سوبر ماريو" في لعبة فيديو صممها شخص مجنون يجلس محاطًا بعشرة أجهزة كومبيوتر في قبو عفن.

ساعدتها على الصعود، وجلسنا على الأرض نلتقط أنفاسنا حتى يفرغ النفق من الماء، كانت ترتعد كالفرخ المبلول. نظرت إليها وضحكت، لَوَتْ شفتيها استنكارًا وهي تسألني عن سبب ضحكي. لم أجبها واستمريت بالضحك. أصابتها العدوى وضحكت هي أيضًا وهي تسألني ثانية. قلت: "لو صبر القاتل ع المقتول كانت طلعت روحه لوحده"، لو أني انتظرت قليلاً لاغتسلت دون الحاجة للنزول إلى الجدول والتعرض لقرص العلقات. زاد ضحكها وقالت إن أفكاري دومًا خاطئة، وأنني يفترض أن أتركها تقود الأحداث.

تريد أن تقود الأحداث وهي كانت بلا حول ولا قوة منذ قليل، ولولاي لكانت في قاع النفق الآن غريقة. لن أتعجب أن قالت لي إنني بلا فائدة، وإنني لم أساعدها قط فهذه طبيعتهن. بعد قليل نزلت إلى

النفق لأرى هل جف أم لا، وليزيد طيني بلة وجدت النفق قد صار كبركة ضحلة، يرتفع الماء فيه حتى ركبتي. أولاد الملاعين يجبروننا على المبيت خارج النفق، وأنا الذي شعرت بامتنان؛ لأنهم وضعوا لنا معدات تحوي خيامًا وأكياس نوم. لم أكن أعرف أنها جزء من فكرتهم الملتوية.

حين عرفت لم تفزع كعادتها، لكنها انطلقت في السباب لهم ولأفكارهم وأخذت تقول إنها لن تنصاع لهذه الخطة، وأنها سوف تجلس هنا بلا حراك، وسوف تضرب عن الطعام حتى يعرفوا أن لعبتهم فشلت، وأنهم لن يستطيعوا أن يجعلوا منا دمى يحركونها كيف شاءوا. كان حديثًا حماسيًّا يصح في وقت آخر وظرف مختلف، حين يكون سجانك معروفًا وحين تكون لحياتك قيمة عنده.

نحن هنا مختطفان لا أحد يدري عنا شيئًا، ولن يعرف أحد إن متنا. لن تكون هناك جثة ولا طبيب شرعي ولا مفتش مباحث يمسك بالقتلة. نحن نشبه العبيد الذين أُخِذوا من أفريقيا ليعملوا في العالم الجديد؛ ليس لدينا خيار سوى الانصياع والتكيف. هذه الأشجار لم أر مثلها قبلاً، ولم أشاهد مثلها في برنامج أو صورة على الإنترنت. هذه الحيوانات لم تظهر أمامي في عالم الحيوان أو قناة ناشيونال جيوجرافيك. نحن في جزيرة بعيدة وسط المحيط لم يكتشفها أحد؛ أين المفر إذًا!

أخرجنا الحقائب من النفق واحدة تلو الأخرى بصعوبة. طلبت مني أن نجلس قليلاً فهي لا تزال متعبة، ولن تقدر على المشي لوقت طويل. أخرجت قماش الخيمة من إحدى الحقائب، وما إن بدأت تفرده على الأرض حتى تسمرت عيناها وهي تنظر خلفي. كانت مجموعة من

الطيور شكلها ما بين البط والإوز يمشون باختيال ولا ينظرون نحونا. لم أفكر كثير تناولت الصاعق ببطء من جواري ولمست به واحدة فسقطت على الأرض وتفرق الباقون في أكثر من اتجاه. جريت خلفهم واستطعت صعق واحدة ثانية قبل أن يختفي الباقون.

أخرجت السكين وذبحتهما وهي تنظر إليّ بدهشة، وتحلف أنها لن تأكل لحمًا نيئًا. قلت إننا سنشويهما، فمعنا قداحة والأرض ممتلئة بالأغصان الجافة. بدأت في نزع الريش منهما، وأنا شديد التحمس. طلبت منها أن تجمع بعض الحطب، فلم تطعني وقالت (اخدم نفسك) بالإنجليزية، لم أهتم لها، وأكملت مهمتي وأنا أنتوي أن أجعلها تتذلل لي قبل أن أذيقها قطعة لحم.

أنهيت مهمتي وقمت لأجمع بعض الحطب، ولكني توقفت حين رأيتهم. كانوا مجموعة من القطط تشبه تمامًا القطط البلدي التي تملأ مقالب الزبالة. هششتهم لكن لم يتراجعوا وقفزوا ناحية طيوري. استطعت إنقاذ واحدة وكانت الثانية بين ثلاثة يتجاذبونها، ويموؤون في غضب وقد احتدم الصراع بينهم. الباقون حاصروني محاولين نهش الطير من يدي، وشادية صرخت وفرت للنفق كما هو متوقع.

جريت نحو الصاعق أمسكته وصعقت أحدهم فتلوى على الأرض، وهرب الباقون ما عدا الثلاثة الذين يتعاركون على الطير. اقتربت منهم بثقة وصعقت أحدهم فأفلت الطائر وتلوى من الألم وجرى الثاني، أما الثالث فظل مسمرًا في مكانه وفكه يقبض على الطائر. قرقع الصاعق ثانية وقبل أن ألمسه ترك الطائر وجرى.

وضعت الأول على الأرض وأمسكت بالثاني وتفحصته مكان أفواه القطط، وقلت إن النار كفيلة بتطهير اللحم من لعابهم القذر. ثم فكرت أن أعطي شادية هذه الأجزاء التي عضتها القطط لو طلبت قطعة مني عقابًا لها. وبينما أنا مشغول بانتصاري تسلل أحدهم دون صوت فأخذ الأول، فجريت خلفه بالصاعق ولم أدركه وحين عدت كان الثاني قد اختفى.

توقعت شماتة شادية لكنها على العكس واستني وأحضرت لي بعض الثمار من مخزونها، وقررنا تناول الغداء سوية ثم نرحل. قلت لها إن ما فعلته تلك القطط جعلني أدرك شعور العجوز في قصة العجوز والبحر، وكيف نالت شهرة رغم أنها تحكي مجرد صراع على سمكة بين العجوز وأسماك قرش. الآن عرفت مغزاها، وكيف يؤلم ذلك الشعور. وجدت شادية تنظر إليّ غير فاهمة؛ لم تكن تعرف من هو هيمنجواي أصلا فكيف تعرف العجوز والبحر!

بعد ساعة كنا نمشي ونحن نجر أحمالنا. كانت ثلاث حقائب كبيرة مزودة بعجلات ومقبض معدني تتعلق في الوحل أحيانًا فأجذبها بعنف ونكمل طريقنا. كنا نمشي تجاه الجدول وكانت تتوقف لتجمع ثمرة من هنا وهنا، وكأنها تتسوق في متجر خضروات.

وصلنا للجدول شربنا منه وأكملنا مشينا بمحاذاته حتى نصل للنهر. في طريقنا بدأت أرى طيورًا ملونة وسمعت تغريد بعضها. رأينا شجيرات مزهرة ورأينا حيوانات أشبه بالأرانب تتقافز هنا وهناك. كان الجو صحوًا والمشي ممتعًا، ولا ذئاب ولا مفترسات، وأنا أقول لنفسي هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.

ظهر لنا الجبل لأول مرة.. كان بعيدًا جدًّا لا يعقل أن يكون بيننا وبينه أقل من عشرة كيلومترات على الأقل. فكرت هي أيضًا نفس تفكيري، فألقت الحقائب وجلست على الأرض وأخرجت الكتيب ونظرت إلى الخارطة ثانية. قالت إنه يبدو أنهم يستخدمون وحدات مختلفة لقياس المسافات، وأننا سوف نستغرق وقتًا طويلاً جدًّا لاكتشاف الشواطئ. قلت إن الشط مكشوف، وإننا لا يلزم أن نمشي عليه مترًا مترًا لنكتشفه، لكنها هزت كتفيها غير مقتنعة بكلامي.

واصلنا المشي حتى غابت الشمس الصفراء المختنقة وبدأ الظلام يهبط علينا. قررنا أن نعسكر في جانب الجدول رغم أننا أوشكنا على الوصول. فردنا خيمتينا وأشعلت نارًا بينهما، وقررت أن أتناوب معها، فليس من الأمان أن ينام كلانا ونحن لا نعلم ما ينتظرنا.

طلبت أن تنام هي أولاً، فوافقت وظللت مستيقظًا أسلي نفسي بشوي بعض الثمار لأستكشف أثر النار على طعمها. انتقيت ثمرة تشبه البطاطس وشويتها أولاً، وبعدما بدأت أقضم أول ثمرة انتبهت على صوت شادية، وهي تقول: "شايف القمر يا أستاذ عمر"، نظرت لها مستنكرًا، وأنا أقول لها إن الوقت مبكر لتلك الرومانسية، ردت بغضب: "هو انت فيه كلبة تبصلك أصلاً، إتنيل بص ع السما"، بُهت من طول لسانها ونظرت للسماء وصحت في ذهول: "يا الله"!

٨

عقدت لساني المفاجأة فنسيت أن أرد على هذه القرشانة التي تدعي أنني.... ما علينا، المهم أنه حين نظرت إلى السماء رأيت قمرين: واحدًا في وسط السماء محدبًا كأننا في السابع من الشهر الهجري، والثاني هلال صغير في الغرب ناحية الجبل. أول ما خطر ببالي أن في الأمر خدعة ما، وأن من يجرون التجارب علينا هم وراء ذلك.

أحسست أن الله يعاقبني بما أنا فيه، ولو كان يعاقبني على عشرة أخطاء مثلاً، فلا بد أنه يعاقبني بشادية على سبعة منها على الأقل. المرأة انتابتها نوبة من الجنون، صارت تؤكد أننا مخطوفان على كوكب آخر، وأن المخلوقات الفضائية تجري علينا التجارب.

كانت فرصتي لأرد عليها بقلة ذوق، نعتها بالجنون وتفاهة المنطق وضحالة الثقافة، وكدت أن أكمل وأنعتها ببعض الأوصاف الأخرى إذا ردت عليَّ بطريقتها المعهودة، لكنها انهمكت في البكاء، فتغيرت لهجتي تمامًا. كانت امرأة مسكينة تدافع عن نفسها باستخدام أسلوب فج في المعاملة، وارتداء ثوب مزيف من القوة والاستقلالية الوهمية. المرأة كائن هش لا تستقيم حياته دون دعم من رجل، ومع ذلك لو

صارحتها بهذه الحقيقة لهاجت وماجت ورمتك بالجهل والذكورية وغيرها من مصطلحاتهن العقيمة.

كل ما أريده الآن أن أنام والصباح رباح. فلتأخذ قسطها من النوم ولتتركني أنام نصيبي، لكنَّ هذا يبدو عسيرًا الآن. أخذت نفسًا عميقًا وبدأت أحاول إقناعها، فليس هناك مكان في الكون يحتوي على القطط البلدي غير مصر. قالت إنهم قد اختطفوها مثلما اختطفونا، وأن كل شيء هنا غريب، مهما كان قريب الشبه بما نعرفه. كل حيوان نراه فيه شيء مختلف لا يوجد ثعبان لديه أقدام أسفل بطنه، ولا أشجار لونها مائل للزرقة. طلبت مني أن أفتح عيني لأرى ما لا أدرك.

قلت لها إنني مدمن على مشاهدة قناة ناشيونال جيوجرافيك وبرامج الأرض على قناة بي بي سي، وأظنني رأيت أشياء أكثر عجبًا من تلك التي تدلل بها على أننا في كوكب آخر. هناك أشجار صفراء وحمراء وهناك حيوانات عجيبة الشكل في الأماكن النائية. لسنا علماء نبات أو حيوان لنصنف ونؤكد هذه التخاريف التي تدعيها.

شيئًا فشيئًا هدأت وبدأت تقتنع أن كل هذا مجرد حيلة، وأن تخاريف أفلام الخيال العلمي لا يمكن أن تنطبق على حياة واقعية نعيشها. رجوتها أن تنام قليلاً حتى يتسنى لي أن أنام أنا أيضًا، فقالت إنها ستأخذ المناوبة الأولى فقد طار النوم من عينيها.

استيقظت على ضوء الصبح شاعرًا بالامتنان لشادية، التي تركتني نائمًا كل هذه الفترة لكن سرعان ما تبدل هذا الامتنان لغيظ حين وجدتها ممددة على الأرض كزكيبة الأرز. هممت بالصياح عليها ثم تراجعت، لقد نامت على الأرض الخشنة في العراء، بدلاً من أن تدخل

كيس النوم في خيمتها. لقد سقطت من الإعياء ولم تنم بإرادتها، بدليل أنها نامت على بعد أقل من متر مني.

تركتها نائمة وقمت أتفقد المكان وبيدي الصاعق وبحزامي سكين غليظ. فكرت أن أصطاد شيئًا، وبعد محاولات مضنية أمسكت حيوانًا صغير الحجم ممتلئ القوائم بطيء الحركة. كان جلده سميكًا جدًّا صلبًا مغطى بطبقة تشبه الأظافر. عانيت الأمرين في سلخه؛ لم تنفتح تلك الطبقة الخارجية إلا بعد أن سخنت السكين حتى توهج ثم فتحتها به. وضعت في النار ثلاث سكاكين إضافية وأخذت استخدمها بالتناوب حتى تمت العملية بنجاح.

استيقظت شادية على رائحة الشوي، أكلت معي دون أن تسأل عن الحيوان أو كيف حصلت عليه. كان طعمه عاديًّا غير منفر، وأظن لو تيسر لنا بعض التوابل والبصل لكان لذيذ الطعم. عاودنا رحلتنا ولدهشتي وجدتها تجاذبني أطراف الحديث بتودد.

سألتني عن عملي، فقلت لها إن قصتي طويلة جدًّا. لم أحك لها عن المهن التي جربتها وفشلت فيها حين كنت طالبًا، وإنما حدثتها عن عملي بعد التخرج. حكيت لها عن عملي مدرسًا بالحصة إلى جوار استمراري في العمل بالسباكة بعد الظهر، وعن رفدي من المدرسة لأنني كنت أحاول إجبار التلاميذ على أخذ دروس خصوصية معي.

حكيت لها عن عملي مرشدًا في شركة سياحة واستغنائهم عني سريعًا؛ لأن إنجليزيتي كانت سيئة، وكنت لا أتحمل السياح المصريين. كانت السباكة هي حصني الوحيد.. كنت ماهرًا فيها وكان الزبائن يحضرون لي آخرين. الغريب أنني كنت كثيرًا ما أستخدم خامات أرخص

من الذي كنت أصرح به، كانوا ينظرون لعلبة المنتج ويتأكدون من عبارة صنع في إيطاليا وهو صيني، والعلبة مطبوعة في شارع محمد عليّ. كنت أكسب كثيرًا من السباكة، فتحت دكانًا ليكون مقرًّا ثابتًا لعملي وتجارة للأدوات الصحية. لم أتأفف من لقب سباك يومًا؛ يكفي أن مهنتي كفتني تكاليف زيجتين وسفرية فاشلة، ولا يزال لدي رصيد في البنك.

قلت لها إنني كاتب وعضو في رابطة أدباء مدينتي الأم ورابطة أصغر نجتمع في أحد المقاهي أسبوعيًّا. قلت إنني كتبت الكثير وأنني أنفقت مبلغًا لا بأس به على نشر رواية لي لم يقرأها أحد، ولم يعطني الناشر سوى نسخ كثيرة لا يزال منها في بيتي أكثر من مئة. قلت إنني أشبه نفسي بالجزار الشاعر، الذي كان يتكسب من الجزارة لأنه لم يجد من الشعر مكسبًا حتى قال:

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت ... حفاظًا وأرفض الآدابا
وبها أضحت الكلاب ترجوني ... وبالشعر كنت أرجو الكلابا

كنت أنا السباك الأديب. قلت إنني كنت أقرأ كثيرًا لأقهر وحدتي، ولم أقل سبب وحدتي أنني كنت أخشى الحب؛ لأنني لا أفهم النساء ولا هن يفهمنني، وأنني مرعوب من فكرة الإنجاب. تحدثت كثيرًا ليمضي الوقت، وتحدثت لأنني لم أتحدث لأحد عن نفسي منذ زمن، تحدثت حتى وجدنا النهر أمامنا. كان صغيرًا عرضه لا يزيد على عشرين مترًا ومع ذلك لم يدر بذهني أن عبوره سيكون مشكلة سوى الآن.

"يا ترى فيه تماسيح"؟ سألتني ولم أجب، فهذا الأمر متروك للسادة منظمي التجربة التي نحن فئرانها. سألتها إن كانت تظن أننا وحدنا أم أن

هناك ضحايا آخرين، لوحت بيدها وهي تسألني كيف لها أن تعرف، هي فقط ترجح أننا وحدنا، وأنه لو كان هناك غيرنا لكنا قابلناهم.

مشينا بمحاذاة النهر مسافة لا بأس بها والجبل باد أمامنا يقترب ببطء. لا شيء جديد أو ملفت للنظر مجرد ضفة نهر عادية يمتد على جانبيها أرض عشبية تفصله عن أشجار الغابة شماله وجنوبه. بعد وقت ليس بالقصير جلسنا نستريح ونتناول غداءً من ثمار وبقية اللحم المشوي.

حين اقتربنا من سفح الجبل بدا لنا الشلال الذي يصب في منبع النهر كان خلابًا لدرجة أنني قلت له في سري إنني كنت أتمنى لو تقابلنا في ظروف أفضل. كان ثمة كهف كبير يبدو على يمين الشلال يبعد عنه عشرين أو ثلاثين مترًا على الأكثر. طلَبَتْ مني أن نكتفي بهذا القدر لليوم وأن نبيت ليلتنا.

كان الوقت لا يزال مبكرًا على أن نخيم، لكنها ألحت. طلبت منها أن أستكشف هذا الكهف، فربما يكون مأوى مناسبًا أفضل من المبيت في العراء، فرجتني ألا أتركها وحدها. كانت مختلفة مذعورة أكثر من ذي قبل، تتحدث باقتضاب ولا تستجيب لاستفزازاتي المعتادة. لم أشغل بالي كثيرًا فسوف تنام ليلتها ثم تستيقظ لتعود كسابق عهدها.

جلسنا بين أول شجرتين على يسارنا غير بعيد من ضفة النهار، كل منا يسند ظهره على شجرة. بدأت تغفو ويتمايل رأسها من الحاجة إلى النوم، نصبت لها خيمتها وطلبت منها أن تدخل لتستريح. تركتها نائمة ونصبت خيمتي، ثم مضيت نحو ضفة النهر أستطلعه لعلني أجد أسماكًا به فأصطادها بالصاعق الذي معي. كان ذلك حين بدأ هطول المطر.

كان سيلاً، وكأن أبواب السماء فتحت مرة واحدة، جريت لأحتمي بالخيمة، وأنا أراقب الجو من فتحتها. بدأت البرك تتجمع، ثم حين تزيد عن حد معين ينساب ماؤها مع تيار النهر، مكونة نهرًا صغيرًا موازيًا له. مضت دقائق ثم فوجئت بالماء يجرف الحقائب، انتفضت خارجًا من خيمتي وجريت خلفها حتى أنقذتها.

كنت عائدًا أدراجي وأنا أجر الحقيبتين بصعوبة في الوحل الزلق، وكان مستوى النهر قد بدأ في الارتفاع. سمعت صوت الشلال يهدر أكثر، صوته يعلو حتى أحسست أنني داخله وهو يبدو أكبر من ذي قبل وأشد تيارًا.

انكسرت يد إحدى الحقيبتين مني، فأمسكتها من جانبها أجرجرها بصعوبة أكثر، وقدماي تنزلقان، فأسقط ثم أعاود القيام. خرجت شادية من خيمتها ونظرت إليّ، فأشرت لها أن تبقى في مكانها. وقفت مترددة تقدم ساقًا وتؤخر أخرى، وإذا بسيل آخر ينزل من الجبل جارفًا ضفة النهر وما عليها وقادمًا تجاهنا بكل عنفوانه.

٩

لو أن كاتبًا ماهرًا مولعًا بالتفاصيل كتب عن تلك اللحظة لوصف السيل والقطرات المتناثرة حوله والطين العالق بالموجة الأولى والأغصان الجافة المتناثرة على سطحه، تدور حول نفسها ولن ينسى أن يذكر حيوانًا أو اثنين يصارعان الغرق.

سيكتب كثيرًا عن وقفتي وأنا أنظر يمينًا ويسارًا أفتش عن مهرب، ثم أعود أنظر لشادية وهي يائسة وراجية أن ألحقها والسيل أقرب لها مني وأعجل. سيصف ملابسها التي صارت كَزِيٍّ عمال البلدية في آخر يوم عمل مزدحم، وسيصف طرحتها التي انحسرت عن نصف رأسها وعن ثغرة نحرها حتى صارت هيئتها إجمالا أقرب لامرأة في نهاية يوم عزاء زوجها وقد ملأت الدنيا صراخًا ولطمًا.

لكنه من المحتمل أن ينسى الكتابة عن الحقائب التي كانت تشغل حيزًا كبيرًا من اهتمامي وقتها. كان فقدها سيحيل أيامنا هنا جحيمًا ويجعلنا نستسلم ونعود إلى النفق لندخل سجنًا (اختياريًّا) لمدة ثلاثة أعوام. جرف السيل شادية وجرفني أنا بعدها، كافحت لأمسك يدها دون جدوى إلى أن هدأت الموجة ونفدت مياهها التي انحسرت عنا ومضت في طريقها والمطر لا يزال غزيرًا والأرض بركة موحلة.

اقتربت منها، أمسكت يدها وساعدتها على القيام وأخذنا نسند بعضنا لندخل الغابة، فجاءت موجت ثانية جرفتنا وفرقت أيدينا، لكنها قربتني من الحقائب فأمسكتها. انحسرت تلك الموجة وأنا ممسك بالحقائب غير بعيد عن شادية. جرت نحوي بأقصى ما سمح لها الوحل وأمسكت بالحقيبة ذات اليد السليمة تجرها وأنا أجر ذات اليد المكسورة.

خلع الوحل حذاءها فأمسكته في يدها، فطلبت منها أن تترك الحقيبة وسأعود لها بعد أن نحتمي من تلك الموجات الجارفة المتكررة. دخلنا عشرة أمتار داخل الغابة ثم تركتها وذهبت أحضر الحقيبة الثانية بعد أن خلعت حذائي ليكون المشي أسهل.

فاجأتني الموجة الثالثة، جرفتني بعنف وأسقطتني في النهر، حاولت أن أقاوم تيار الماء لكنه غلبني وأبعدني أكثر وأكثر عن مكاني. غمرتني المياه وصرت على وشك الغرق لكنني تمسكت في اللحظة الأخيرة بشجيرة نامية على ضفة النهر. بدأ رأسي يدور والدنيا تظلم من حولي وسمعت من بعيد صوت شادية يصرخ مناديًا عليَّ وكأنها تقرعني لأنني تركتها وغرقت.

كان وعيي قد بدأ في التلاشي وبدأت قبضتي على الشجيرة تهتز بدأت أستعذب إحساس الخدر، لكن يبدو أن شادية استكثرت عليَّ أن أستريح دونها. صرخاتها المتتالية جعلتني أستجمع قواي وأتمسك بعنف بالشجيرة وأتسلق الضفة حتى خرجت، وكان المطر بدأ يهدأ. شادية لم تكف عن مناداتي وأنا في طريقي للعودة لها أسير بمحاذاة الأشجار حتى لا أتوه منها في الغابة متحفزًا للقفز داخلها إذ جاءت موجة أخرى.

خرجت من بين الأشجار وجرت نحوي حافية تعافر الوحل وتكرر اسمي وهي تحمد الله؛ لأنني لم أغرق. ما حدث بعد ذلك كان أغرب من وجودنا على الجزيرة. حين وصلت شادية إليَّ ضمتني بقوة وهي تبكي، تخلت عن تحفظها وفقدت قدرتها العجيبة في السيطرة على مشاعرها أمامي، وتركت العنان لطبيعتها الأنثوية البدائية التي تنشد حماية الرجل. كان رأسها على صدري تبكي وتنهنه وتقول كلامًا غير مفهوم، وكفَّاها يعتصران ظهري. ربت على ظهرها وقد غمرتني اللحظة ووجهي غارق في ماء المطر أو في الدموع لا أدري.

توقف المطر وهدأ كل شيء وكانت دموعي هي ما يسيل على خدي، وأنا أشعر بقهر لا يوصف. حاولت أن أفلتها لأجلس لكنها ظلت متمسكة بي، ظللت واقفًا قليلاً إلى أن أفلتتني واعتذرت، فقلت لها إننا في ظرف يعذر لنا أن نكون على طبيعتنا. أخذتها من يدها وركنت ظهري على شجرة كبيرة وأجلستها جواري. أظلمت السماء تدريجيًّا فالتصقت بي أكثر وهي تغفو، فأرحت رأسها على حجري وتركتها تنام وغلبني النوم أنا الآخر.

لم أشعر تلك اللحظة بشعور رجل وامرأة بل بشعور أب وابنته وأظن أنها شعرت بذلك أيضًا. كانت أول مرة أشعر فيها أنني أب يترك ابنته تغفو في حجره؛ شعور حرمت نفسي منه نتيجة خوف مرضي لا يمكن تبريره.

كنت أصغر شقيقتي الكبرى بتسع سنوات، وكنت أعيش في بيتها وأنا في المرحلة الثانوية. طفلها الأول أصابته حمى وقيل لهم إنها وصلت لمخه، فتركته معاق الحركة والفكر. كان حملها به يتفاقم تتردد كثيرًا

على المستشفيات لدرجة أنها أنجبت طفلتها الثانية، وهي محجوزة به في المستشفى وبقيت معها في عنبر الحريم خمسة أيام أجالس الطفل وأمه وأنام في الليل في عنبر الرجال.

كانت معاناتها معه لا تنتهي، وحين ظنت أن الأمور لا يمكن أن تكون أسوأ، أنجبت هي طفلتها التالية وكانت مصابة بشق في سقف حلقها وشفة أرنبيه. أجريت لها العملية تلو الأخرى وباع أبوها قيراط الأرض اليتيم الذي ورثه عن أبيه ليكمل علاجها. مشكلتها كانت أقل تعقيدًا من أخيها الأكبر لكن ظهرت أبعادها الأخرى حين دخلت المدرسة. كان بقية التلاميذ يضايقونها ويسخرون منها، ليس بسبب شكلها فقط، بل أيضًا بسبب خنفها وطريقة كلامها المضطربة نتيجة عيب حلقها.

صار كابوس أختي دافعًا يمنعني من الإنجاب خشية أن يولد لي طفل يريني كل هذا الهم والمعاناة، وزاد خوفي حين مرضت أختي وماتت وتركتهما يعانيان هما وأبوهما المسكين.

لم أخش المسؤولية إنما خشيت أن أرى قطعة من لحمي تعاني. كيف أرى طفلي يتألم كل يوم ولا أملك له علاجًا، على الأب أن يكون البطل الذي يقتل الوحوش التي تحاول إيذاء أبناءه، فأنى له ذلك إن كان الوحش هو مرض لا يمكن علاجه وألم لا يمكن دفعه. لم أصارح أحدًا أبدًا بذلك السبب، فلن أكون مقنعًا وقد يقال عني أنني موسوس أو تافه أحاول العيش بلا مسؤولية، لكن الحقيقة أنني لا أستطيع أن أنظر في عين طفل يعاني، فما بالك لو كان ابني!

كان اليوم التالي صحوًا لم نتحرك فيه من مكاننا، وقضينا وقتنا متربعين أسفل الشجرة، وبحلول منتصف اليوم عادت شادية لطبيعتها ولسانها السليط، وجربنا يومها أن نخلط اللحم ببعض الثمار لنغير طعمه دون جدوى. الغريب أنني قلت نكتة، وحين ضحكت خبطتها بكفي مازحًا، فناولتني ما فيه النصيب من اللوم والتقريع، وكأنها لم تنم في حجري بالأمس. لم يعجزها الرد عليَّ، مرة سخرت من ثيابها الرثة، فسخرت من أنفي المعوج، سألتها كم وزنها، فسألتني عن محيط كرشي، وهكذا مر اليوم بسلام ونمنا ليلتنا في الخيام.

عدنا في اليوم التالي إلى سفح الجبل، واقترحت أن نستكشف الكهف المجاور للشلال أولاً؛ لعلنا نجد فيه مكانًا نضع فيه الحقائب ونسير خفيفين من الأحمال، فوافقتني على مضض. كانت فتحة الكهف تبعد عن الأرض مترين أو أكثر، والجبل أسفلها صعب التسلق فيما عدا جزء بسيط ناحية الشلال. كان الصعود صعبًا؛ وقعنا أكثر من مرة قبل أن نصل، وهي تتمتم في سرها عن سوء تقديري وأفكاري الخاطئة.

دخلنا الكهف ورفعنا الحقائب بحبل ثبتناه فيها، ثم وقفنا نتفحص المكان. كان الكهف واسع الفوهة ممتدًا عميقًا داخل الجبل. سقفه مبطن بحجارة مدببة وأرضه صخرية متعرجة تعلو وتهبط، وجدرانه ناعمة كأنما سوَّاها مبيض محارة، ما عدا بعض البروزات البسيطة. كان صاعدًا لأعلى قليلاً وممتدًا لا نرى نهايته، تركنا الحقائب عند باب الكهف ومشينا نستطلعه. بعد حوالي مئة متر وجدناه يمتد أمامنا مستقيمًا تمامًا وأضيق قليلاً، ويسطع ضوء في نهايته. أسرعنا الخطى وكلنا فضول لنرى نهاية الكهف، وفي غمرة استعجالنا تجاهلنا بعض الممرات المتفرعة منه يمينًا ويسارًا.

وصلنا لنهاية الكهف ورأينا البحر أخيرًا. كان ممتدًا على مرمى البصر، لا تبدو له نهاية ولا يبدو لي أن ثمة أرض بالقرب منا. نظرت لأسفل ولأعلى كان الجبل يشكل حافة صخرية قائمة غير منحدرة، كأنما قطعها سكين وتوجد حافة صخرية ضيقة عند التقائه بالماء. الأمواج تضرب الصخور في الأسفل والسماء مصفرة بالأعلى، والبحر رمادي ضارب للصفرة لا زرقة فيه. الشاطئ الصخري على يسارنا ممتد وعلى يميننا مقطوع، ما جعلني أخمن أن تلك الفتحة بجوار التحدب الظاهر على الخارطة، والذي يجعل شاطئها الغربي الذي يحتله الجبل يبدو كضلعين بينهما زاوية منفرجة. يقابل هذا التحدب من الخارج الانحناء الذي يحتله الشلال من الداخل.

"هو ممكن المركبة اللي بندور عليها تكون راسية ع الصخر هنا"؟ سألتني شادية، ولم أجبها، فكل شيء جائز، ومحتمل أصلاً ألا تكون هناك سفينة ولا فلوكة حتى. ثم إن هذا الرجل قال أرخبيل وهذه هي الجزيرة الرابعة أين باقي الجزر؟ تساءلت أنا، فقالت هي بفراغ صبر: "بيقولك هلالي، يعني شكله قوس ممكن يكون الشط ده في ضهر القوس وباقي الجزر نشوفها من شط تاني".

فجأة سمعنا صوت أزيز لا نعرف من أين أتى، ثم دوى صوت في الجو قائلاً: "تجاوزتما ثلث المهلة المتاحة لكما لإيجاد وسيلة خروجكما من الجزيرة، ولم تنجزوا أي شيء... نصيحتي لكما هي العودة وفتح الملجأ. ما رأيتماه حتى الآن لا يقارن بما ينتظركما... أرجو لكما التوفيق في اختيار القرار الصحيح". تسمرت مكاني وأنا أسمع هذا الكلام وصرخت شادية بصوت عالٍ تتحداه أن يظهر بنفسه وستريه ما لا يحب.

مجنونة بلا شك؛ ماذا ستستفيد من كلامها! "انتي مجنونة"! قلتها ناهرًا إياها وأنا أقول إنه ليس بائع فاكهة وضع لها عنبًا فاسدًا. حذرتني من أن أناديها بـ "المجنونة" مجددًا، فقلت لها إنها هي الأخرى لا تحفظ لسانها معي. صمت كلانا ونحن عائدين لبداية الكهف.

حاولت أن ألطف الجو معها ثانية، فسألتها عن ابنة شقيقتها، لم ترد عليَّ وأشاحت بوجهها عني، هممت بأن أغلظ لها القول لكني سمعت صوت قرقعة قادم من بداية الكهف. جرينا سريعًا فإذا بباب معدني نبت من العدم يتحرك ببطء ويسد باب الكهف علينا. أسرعنا العدو نحوه لنعبر قبل أن ينغلق لكن الوقت قد فات.

١٠

كانت التعليمات واضحة، وكنا رافضين المضي قدمًا في هذه اللعبة. صبرنا نفد وأوشكنا على الموت أكثر من مرة، واللعين هذا يؤكد أن ما مضى هو غيض من فيض. رفيقة دربي مصدومة للمرة العاشرة في أقل من أسبوع ولا أملك أي وسيلة لتهدئتها. نحن محاصران تمامًا الآن بطريقة تجعل صحبة الحيوانات الخطرة والسيول العنيفة تبدو كنزهة.

بدأت تتكلم، تقول إنها تفتقد ابنة أختها جدًّا، تقول إنها ابنتها هي، وأنها حتى قبل موت أختها كانت الأم التي لم تنجب. كان حبًّا غامرًا عوضها عن فشلها المتكرر في الحب. كانت تحب قراءة القصص الرومانسية لدرجة أنها أحبت رجلاً يكتب بعض التفاهات على الفيس بوك ويسمي نفسه كاتبًا. كان يكتب الكثير من الجمل التي تدعم المرأة وتدافع عنها، يكتب عن كل شيء تفتقده في الرجل على أنه من المسلمات الواجبة في أي علاقة. أدمنت صفحته أرسلت له رسالة فرد عليها، ثم صارت رسائل، ثم صار هو دنياها التي تعيشها بين الشاشة ولوحة المفاتيح.

لا أعرف ما الذي ذكرها بهذا الآن. ما أعرفه هو أنها لم تكمل لأن الصوت قاطعها، كان عميقًا كصوت مذيع عجوز في البي بي سي. قال

إن هناك زر نجاة جوار الباب لو ضغطنا عليه سيفتح الباب، ثم يتوجب علينا بعدها الذهاب للملجأ معلنين بذلك استسلامنا. البديل كان أن نفتش الكهف والأنفاق المتفرعة منه عن عشرين مفتاحًا صغيرًا يجب وضعها جميعًا في فتحاتها ثم إدارتها على التوالي لينفتح الباب.

سببت الرجل في حنق، وطلبت منها أن تتجاهل كل ما سمعناه ونعود إلى حديثنا السابق. أعجبها الاقتراح وقالت إنهم سيملون لو وجدونا جالسين هكذا وسيفتحون لنا الباب. سألتها: "طلع ندل معاكي إزاي بقى"؟ سألتني كيف عرفت، وقلت لها إنه من الطبيعي أن يكون هو النذل ما دامت العلاقة فشلت، فبنات حواء ملائكة بأجنحة شفافة. لم تعلق وقالت سأحكي لك واحكم أنت عليه.

كنا في لحظة أصابنا فيها الجنون بلا شك، فتجاهلنا للمصيبة التي نحن فيها للحديث عن قصة حب فاشلة لن يقينا الموت عطشًا أو جوعًا. كان اختصار حديثها الطويل أنه أوهمها بالحب لتدخله حياتها، وتحكي عن أدق تفاصيلها ليجعلها مادة في روايته الأولى. حيلة رخيصة مارسها مع نساء أخريات، وعرفت هي من واحدة منهن عن طريق الصدفة. صارحته فأنكر، وتصنع الغضب وأخرجها من حياته بحجة أن هذا النوع من الشك يعني موت الحب.

قاطعت حكايتها (الملحمية) مقترحًا عليها أن نبحث عن مخرج من أزمتنا عن طريق البحث عن فتحة لكهف آخر من ناحية البحر تكون مجاورة لفتحة كهفنا، فعقدت حاجبيها بغضب هي تلوم نفسها على فضفضتها مع شخص مثلي، فقلت محتدًّا: "زي ما قلتلك طلع ندل ونقطة ومن أول السطر".

قامت واقفة فجأة، وتركتني وهي تمشي تدب بقدميها على الأرض بغيظ: "أنا هدورع المفاتيح وانت شوف حتة تنط منها، شكلك واخدع النط م المناور"! عقدت لساني المفاجأة فلم أرد، وخطر ببالي أننا أبطال في فيلم عبثي لا يعرف أحد متى ينتهي.

دخلَتْ أول نفق فرعي وقمت أنا متوجهًا إلى فتحة الكهف التي تطل على الماء. لو وجدت الموج هادئًا كما تركناه لاستطعت تنفيذ فكرتي لأنقذنا من هذا الموقف، ولأثبت لها أنها لا شيء من دوني. كانت مشاعرنا تلك وصخبنا محاولة للهروب أو طريقة للتكيف، فلو تركنا أذهاننا تُحتل تمامًا بهذه الأزمة، فلربما أصابنا الجنون أو استسلمنا سريعًا. لو خيرني أحد هذا الخيار وأنا جالس في بيتي لاخترت قطعًا ألا أخوض مغامرة قد تنتهي بموتي، حتى ولو كان من أجل أن أساعد امرأة في ورطة.

ربما قلت لنفسي في لحظة ما إنني سأساعدها، وأن هذا هو دافعي الأساسي، لكن العناد والكبرياء كانا العامل الأكبر. لم أتحمل فكرة أن أكون حيوان هامستر موضوعًا في قفص مقابل فكرة أن أكون أسدًا يجربون قوة تحمله للأهوال والمصاعب. في الحالتين حيوان يخضع لتجربة، لكن الحالة الثانية لم تكن مهينة لكرامتي، بل على العكس كان إحساس التحدي شافيًا لنواقص داخلي كثيرة.

كنت أشعر مع تجاوز كل محنة أنني أنظر في عيونهم بازدراء، وأقول لهم أنا أقوى منكم ومن أفكاركم المريضة. أقول لكم الصراحة؟ أنا لا أعرف لماذا رفضت دخول هذا السجن أو الملجأ: تحدٍ، شهامة، خوف، كراهية للذات وحب للمعاناة، أم كل ما سبق.

وصلت للفتحة التي تطل على البحر نظرت حولها بتفحص أكثر أعلى وأسفل، ورأيت فتحة أخرى قريبة وتعلو عن سطح الماء مترًا واحدًا. ترددت قبل أن أقفز، فربما كانت الفتحة لا تفضي إلى شيء؛ مجرد كهف صغير لا امتداد له. ساعتها سأكون في مأزق فلن أستطيع التسلق لفتحتي مرة أخرى ساعتها سأضطر أن أمشي على هذه الحافة الصخرية عدة كيلومترات، وقد يهيج الموج ويفتك بي، وقد يكون هناك أماكن لا حافة فيها، وساعتها لا أدري ماذا أفعل.

توكلت على الله ونزلت بحذر، ومشيت حتى الفتحة الثانية وصعدت إليها. كانت بداية ممر طويل صاعد لأعلى قليلاً، مشيت فيه مسافة لا أعلمها، حتى وصلت لنهاية مسدودة. أسقط في يدي ولم أدر ما العمل. مشيت نحو الفتحة عائدًا بخفي حنين، وقبل أن أصل جلست على الأرض أريح قدمي وأفكر في خطوتي التالية وفي شادية التي أحسبها الآن تائهة لا تعلم ما تفعل، وقد تكون رجعت لعقلها وتبحث عني لتعتذر لي.

بدأت تمطر، وتوقعت أن هذا المطر سوف يكون مرتبطًا بأمواج عالية لا يمكن معها أن أمشي على الحافة الصخرية. مرت دقائق ووجدت ماءً ينساب على الأرض من تحتي قادمًا من الداخل. مشيت للداخل ثانية، وفوجئت بالماء قادمًا من شق في الجدار، وضعت يدي داخل هذا الشق فوجدت جدرانه هشة. ضربته بيدي فبدأ جزء من الجدار ينهار كاشفًا عن نفق فرعي متجه ناحية الكهف، الذي كنت فيه مع شادية. مشيت فيه قليلاً فوجدت فوهة في سقفه تمتد لأعلى وينزل منها المطر بغزارة، ويتسرب منها الضوء للنفق. تركت تلك

الفتحة مؤقتًا وقد اعتزمت أن أعود إليها لأرى إن كانت ستقودني لفتحة في أعلى الجبل يمكن الهروب منها.

أكملت طريقي في هذا النفق الفرعي، كان مظلمًا أكثر. مشيت فيه مسرعًا متعجلاً الوصول إلى الكهف أو لشادية، التي لا بد أنها تموت من الرعب الآن وهي وحدها. وصلت أخيرًا ونظرت تجاه الباب ثم تجاه البحر، لكنني لم أرها. ناديتها بصوت عالٍ مرة تلو الأخرى حتى جاءني صوتها من بعيد، كأنه من أحد الأنفاق الجانبية الأخرى. "انتي فين ... بتعملي إيه"! ردت بفجاجتها المعهودة: "ملكش دعوة روح دور على فتحة تخرج منها بعيد عني"، ضحكت وأنا أقول في سري: "وحشتيني يا بنت الغلباوية".

مضى وقت وهي لم تأت بعد، ناديتها ثانية بغضب هذه المرة، وجدتها قادمة نحوي وعلى وجهها علامات الظفر، وهي تقول: "١٨ مفتاح من العشرين وانت عمال تلف حوالين نفسك"، تطلعت إليها غير مصدق أنها فعلت ذلك. يبدو أنني غبت كثيرًا هناك، أو غلبني النوم، كدت أسألها هل خافت حين تركتها وحدها؟ وهل بحثت عني؟ ولكني صمت تجنبًا لكلمة منها قد تحرق دمي.

جلست تستريح قليلاً وقالت إنها تشعر بالجوع، اقترحت عليها أن أصطاد سمكة من البحر ونأكلها نيئة، فرفضت بامتعاض. قمنا بعدها نفتش في بقية الأنفاق دون جدوى. مضى الوقت وأعدنا المرور في الأنفاق واحدًا تلو الآخر، نتحسس الجدران والأرض ولم نجد شيئًا. حل الليل علينا وقد سقطنا من التعب والجوع وأظلم الكهف تمامًا.

استسلمنا للنوم، وعندما استيقظنا في الصباح كان الشعور المسيطر علينا هو الجوع والعطش. ذهبنا للنفق الفرعي الذي يسده الجدار، لعلي أجد بقايا من مطر الأمس، وبالفعل كان فيه القليل من الماء راكدًا أسفل الجدار. جاءت في بالي فكرة أن أصعد لأعلى في الممر الذي كان ينزل منه المطر، ربما يقودنا لقمة الجبل، ومنها يمكن أن نسير قليلاً لنجد مكانًا نهبط منه بأمان. رفضت الفكرة وطلبت مني أن نعاود البحث ثانية، فلا بد أننا أهملنا في البحث في مكان ما. طلبت مني أن أتركها تبحث وحدها، لأنني نحستها على ما يبدو، فلم تعد قادرة على إيجاد آخر مفتاحين. لم أجادلها ولم أقل إن اللعبة هكذا، تعطيك أملاً زائفًا ثم تصعب الأمور عند الاقتراب من الفوز.

مضى اليوم دون جدوى، بحثت هي وبحثت بعدها وأعدنا الكرة معًا ولم نجد شيئًا. قبل الليل بقليل قلت لها سأتسلق الممر، وليكن ما يكون. وافقتني لكن أصرت أن تتسلق معي، فالممر ضيق ويمكن أن تصعد فيه بسهولة، اتفقنا على أن تصعد هي أولاً بناءً على شرطي حتى أستطيع أن أنقذها لو تهاونت وسقطت.

كان التسلق سهلاً فعلاً لكن المسافة كانت طويلة، ووصلنا للقمة مجهدين للغاية. كان الأمر يستحق التعب، ليس لأننا وجدنا المخرج، بل لأن الجمال الذي رأيناه من أعلى ذلك الجبل أنسانا للحظات تلك المأساة التي نعيشها.

١١

كانت قمة الجبل صخرية متعرجة، تنبت فيها بعض الأعشاب في شقوق بين الصخور، وكان بالقرب من الفوهة التي خرجنا منها منبع الشلال. كان متحديًا لقوانين الطبيعة التي أعرفها: ماء يندفع من بين الصخور من مئات الفتحات الصغيرة، يفور منها ويندفع للأمام متجمعًا في تيار واحد يتجه لأسفل الجبل. الأروع كان منظر الأفق من جميع الجهات، كنت أشعر كأنني في رحلة سياحية لجزيرة من التي أشاهد صورها، ولا أتخيل أن أراها على الطبيعة.

الغابة من أعلى تتداخل فيها ألوان الأشجار التي تغطي الأوراق الزرقاء، قممها مع الأشجار الأخرى ذات القمم العارية، والنهر يشقها ويتجول فيها على راحته متعرجًا، لا يشبه ذلك المرسوم في الخارطة. وكانت الجزر الأخرى تبدو لنا من بعيد وجبالها مكسوة بأعشاب وأخرى صخورها عارية مثل جبلنا هذا. أما منظر الغروب فحدِّث ولا حرج. الشمس هنا تغطس فعليًّا في البحر، لا يمكن أن تقول إنها تختفي خلفه. صفرة لونها تكسو الماء، ويبدو أمام العين وهي تغيب وكان جزء منها أسفل الماء، وجزء أعلاه، وقد تركت الأفق مصبوغًا بألوان متباينة من الأصفر للأرجواني وما بينهما.

كان القمران قد بدآ في الظهور مع ميل الشمس للمغيب، وظهر جليًّا أنهما في السماء، وحاولت أن أشرح لشادية ظاهرة رأيتها عن أماكن في أقصى شمال الأرض تظهر فيها الشمس ثلاثة شموس، وأن المكان الذي نحن فيه يمكن أن تكون فيه ظاهرة كتلك، لكنني لم أستطع أن أفسر لماذا يظهر أحد القمرين أصغر من الآخر.

لم يمض وقت طويل قبل أن نفيق من روعة هذا المشهد على إحساسنا بالجوع، ونفكر ماذا سنفعل، اقترحت أن نتذوق بعض الأعشاب، لكنها استنكرت، فمن الممكن أن يكون بعضها سامًّا أو شديد المرارة. تجولنا ناحية الجنوب قليلاً وكان الجبل يبدو شديد الانحدار، لا يمكن تسلقه لأسفل.

يائسين جائعين عدنا أدراجنا نحو الفوهة، قبل أن نصل طلبت منها أن نفتش قليلاً في المنطقة المحيطة بها، بين الأعشاب وفي الشقوق وحول الينابيع. بحثنا كثيرًا حتى فوجئت بها تجلس على الأرض متعبة طالبة مني أن نستريح قليلاً.

ألقيت نفسي على الأرض جوارها منهكًا، أغمضت عيني قليلا ثم فتحتهما، تأملت السماء والقمرين، ثم تأملت وجه شادية، أحقًّا كانت متوسطة الجمال أم أن جمالها مألوف أكثر من اللازم! جمال مصري خالص ريفي تمامًا، رغم أنها قاهرية. تنظر إليها فتشعر أنها عادت لتوها من الغيط؛ حيث كانت تسرح ببهائمها أو أن يداها ستبرزان الآن ممسكتان بطاجن لبن حلبته من جاموستها للتو، تقدمه لك بوجه يشع طيبة وتلقائية.

لا أتخيل هذه المرأة جالسة على مكتب تراجع أوراقي بتجهم، ثم تطلب مني أوراقًا أخرى وتمغة بعشر جنيهات، أو أنها ستبتسم ابتسامة صفراء وتقول إنني ينبغي أن (أصبِّح عليها) لكي تتم مصلحتي، وهي تفتح درجها ببطء. أحقًّا هي تفعل ذلك؟ هل هي من نوعية (فوت علينا بكرة) أم من نوعية (صباحك فل)؟

عدنا حيث أتينا عند باب الكهف نتأمل الزر الأحمر: مفتاح النجاة كما قالوا. كنا نفكر بصمت، كلانا نحاول أن نتمسك بأمل بسيط في الإفلات من هذا المأزق. قلت لها إنني آسف لأنني لم أستمع إليها، وعاملت مشاعرها باستخفاف، فقالت لي أن أوفر أسفي، فالظرف أقوى من كلينا. سألتها من أي المحافظات أصل عائلتها، قالت إنها قاهرية أبًا عن جد؛ كان تخميني خاطئًا إذًا.

صمتنا قليلاً ثم سألتها عن جامعتها... لم ترد، ناديتها، فردت بخمول وبدا لي أنها نامت. تركتها في حالها وحاولت أن أنام، فلم أستطع وأخذت أفكر في قرارنا، وخطر ببالي أن أقوم وأضغط زر النجاة وهي نائمة. لعلها في عقلها الباطن تتمنى أن أفعلها دون أن أقول لها، فتتخلص من إحساسها بالذنب تجاه ابنة شقيقتها. هل أفعلها وأنهي تلك المأساة أم أنني أنا الآخر لا أرغب في إنهائها.

نمت وتلاطمت الكوابيس في رأسي والأحلام المليئة بالخرف، حتى انتبهت شاعرًا برغبة شديدة في إفراغ مثانتي. مشيت بعيدًا عنها مسافة كافية، ثم خطر ببالي مرة واحدة وأنا في طريق عودتي أننا لم نبحث في الجدار الذي كنت كسرته كي أعود للكهف الأساسي.

جريت نحوه كالمحموم، وأخذت أفكك ما تبقى من حجارته ببطء وأتحسس بينها وأتحسس جدار الكهف دون جدوى. جلست منهارًا هذه المرة، تكرار الأمل وفقده مؤذٍ أكثر من فقدانه مرة واحدة، ولكني على الأقل هذه المرة لو ذهبت وضغطت الزر فلن أشعر بذرة ندم. سأقضى السنوات الثلاث راضيًا عن نفسي، فقد حاولت وعرضت نفسي للهلاك عدة مرات. غفوت رغمًا عني واستيقظت على صوت شادية تناديني، رفعت صوتي عاليًا لأعلمها بمكاني قدر ما استطعت. فقد أوشكت أن أهلوس من شدة الجوع. قلت لها أن تنتظرني قليلاً فأنا قادم.

مشيت متثاقلاً تتداخل في عيني الرؤى من شدة الجوع، وصلت إليها كانت جالسة على ركبتها وقد وضعت المفاتيح التسعة عشر في فتحاتها وتبقى الأخير. قلت لها لا فائدة، وإنني لم أعد قادرًا على المقاومة. نظرت إليَّ وعيناها مغرورقتان، تطلب مني أن أنتظر حتى منتصف اليوم ثم أفعل ما أشاء.

مضى الوقت بطيئًا ونحن جالسان لا نقوى على القيام. كانت جالسة تبكي بصمت لا يقطعه إلا صوت دعائها وتمتماتها، أردت أن أتحدث ليمضي الوقت، لكني لم أقدر.. حاولت أن أقوم لأحضر ماءً لنشرب، فخانتني قدماي. نظرت بغيظ إلى الباب، ثم نظرت إلى زر النجاة. كان زرًّا ضخمًا مستديرًا، مثل أزرار الطوارئ المحفوظة خلف الزجاج. كان ممتدًا للأمام وكبيرًا بشكل مبالغ فيه، مددت يدي في المسافة الصغيرة بينه وبين الحائط، ووجدت المفتاح الأخير وأنا أصرخ من الفرحة وألعنهم بصوت عالٍ.

١٢

مرت عدة أيام تشبه بعضها نقوم صباحًا نمشي المسافة التي نقدر عليها، نستكشف الشاطئ ثم نخيم ليلاً ونبيت حيث وصلنا. في ظهيرة كل يوم كنا ندخل الغابة؛ أحاول أن أصطاد لحمًا وهي تجمع بعض الثمار، ونحاول أن نولف وصفات للطهو من المتاح لدينا. وجدت هي شجيرة بها قرون كقرون الفول، وداخلها حبات رائحتها نفاذة تشبه البهارات، أضفناها للحم فحسنت قليلاً من مذاقه.

كانت أربعة أيام تشبه رحلات التخييم... كنا أحيانًا كثيرة ننسى ما نحن بصدده ونستمتع بوقتنا، بل إننا نزلنا للبحر كأننا مصطافين. في منتصف اليوم الخامس وصلنا لمصب النهر، وكانت المشكلة التي أؤجل التفكير فيها طوال الوقت. كيف سنعبر النهر لنكمل استكشاف الجزيرة؟ المسافة ليست كبيرة أستطيع أن أعبرها سباحة، لكن ماذا عنها هي لا تستطيع، وماذا عن الحقائب كيف سأحملها وأعبر بها.

فكرنا أن ننتقي شجرة صغيرة ونحاول قطعها ثم نعبر سويا مستندين عليها. لم يكن تيار النهر قويًّا عند المصب، كان يتلاقى مع البحر في سلام وهدوء، وكان من السهل عبوره بهذه الطريقة. اخترنا

شجرة وخيمنا جوارها وبدأت محاولة قطعها، لم تكن المهمة سهلة، فقد كانت البلطة الصغيرة الموجودة معنا ضعيفة التأثير عليها.

حين رأتني أرمي البلطة من يدي في يأس، قامت شادية بإمساكها وإكمال ما كنت أفعله، وقالت لي إن طول البال يبلغ الأمل، ولدينا الوقت الكافي. لو ظللنا نطرق الشجرة بهذه البلطة الصغيرة يومان أو حتى ثلاثة فستنكسر حتمًا. يومًا بعد يوم تبدو لي طيبتها ومعدنها الجيد، وتتكسر تلك الشرنقة التي تغلف نفسها بها وتظهرها امرأة غليظة سليطة اللسان. لا يمنع ذلك من أنها أحيانا تطلق أحكامًا لاذعة، وردودًا مستفزة، لكن يغلب عليها الآن دماثة الخلق.

انشغلت هي بضرب الشجرة وأنا أتابعها مبتسمًا، ولم تمر دقائق حتى رأيناه مقبلاً علينا مسرعًا: رجلاً يشبه أحد اللذين كانا في الفيديو، قصير القامة عريض المنكبين والصدر، ذا عينين واسعتين، بينهما مساحة عريضة ونفس الجبهة العريضة المائلة للخلف. تساءلت هل هم أشقاء أم أنهم جميعًا من عائلة واحدة من المجانين الذين يختطفون الناس ويمارسون عليهم تلك الألعاب المريضة؟ قال بعربية فصحى: "أخيرًا وجدتكما"! تساءلت في نفسي لماذا يتكلم جميعهم الفصحى، وهو يمد يده لي ولكني مددت يدي المضمومة بقوة نحو فكه.

فوجئ بحركتي وهو يسقط أرضًا ويقول إنه يريد مساعدتنا، لم أقتنع وظننت أنها خدعة، فهجمت عليه لكنه كان قويًّا قذفني من فوقه، سقطت على رأسي ثم قمت ثانية لكنه أسقطني وكبل حركتي بساعديه القويين. اقتربت منه شادية محاولة التدخل، فصرخ بها وقال: "انتظرا قليلاً... استمعا إليَّ أولاً ثم تصرفا كما تريدان".

صارحنا الرجل بأننا مختطفان، وقالها بطريقة توحي أنه يبوح بسر حربي. قالت له شادية بلهجة لاذعة إن ما قاله لا يحتاج الكثير من الذكاء. قال إنه يقصد مختطفان للأبد على هذا الكوكب، سألتُهُ بشك وقلبي يختلج، عن أي كوكب يتحدث، فقال: "كوكب أديتيا".

صرخت شادية مرتعبة، وسبَبْته أنا متهمًا إياه بالكذب، وبأنه جزء من هذه اللعبة، والدليل هذا الخرف الذي يقوله، وأنه يشبه الرجلين اللذين ظهرا في الفيديو. قال إنه يرانا متشابهين؛ لأنهم عرق مختلف تمامًا عن البشر الموجودين على كوكب الأرض، بالضبط كما نرى الآسيويين متشابهين.

طلب منا أن نتبعه بحذر لمكان هادئ بعيدًا عن الأفخاخ، حتى يتسنى له الحديث، وقال إن الجزيرة بها مستشعرات تتعرف على البشر من عرقهم، وتنشط أسلحة تهاجمهم؛ لأن الجزيرة مصممة فقط للتجارب على الأرضيين وغير مسموح للأديتيين بالتواجد عليها. رفضنا في صوت واحد، فرجانا أن نتبعه وأن ذلك لصالحنا، وأنه من مجموعة مناهضة للتجارب على الأرضيين ويخاطر بحياته لإنقاذنا.

لم نقتنع فكلامه بدا لنا كهذيان المجانين، ورفضنا ثانية فقال: "حسنًا سأقص عليكما الحكاية من أولها، لكن عداني أن تهربا معي إذا هجمت المستشعرات"، وعدته بسخرية وأنا أنتظر لأسمع ما يقول. "أنتما هنا جزء من برنامج لانتقاء أفضل الأرضيين الذكور لاستخدامهم في علاج مشكلة كبرى في مواليدنا"، رفعت شادية حاجبيها بدهشة، وقاطعته وهي تسأل عن سبب إحضارها ما داموا يريدون انتقاء الذكور، قبل أن يفتح فمه ليجيب سمعنا أزيزًا، فقام منتفضًا وقال: "لقد كشفتني

المستشعرات... اتبعاني أرجوكما"! ثم جرى ونحن خلفه لا نعرف لماذا.. ربما لأنه لا يوجد لدينا بديل.

كان يجري بين الأشجار في مسار متعرج، ونحن نلهث خلفه، ثم فجأة انطلقت من بين الأشجار مجموعة من الحراب الصغيرة تفاداها بقفزة مذهلة ثم استمر في جريه. وقفنا أنا وشادية خائفَيْن، استمر في جريه، لكنه توقف حين وجدنا، تركناه فعاد ورجانا أن نتبعه، وطمأننا بأن تلك القذائف لا تصيب الأرضيين. ترددنا للحظة فانطلقت دفعة أخرى من الحراب الصغيرة تفاداها لكن استقرت واحدة في ساقه.

صرخ متألمًا ورجانا أن نتبعه، فقد أوشك على الوصول للبقعة الآمنة. ظللنا مترددين لا نعرف ماذا نفعل، شادية تقول إنه لم يعد هناك ما يفرق معها، فوجودنا على كوكب آخر، هو تمامًا كالموت بالنسبة لها. نهرتها وقلت لها إنه "ينصب علينا"، ويريد أن يزيد من سخونة اللعبة، وأن فكرة أننا على كوكب آخر فكرة سخيفة لا تستحق النقاش.

بعد جدال بيننا ورجاء متوالٍ منه مشينا خلفه وهو يعرج. انطلقت نحوه الحراب عدة مرات بعد ذلك تفاداها جميعًا، ما عدا واحدة خدشت وجهه. كانت حراب صغيرة، لا يزيد طول الواحدة على عشرين سنتيمترًا، لكنها كافية لإنهاء حياته لو أصابته في مقتل. ما أثار جنوني هو أن واحدة منها كادت أن تصيبني، لكنها تفادتني بأعجوبة. انحرفت عن مسارها قبل أن تلمسني مؤكدة أن هناك على الأقل جزءًا صغيرًا صحيحًا من روايته.

***

جالسًا على كرسيه المتحرك في الممر الذي يفصل غرفة العناية المركزة عن الغرف العادية، كان عمر يراقب بابتسامة واسعة طفلين مريضين يلعبان. يجلس أحدهما على كرسي متحرك، ويدفعه الثاني حتى نهاية الممر، ثم يبدلان مواقعهما. كان مستمتعين يلعبان وكأنهما صحيحين لا يعانيان كل يوم في غرفة الغيارات، ولا يتلقيان وخز الإبر ليل نهار، لإعطاء أدوية أو لسحب عينات. كانت أول مرة يبتسم منذ ثلاثة أيام منذ وفاة المريضة التي كانت في السرير المجاور له.

أحس من وقتها بدنو أجله، وأنها مسألة أيام قبل أن يتسابق الأطباء إليه محاولين إنعاش قلبه وإعادته للحياة دون جدوى. قال له الطبيب أن يطمئن، وأن هذه المريضة لم تمت من الحروق، بل ماتت من جلطة تكونت في ساقها، وانتقلت إلى رئتها. لم يقتنع فلم تكن أول المتوفين معه، مات الأول وقالوا حروقه أصعب، والثاني استنشق دخانًا كثيرًا. كل واحد يمكث معه مدة ثم يذهب إلى بارئه والآن أيقن أن دوره قادم لا محالة.

"مين أسرع يا عم عمر أنا وللا هو"! سأله أحد الطفلين، فطلب باسمًا أن يعيدا الكرة ليقارن بينهما بدقة. زعقت أم أحد الطفلين ونهرتهما عن اللعب، فتوقفت بهجتهما، وانصرفا كل إلى فراشه. اقتربت المرأة منه وسألته عن سبب عبوسه، فقال إنها هي السبب، فقد قطعت بهجة الطفلين وبهجته القصيرة معهما. قالت إنه متغير منذ ماتت صباح، وأنها متأكدة أن حالته ليست بهذه الخطورة، وأنها وغيرها ينتظرون أن يعود لإكمال قصته التي يتابعها الجميع بشغف.

طلب منها أن تساعده في العودة إلى فراشه، وعندما وصلت به هناك طلب منها أن تفتح هاتفه وتطلب رقمًا ما. رد عليه الرجل في

الجهة المقابلة وسلم عليه بحرارة، وأخبره أنه لم يستطع الوصول إلى قريبه جراح التجميل؛ ليسأله عن حالته إن كانت خطيرة أم لا. أغلق معه على وعد بالرد عليه في أقرب وقت. من يومين وبعد وفاة صباح اتصل بهذا الرجل، وهو قريب لجراح تجميل شهير، وقال إن ابن عمته يعاني من حروق بنسبة ستين بالمئة، وطلب أن يسأل عن احتمال وفاته. لم يقل إنه هو المريض كي لا يخبئ الرجل عنه الأخبار إن كانت سيئة.

دخلت أم مريم الغرفة، وقالت للمرأة إن ابنها "عامل دوشة ومش راضي يتلم"، فخرجت متوعدة، وأكملت أم مريم مساعدته في الجلوس على فراشه. أم مريم أوشكت على الخروج من المستشفى، فقد الْتَأَمَتْ جُل جروحها، ولكنها تؤكد أنها ستواظب على زيارتهم جميعًا. أثار دهشته أنها تطلب رأيه في أمر خاص جدًّا، وقد يكون ذلك لأنها تراه بين الحياة والموت، فسينصحها بإخلاص بأن تتقي الله في سرها. قصت عليه ما لم تقله للأطباء، وهي أنها حرقت نفسها عمدًا، ولم يكن وابور الجاز هو السبب. سبب ذلك أنها تعيش بابنتها في بيت عائلة زوجها الذي يعمل في الخليج.

واظب شقيق زوجها الأصغر على التحرش بها تلميحًا بنظراته وبكلامه الذي يحتمل معنيين، ثم تجاوز ذلك إلى التحرش الصريح ولمس جسدها. اشتكت لزوجها فثار عليها واتهمها بأنها تحاول الوقيعة بينه وبين شقيقه، لتنفذ رغبتها في الاستقلال بعيدًا عن عائلته. حماتها اتهمتها بأنها تريد أن تبتعد عن بيت العائلة لتدور على حل شعرها. آلمتها الاتهامات فقامت في لحظة يأس بإشعال النار في نفسها، ولكنها استطاعت أن تطفئ النار سريعًا قبل أن تتفاقم حروقها.

تسأله عن رأيه في قرارها: هل تعود إليه أم تطلب الطلاق؟ هو أدرك خطأه ووعدها أن يأخذ لها شقة مستقلة بجوار أهلها، لكن ما حدث شرخ ما كان بينهما. صديقتها تنصحها بالطلاق وأمها تطلب منها الصبر، وهي محتارة وتطلب مشورته. قال لها إن كانت تحبه فعليها أن تغفر، فهو في الغربة يعاني ضغوطًا وبعدُهُ يجعله لا يرى الصورة واضحة، ويشوش حكمه على الأمور. أكبر خطأ في الحكاية من وجهة نظره كان إقدامها على حرق نفسها، وكل ما عداه يحتمل الصواب والخطأ.

قالت إنها لا تحبه بقوة، إنما هي العشرة والمودة، فطلب منها أن تزنَ الأمور بعقلانية وتطلب من أبيها أن يجلس معه، ويتفق على ضمانات تحفظ حقها. شكرته ودعت له بالشفاء وبأن يجمع الله شمله بشادية. ضحك وهو يسألها، لماذا تظن أنه مرتبط بها؟ فقالت إن إحساسها لا يخيب. تنهد وهو يفكر في الأمر كله وفي طبيعة مشاعره وفي خطوته التالية التي ينبغي أن يقوم بها قبل أن يأتي أجله الذي يبدو له أنه اقترب كثيرًا.

١٣

لم تكن الرحلة طويلة لحسن الحظ. قطعناها عدوًا في مسارات متعرجة بين الأشجار، تطاردنا تلك الحراب الصغيرة أو بالأحرى تطارد قائد رحلتنا الصغيرة. ذلك القصير قوي البنية صاحب الوجه العريض الذي يشبه الوجهين الآخرين اللذين رأيناهما في الفيديو من قبل. هذه الوجوه مألوفة لي تشبه شيئًا ما رأيته من قبل في فيلم أو برنامج أو ما شابه.

توقف الرجل فجأة ثم ضغط على جذع شجرة، فظهرت لنا كتلة أشبه بصندوق بحجم ميكروباص فتح بابًا فيه ثم دعانا إلى الدخول. متوجسين خطونا داخل الصندوق، فوجدنا أنفسنا في غرفة ضيقة – بالكاد تساعنا– جالسين على كراسي صغيرة فيها. في البداية فتح الرجل صندوقًا صغيرًا أخرج منه علبة صغيرة ومحقنًا. أخرج من العلبة مادة لزجة ودهن بها الجرح في ساقة، وندت منه آهة صغيرة حين لامست المادة لحمه، ثم غرس المحقن في كتفه وأفرغه فيه.

"نحن في أمان الآن، ويمكنني أن أجيب عن كل تساؤلاتكما"، قال وعلى فمه شبح ابتسامة يكاد يخفيها فكه العريض.

بدأت القصة منذ مائتي ألف سنة حين هاجر أسلافه من الأرض إلى هذا الكوكب. كانوا يعيشون قبلها بأكثر من مئة ألف سنة، وأنشأوا حضارة في مكان منعزل عن بقية البشر. بدأت حضارتهم حين استقرت تسع عائلات على ضفة نهر. اكتشفوا الزراعة واستأنسوا الحيوانات في وقت كان البشر فيه لا يعرفون إلا الصيد.

بمرور الزمن تطورت حضارتهم واتسعت رقعتها وبعد مئة ألف عام كانوا قادرين على صنع أدوات استكشاف الكون، في وقت كان الناس خارج قارتهم لا يزالون في بدائيتهم يعيشون على طرائدهم أو يجمعون الثمار. هؤلاء البشر هم من يطلق عليهم الأرضيون اليوم: "إنسان نياندرتال"، ويظنون أنهم قد انقرضوا وحل محلهم الإنسان الحالي.

"تختلف الروايات عن اكتشاف أسلافنا كوكب أديتيا، واستطاعتهم الوصول إليه. قيل إنه بسبب أحد التجارب، تولد خلل كوني يصل الأرض بأديتيا، وقيل إنهم اكتشفوه نتيجة تطور قدراتهم العلمية. في النهاية تركوا الأرض واستوطنوا هنا لسبب ما. يقول المتدينون إنه أمر إلهي أمرهم بترك الأرض بعدما استطاع إله الشر أن يعبث في الخليقة، وأن يصيب الأرض بداء لا يمكن الفكاك منه، وهم مختلفون على مذاهب شتى في تحديد نوع هذا الداء الذي بسببه جاءهم الأمر الإلهي بالرحيل"، قالها ووجهه يوحي بالسخرية، وشادية تستغفر في سرها من هذا الكفر، وأنا أسمعه وما زلت أشعر أن الأمر برمته خدعة، فسألته أنا عن رأي غير المتدينين في هذه الأسطورة.

أجابني بأنهم يفترضون الكثير من النظريات: أهمها أن كارثة طبيعية حلت على الأرض كانتشار الجليد أو تحرك القارات نتيجة زلازل متعاقبة... المهم أنهم يرون أن أسلافنا كانوا أكثر منا حضارة، وأن هناك تفسيرًا علميًّا لهجرتهم، وأن الكوارث الطبيعية والحروب السابقة على أديتيا هنا أخَّرَت ركب حضارتهم كثيرًا، وأنهم بالكاد اقتربوا من المستوى الذي بلغه أسلافهم.

طلبت منه أن يكف عن الحكايات والأساطير، فنحن لسنا بحاجة إلى معرفة كل هذا التاريخ، فما كنت أريده أن أفهم سبب اختطافهم لنا، ثم أضفت وأنا ألوح بيدي: "وبعدين إزاي بتتكلم فصحى صحيحة كده"!

"اللغة الفصيحة هي نتاج مترجم تخاطري يجعلكما تسمعان كل الحديث بالعربية، لكنني في الحقيقة أتحدث بلغتي وأستمع لكما تتحدثون بلغتي"، لويت شفتي دون اقتناع فيما فتحت شادية فمها بانبهار لم أدر له سببًا، ثم أكمل الرجل قصته، فقال إنهم منذ قرن من الزمن تقريبًا انخفض عدد المواليد الذكور بشده، وانتشرت الخرافات بين الناس وأكدوا أنها نبوءات الكتب المقدسة التي تؤكد أن هذا سيحدث، وأنه ينبئ بوجوب عودتنا لموطن أسلافنا الأصلي.

أدى هذا إلى صعود المتدينين وسيطرتهم على الحكم، وإن كان غير المتدينين لا يزال لهم بعض السلطات وجبهتهم في المعارضة قوية. فكر المتدينون في أخذ قرار بإحضار عينات من الأرضيين وإجراء التجارب عليهم، لدراسة سلوكهم وردود أفعالهم لكي يدرسوا إمكانية التعايش معهم بعد هجرتنا.

قاطعته شادية أخيرًا وسألته، كيف سيهاجرون؟ وأي أرض ينوون العيش فيها وكوكبنا مزدحم بأهله؟ فقال إنهم سيعودون إلى الموقع الجغرافي المطابق لوجود أسلافهم حسب النصوص الدينية، وأن التقنيات المتقدمة لديهم ستسمح لهم باحتلال أرض الأسلاف وبناء حواجز تفصلها عن بقية الكوكب، أما البشر الموجودون في أرض الأسلاف فسيخيرون بين البقاء فيها تحت قوانيننا أو الرحيل.

"بس ده ظلم"! قالت شادية باستياء، وقلت أنا مازحًا: "لا وانتي الصادقة ده فيلم". كنت غير مقتنع بحرف واحد، وما زلت مؤمنًا أن كل هذا جزء من اللعبة. تجاهلني الرجل ورد على شادية قائلاً: "إن غير المتدينين اعترضوا بشدة، وقالو إن هذا غير أخلاقي، وأنه يمكن إجراء تجارب على عدد محدود من البشر لاكتشاف طريقةٍ لعلاج نقص الذكور عندنا، إما بعلاج جيني أو بالتزاوج بين الذكور الأرضيين والإناث عندنا".

أثارت الفكرة قرفي فلا بد أن الإناث في كوكبهم شديدات القبح، وسألته شادية عن ماهية العيب الجيني الموجود عندهم. ضحكت وأنا أسألها عن كيفية فهمها تلك الأمور وهي ضحلة الثقافة وأقصى مدى وصلت إليه في القراءة هو اقتباسات قرأتها على الفيس بوك، وبضع قصص رومانسية تافهة.

ذكر أشياء عن كروموسوم (واي) وكلمة أخرى غريبة لم أفهمها، لكن شادية كانت تهز رأسها متفهمة، ما أثار استغرابي الشديد! موظفة حكومية لم تسمع عن (هيمنجواي) أو بهاء طاهر وتعرف الكروموسوم هو أمر مثير للدهشة حقًا. طلبت أنا منه بفراغ صبر أن يدع تلك

السفسطة العلمية ويدخل في التفاصيل، لكن شادية سألته بدورها مستفهمة عمَّا فهمته من أن المتدينين أخلاقهم سيئة على عكس غير المتدينين، ضحك بسخرية وقال: "إن كل من في دوائر الحكم يبحث عن مصالحه سواءً أكانت مالية أم سلطوية أم عقائدية، فهناك زعيم في المعارضة يطمح في إنتاج علاج من التجارب على الأرضيين، يدر عليه المكاسب الطائلة، وهناك آخرون من غير المتدينين من يوافق على الأمرين، ويطمح في جني أرباح من وراء الهجرة للأرض".

كانت تلك هي الجزئية الوحيدة في كلامه التي أقنعتني وجعلتني أشعر أنه قد يكون محقًّا أو قد يكون من أصحاب التجربة، ويطرقون على أوتار حساسة في أفكارنا ليسهل علينا الاقتناع. فجأة اهتزت الغرفة بنا، فأصبت بالهلع أنا وشادية، لكن الرجل تصرف برباطة جأش وضغط بعض الأزرار في الجدار خلفه، فبدأت الغرفة بالحركة بهدوء. ارتجت الغرفة ثانية بفعل ارتطام شيء ثقيل بنا، فسألناه عن السبب فقال: "يبدو أن المستشعرات اكتشفتنا، وألقت علينا مادة مهيجة للحيوانات جعلتها تهاجم العربة".

"عربة!! هذه الغرفة عربة"؟ سألت شادية فرد بالإيجاب، بأنها عربة ذاتية القيادة ومموهة، بحيث لا يراها الناظر ولا تظهر للكاميرات الدقيقة التي تملأ الجزيرة. كان ثمة تساؤلات كثيرة لم نعرف إجابتها بعد، لكن الوقت لا يسمح الآن. سارت بنا العربة ترتج بين الفينة والأخرى بفعل نطح الحيوانات إلى أن وصل بها إلى الضفة، وسار بها على الماء ونحن في دهشة. عبر بنا النهر، وتوقف ونحن نشاهد مسارنا عبر شاشات تملأ الجدار الكبير المقابل للباب.

ارتجت العربة ثانية بفعل انفجار صغير هذه المرة، وبدأت ملامح القلق ترتسم على الرجل، ولكنه طمأننا بأنه هو فقط المعرض للخطر. تكررت الانفجارات ثم صمتت فجأة حاول أن يحرك العربة لكنها توقفت، بعدها سمعنا صوت ارتطام جسم معدني صغير بالباب. لم تمض ثوانٍ حتى انخلع الباب كأن أحدًا جذبه من الخارج، وقبل أن ندرك ما يحدث قفز الرجل من العربة وركض وهو يصرخ بنا أن نتبعه.

توقف الرجل لحظة ورمى من يده كرات صغيرة قبل أن يمسك بأيدينا ويعاود الركض. انتشر دخان كثيف أغلق مجال الرؤية وارتعد جسدي من فرط البرودة التي لا أعرف مصدرها، ولكنني استمريت في الجري بفعل جذبه لي. شعرت بالحنق عليه بعد أن أعادنا لجو الرعب والمطاردات، بعد أن بقينا أربعة أيام نعيش في هدوء، وكدنا ننسى ما نحن فيه.

كنا نركض والدخان يلفنا وأنا مندهش من امتداده على تلك المسافة الكبيرة، وهو خرج من بضع كرات صغيرة. توقفنا عندما صرخت شادية وبدا أنها وقعت على الأرض، فقال لها الرجل: "سأحملك"، ردت معترضة لكن يبدو أنه لم يعرها انتباهًا وحملها بالفعل، وهو يطلب مني أن أمسك بذراعه لكي لا نفقد بعضنا. لا أعرف كم مضى علينا من الوقت ونحن نجري! لكننا انتهينا في عربة ثانية وأنا بالكاد ألتقط أنفاسي.

قال لنا الرجل: "إن الوقت يضيق، وأنه من الواضح أن هناك تقنيات جديدة لتحديد المخترقين، وأنه علينا في حال حدوث شيء له أن نتوجه نحو الكهف الخامس بعد الشلال شمالاً؛ أي في الجهة التي نحن

فيها". قال إنه وجماعته يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدتنا على الهرب، وأن هناك في هذا الكهف وسيلة تهريبنا، وفي حال حدوث أي طارئ، فإنه علينا التوجه للملجأ وضغط زر النجاة والاستسلام لمختطفينا مؤقتًا حتى يحاول زملاؤه إيجاد طريقة أخرى لتهريبنا.

"تهريبنا إلى أين"؟ تساءلت بحذر، فلو كان كلامه صحيحًا فهل لدى مجموعة من النشطاء تقنيات حكومية متقدمة للسفر عبر الفضاء كما استنتجت. قال إن لهم أعوانًا في أماكن حساسة، وأنهم سيعيدوننا إلى الأرض مهما كان الثمن، وليس نحن فقط بل هناك المئات من الأرضيين يخضعون لتجارب مماثلة.

"لم أفهم إلى الآن ما غرض التجارب، ما دامت لا توجد نية معلنة لهجرتكم إلى الأرض"؟ قال: "إن السبب المعلن أن هذه التجارب الغرض منها انتقاء أفضل البشر الذين يحملون أفضل الصفات الوراثية، وأن أفضلية الصفات الوراثية لا تتضح إلا بعد وضع العينة البشرية تحت ضغط بيئي قوي، وليس مجرد تتابع أحماض نووية يتم الكشف عليها في المعمل".

قال إن هذا هو المعلن، لكن هناك تسريبات عن صفقة بين الحكومة المتدينة والمعارضة عن المضي في كلا الطريقين، ومن يريد الهجرة إلى الأرض فله ذلك، ومن بقي سيستفيد من أفضل العينات في التزاوج مع إناث من كوكبنا لإنتاج جيل أفضل أو إنتاج علاج جيني.

كان رأسي يدور من كل تلك التفاصيل، وظللت أنا وشادية نطرح عليه الأسئلة وهو يجيب ويشرح لنا خطته، حتى فاجأتنا انفجارات متتالية خارج العربة، ثم صوت أزيز مرتفع أظلمت بعده

العربة، ثم حدث انفجار آخر طار بعده باب العربة، وقبل أن نقفز منها جاء وابل من الحراب الصغيرة.. الكثير والكثير منها انغرست جميعها في جسد الرجل وجعلته ينتفض من الألم ثم همد تمامًا.

١٤

زفرت زهرة في ملل وهي تقوم من على مكتبها لتمشيَ في غرفتها قليلاً، بعد أن أحست بتيبس ساقيها من طول الجلوس. أمسكت بريموت سرير الكشف في عيادتها، وأخذت ترفع السرير وتخفضه، وتثني نصفه الأعلى وتفرده لتمضية الوقت. لليوم الثالث على التوالي لم يطرق مريض باب عيادتها، وعللت مساعدتها ذلك بأننا في شهر يقل فيه عدد المرضى، لكنها حجة غير مقنعة فمرضى عيادتها نادرون.

ما زالت تعيش في مجتمع يتوجس من فكرة أن يكون الجراح امرأة. في المستشفى الجامعي يتبرم البعض ويبدي بعض أصحاب الشوارب قلقهم من فكرة أن المريض الذي يهتمون له سوف يخضع لجراحة تجريها طبيبة، وكم من مرة حاول أحدهم استعطاف طبيب آخر ذكر ليجري العملية بدلاً منها! ويبدي دهشة ممزوجة بالامتعاض حين يعرف أنها هي من يرأس الطبيب في عمله، وهي من يعلمه كيف يمسك المبضع. هذا في مستشفى الجامعة المجاني أما هنا في المستشفى الخاص فمن النادر أن يخاطر أحدهم ويجري لديها جراحة ما، خاصة وأن تخصصها هو في جراحة المخ والأعصاب.

طرقت المساعدة الباب، وقالت إن هناك شخصًا يريد مقابلتها بخصوص مريض محجوز في مستشفى. سمحت له بالدخول؛ كان شابًّا في أوائل العشرينات، نحيلاً، أسمر، ذا أنف معقوف، جلس على الكرسي أمامها وبدأ الحديث بحرج. قال لها إن له قريبًا مصابًا بحروق كبرى، وأنه بين الحياة والموت، وأنه يريد منها المساعدة في علاجه.

رفعت زهرة حاجبيها في دهشة، وهي تسأل عن السبب، وما علاقة تخصصها بحالة مصابة بالحروق، وهي الحالات التي تفزع دومًا لذكر اسمها. شرب الشاب قليلاً من الماء، ثم قال لها إنه هو الآخر غير مقتنع، لكنها رغبة ذلك المريض، وأنه قال إن دكتورة زهرة متخصصة في علاج الألم عن طريق حقن الأعصاب، وهي الوحيدة القادرة على علاجه.

شعرت بسعادة، لأن هناك مريضًا في مكان آخر يطلبها بالاسم لاستخدام طريقتها في علاج الألم، التي لا يعرف أنها تتقنها غير عدد قليل من الأطباء. قال الشاب إنها عالجت صديقًا لهذا المريض، كان مصابًا بالسرطان، وأن طريقتها قضت على آلامه وجعلته يمضي آخر أيامه في سلام.

"المريض اسمه عمر عوض الله، محجوز في مستشفى السلام في رعاية الحروق المركزة"، قال لها وهو يهم بالقيام، ثم سألها عن أتعابها فقالت: "دي تعرفها م السكرتيرة بس الأول خلي الدكتور بتاعه يكلمني". شكرها الرجل وانصرف.

بعد دقائق جاءها اتصال هاتفي من سامح طبيب عمر، شرح لها حالته، وقال لها إنه شعر بالدهشة حين أخبره المريض عنها؛ لأنه يعرف أن علاج الألم تخصص أطباء التخدير، وليس جراحة المخ والأعصاب.

قالت له إن رسالتها للدكتوراه كانت في هذا الموضوع، وأنها أتقنته وصارت معروفة في جامعتها بأسلوبها الخاص في علاج الألم. كان اختيار هذا الموضوع لرسالة الدكتوراه إجبارًا من مشرفها، الذي لم يكن مقتنعًا بإعطائها رسالة عن جراحة نوع صعب من أورام المخ.

كان كمعظم أساتذتها يرى تدربها في جراحة المخ والأعصاب أمرًا خاطئًا، ولذلك حاول أن يحيدها ويعطي لها اهتمامًا في تخصص آخر، بحجة "توسيع منظور تخصص جراحة المخ والأعصاب". استطاعت أن تتقن فن علاج الألم، لدرجة أن زملاءها في قسم التخدير كانوا يطلبون مشورتها أحيانًا في حالاتهم الصعبة، ولم يمنعها ذلك من ممارسة جراحات للعمود الفقري وللمخ، وخاصة في الحوادث.

في الموعد كانت تتحدث مع المريض. بدا لها مألوفًا، قد يشبه ممثلاً أو شخصًا مشهورًا أو أحد زملائها، سألته فقال إنه رآها من قبل وهي تعالج زميلاً له وتحدث معها. أحضر لها سامح كل ما تحتاجه، وأحضرت هي معها الدواء الذي ستحقن به الأعصاب. قالت لعمر إنه محظوظ لأن ظهره سليم، وسيسمح لها بإجراء تخدير للأعصاب الحسية لبطنه وفخذيه، لكن سيكون صعبًا للذراعين لأن رقبته محترقة.

شكرها على تعبها وسألها عن المدة التي سيستغرقها الحقن، فقالت نصف ساعة على الأكثر. صحح لها مقصده، وأنه يسأل عن المفعول، كم سيستغرق؟ قالت ثلاثة أشهر تقريبًا. أطرق مفكرًا ثم قال: "على بركة الله"، قالها وفي نيته شيء لم يفصح عنه.

بدأت زهرة في حقن الأعصاب التي تغذي طرفه السفلي الأيمن، وخزته إبرة صغيرة تأوه لها، فقالت إنه لن يتألم بعدها، وربتت بكفها

المغطى بالقفاز على ظهره، فشعر بسكينة غريبة ولم يقلق بعدها، وهو يشعر بشيء يتحرك تحت جلده، ثم تدفق ثقيل لسائل من نهاية ذلك الشيء. شعر مرة واحدة باختفاء ألم الحروق من ساقه اليمنى، ثم امتد الارتياح لفخذه.

بعد أن اطمأنت على نجاح حقنها، قالت إنها ستبدأ في حقن الطرف الأسفل الأيسر. طلب منها أن تنتظر قليلاً وتعطيه فرصة للراحة، تبرم سامح وَهَمَّ بلومه، لكن زهرة قالت: "مش مشكلة تقدر تتفضل، وأنا هفضل معاه لحد ما يهدا ونكمل تاني". استأذن منها للانصراف وجلست هي على كرسي بجوار سرير عمر الذي أعادته الممرضة للنوم على ظهره.

شكرها عمر على مجيئها، وعبر عن دهشته الشديدة بزوال الألم من ناحيته اليمنى، ومضى يُطْرِي على مهارتها. شكرته وهي تشعر بخجل مبالغ فيه لا تعرف سببه، ثم تمنت له الشفاء، فقال لها إنه يعلم أن أيامه معدودة، وكل ما كان يتمناه هو أن يراها قبل أن يموت. ملأت الدهشة وجهها، فعدل كلامه وقال إنه يقصد أن توقف آلامه وأن التعبير خانه.

سألته عن سبب حروقه، فقال إنها حكاية طويلة وأنه يكتبها في رواية لتخلد قصته بعد موته. ابتسمت وهي تعدل من جلستها على الكرسي المتعب الذي جلبوه لها، ثم سألته عن سبب أخذه أمر الموت ببساطة هكذا، وعن فقدانه الأمل في الشفاء. قال إنه بَعَث يستشير طبيبًا مشهورًا عن حالته، وقيل له إن الأمر غالبًا سينتهي بوفاته، وأنها مسألة وقت، وأنه لا يريد أن يقضي وقتًا طويلاً في التفكير، فالموت آت اليوم أو غدًا.

قال إنه يعتبر أن الدنيا أشبه بشقة يؤجرها لك صاحبها وقتًا ما، ثم يطردك منها، وعليك ألا تبتئس إذا جاء هذا الطرد بعد قضائك أكثر من مدة العقد. شقة مقرفة ومشاكلها كثيرة؛ حوائطها مشروخة وسباكتها تسرب، والكهرباء تقطع كثيرًا والجيران سيئون ويرمون عليك قمامتهم من حين لآخر. ابتسمت لقوله فأكمل: "وكله كوم والشارع كوم تاني.. دوشة وزحمة وخناقات ودخان عربيات"، ضحكت هذه المرة، فأضاف بأسًى إن صاحب الشقة تركه يقيم فيها أربعين عامًا يرفض أن يسمح له بالرحيل، ثم حين نبتت خارج شرفته شجرة ياسمين تثلج صدره المتعب، قال له أمامك حتى نهاية الشهر قبل أن تتركها فقد تجاوزت مدتك بكثير.

"بتشتغل إيه يا عمر"؟ سألته وقد أثار فضولها حديثه فقال: "سباك حاصل على ليسانس تاريخ وحضارة وروائي مغمور". اعتقدت أنه يمزح، لكنه أقسم لها أنها الحقيقة، ثم قال مازحًا إن لديه شقة مؤثثة، ويرغب في الاستقرار لو أن لديها فتاة تبحث عن عريس. ضحكت ثانية وهي تتساءل: هل هو مَرِحٌ هكذا في الحقيقة أم أن المرح المبالغ فيه عَرَضٌ لاكتئابه؟

قامت ونادت الممرضة، طالبة منه أن يستعد لأنها سوف تكمل ما بدأته، طلب منها أن تكتفي بهذا لليوم، لكنها أصرت أن تكمل عملها، وتحججت بأنها ليس لديها وقت للمجيء كل تلك المسافة مرة ثانية. قال إنه سوف يبعث قريبه ليدفع حساب زيارتين أخرتين مقدمًا، فردت بضيق: "الحكاية مش فلوس ... الطبيعي إني أعملك الحقن كله مرة واحدة".

في النهاية استسلمت لإلحاحه، ووافقت أن تزوره بعد يومين لتستكمل ما بدأته، بشرط أن يتركها تنهي عملها في المرة القادمة. شكرها بحرارة ثم مد يده الملفوفة بالضماد ليسلم عليها، ترددت للحظة ثم مدت يدها تسلم عليه لكي لا تجرح شعوره ويظن أنها ممتعضة من كفه المصابة. سلمت عليه ولدهشتها شعرت بأنامله الدافئة تضغط على رسغها برفق. لم تحاول أن تفسر سبب سلوكه ذلك، فهو مريض في حالة حرجة، ولا يمكن أن يكون غرضه سيئًا بأي حال.

طلب منها قبل أن تمشي أن تفتح درج الكومودينو المجاور لفراشه، سألته عن السبب فرجاها أن تفعل. سألته ما الذي يريده من الدرج فقال: "الفلاشة الحمرا دي خديها"، قال إنها تحوي ما تم كتابته في روايته التي تحكي سبب إصابته، وأنه يرجوها أن تقرأها، تحججت بأنها لا تستطيع القراءة من على الشاشة، فقال إنه سيطبعها ويعطيها لها بعد غد. "لا خلاص مش مستاهلة.. أنا هقراها كده، بس لما ألاقي وقت"! شكرها بصوت متهدج، ولمعت عيناه بالدموع وهو يقول إنها لا تتخيل حجم الجميل الذي تقدمه له.

١٥

كانت أول مرة في حياتي أرى شخصًا يحتضر أمامي، وهي اللحظة التي اقتنعت فيها أنه لم يكن يخدعنا، ولم يكن جزءًا من اللعبة. الموت بالنسبة لي شخص مسجى أمامك فمه نصف مبتسم وعيناه مسبلتان، وقبل أن تدخل عليه، تعرف أنه ميت، فقد أخبرك أحدهم أنه فارق الحياة، وطلب منك أن تلقي عليه النظرة الأخيرة.

حين مات أبي كنت في الجامعة، كان يأخذ قيلولته المعتادة ودخلت أمي لإيقاظه فلم يستيقظ، أما هي نفسها فقد ماتت في غرفة العناية المركزة. كانت مصابة بجلطة في المخ ومكثت أسبوعا في المستشفى، قبل أن يتصلوا بي فجرًا ليقولوا إنها ماتت، وأنهم يريدون أن أستلم جثمانها وأسلمهم بقية الحساب.

حين همد الرجل، ظننته مات، ولكن شادية تفحصته وقالت إنه لم يمت، وفتحت الحقيبة التي كانت بحوزته، وأخرجت منها محقنًا شبيهًا بالذي استخدمه من قبل وحقنته به. كان تصرفًا ذكيًّا منها، صاحبته رباطة جأش غريبة، ربما كان سببها أنها أدركت أننا بأمان، وأن مختطفينا لن يضحوا بنا. شهق الرجل وعض على شفتيه الغليظتين في ألم، عندها

استعدت رباطة جأشي وحاولت أن أنزع واحدة من الحراب من فخذه، لكنه صرخ من الألم فتوقفت.

"اتركاني هنا، واذهبا سريعًا إلى الكهف الذي قلت لكما عليه، هناك سوف تجدان من يأخذكما من هذه الجزيرة، وتذكرا لو حدث أي شيء خاطئ اذهبا للملجأ، وابقيا هناك حتى يأتي من يحرركما"، أمسكت شادية بيديه وهي تقول إننا لن نتركه. طلب منها الرجل أن تكف عن الجدال، لكنها لم توافق، وطلبت منه أن يدلنا على كيفية مساعدته. تدخلت أنا وقلت له إننا لن نتركه للموت هنا، نظر إليَّ مبتسمًا، ثم تسارعت أنفاسه وبدأ لعابه يسيل وعيناه تدوران.

فتحت شادية حقيبته وسألته –وهي تهزه بعنف، وتحاول إفاقته– عن أي محقن تستخدم في إنقاذه، إذ يبدو أن المحقن الأول لم ينجح. رد عليها الرجل بأصوات متداخلة لم نفهم منها شيئًا. أخذت محقنًا ثانيًا من نفس النوع وأفرغته في كتفه.. لم يحدث شيء لعدة ثوانٍ، ثم أخذت أنفاسه في التلاحق، لكنها كانت أنفاسًا سطحية، لم يبد لي أن هواءها يصل إلى صدره.

مات الرجل وغلبتني دموعي، وأسندت ظهري على ما تبقى من العربة دافنًا وجهي بين كفي، أما شادية فقد أسبلت عيني القتيل ، ثم أخذت تضرب أرض العربة بغضب، وهي تصرخ بكلمات لا معنى لها. ما لبثت أن هدأت، ثم وضعت يدها على كتفي تربت عليه، وحين لم تجد استجابة أمسكت ساعدي بقوة، وأبعدت كفي عن وجهي، وقالت: "مش وقته يا عمر لازم نمشي... امسك نفسك وقوم".

كان الموقف معكوسًا هذه المرة، فهي رابطة الجأش وأنا منهار، هي مصممة وأنا متردد. في عدة مرات سابقة كانت هي أصح رأيًا واقتراحها كان هو الأصوب، وكنت أشعر أن لديها القدرة على تحليل معطيات كثيرة، في الوقت الذي كنت أرتبك وأفكر في أول قرار يخطر ببالي. كان هذا عاديًّا، فأنا أفتقد أحيانًا سرعة البديهة، وأفقد بوصلتي حين أكون مضغوطًا، لكنها هذه المرة جعلتني أشعر أنني طفل بين يديها، وأنها تخرجني من مخبأي وتعيدني إلى ساحة اللعب.

نظرت إليها وإلى وجهها الدافئ، ثم أفلت ساعدي من يديها، ولسبب لم أدركه قبلتها على جبهتها وشكرتها وقمت. امتقع وجهها من تصرفي، فاعتذرت لها، لكنها لم ترد ونزلت من حطام العربة وتبعتها. مشينا سريعًا في اتجاه الجبل، على يميننا الأشجار، وعلى يسارنا ضفة النهر. توقفت فجأة ثم نظرت إليَّ صامتة للحظات، فتحت فمها لتقول شيئًا ثم زمَّت شفتيها دون أن تتكلم ثم استدارت وأكملت المشي.

تسارعت خطواتنا واقتربنا سريعًا من الجبل، وأنا أفكر فيما قد يدور برأسها. لم أقصد شيئًا من هذه القبلة؛ كانت مجرد تعبير عن امتناني لوجودها أو... أو أنها كانت تعبيرًا عن مشاعر قمعتها.. لا أدري حقًّا، لكن الأكيد هو أنني لم أشعر أن امرأة احتوتني من قبل وعالجت ضعفي بهذه الطريقة. أنا أصلاً لم أظهر ضعفي أمام امرأة من قبل، لا حبيبة ولا زوجة، ولم أشعر أبدًا أن امرأة تستحق أن تراني أبكي. ربما لأننا وحيدان في عالم ليس فيه بشر حقيقيون غيرنا، نصارع للبقاء أحرارًا، وتطحننا لعبة عبثية من أناس يتعاملون معنا كالماشية، التي ينتقون منها أفضل السلالات للتزاوج، هذا إن صح كلام المرحوم الذي تركناه يتعفن في الغابة.

سألتها ماذا كانت تنوي أن تقول، ولماذا تراجعت، لم ترد وحثت الخطى أكثر. اعتذرت لها عن القبلة، وقلت إنني لن أكررها، قالت لي أن أكف عن الحديث، حتى نعرف ما سنفعل، وحينها سيكون لدينا كل الوقت. كانت على حق فقد تضيع وسيلة خلاصنا لو تأخرنا، قد تهاجمهم تلك المستشعرات أو يرسلون عليهم ذئابًا أو فيضانًا أو شيئًا من هذا القبيل.

وصلنا عند الشلال، وبدأنا المشي شمالاً ونحن نعد الفتحات أمامنا، عددنا اثنين وكانت الثالثة محل خلاف بيننا، كان يبدو أنها مجرد تجويف بسيط في الجبل، لكنني أصررت على أنها رقم ثلاثة، وأنه بقي لنا كهف نتركه وندخل التالي، وأصرت شادية على عدم احتسابه. تجاوزنا الكهف التالي ثم وجدنا جواره تمامًا كهفًا كبيرًا عن كل سابقيه، وأيقنت أنه هو المقصود. لم تجادلني شادية ودخلنا الكهف، تقدمت أنا، لكن شادية مشت ببطء وهي تتفحص الجدار بتمعن إلى أن توقفت ثم أشارت لي أن أنتظر.

وجدنا شقًّا رفيعًا في الجدار، ويبدو أنه مكان لباب يتحكمون به، وقد يغلقه الخاطفون علينا كما فعلوا من قبل. وقفت محتارًا لم أدر ما الحل! اقترحت هي أن نفتش في الكهف التالي، لكنني رفضت أن أمشي قبل أن أعرف هل هناك أحد ينتظرنا في الجهة الأخرى لهذا الكهف أم لا. طلبت منها أن تنتظر بالخارج، وقررت أن أعدو حتى أصل إلى نهايته وأعود سريعًا، حاولت أن تعترض لكنني لم أمهلها وانطلقت سريعًا.

بدأ الكهف يضيق كلما تقدمت به ويتعرج مساره وأحسست أن المسافة ستكون أطول من المعتاد توقفت لحظة لأفكر.. لو أنهم يريدون

تهريبنا فمن الطبيعي أن يختاروا كهفًا واسعًا، ولا بد أيضًا أن لديهم أدوات يعرفون بها الكهوف الموجودة، مثل تلك الأبواب أو الفخاخ. قررت العودة وبدأت الجري نحو المدخل حين سمعت صوت صراخ شادية.

زدت سرعة عدوي، خاصة عندما سمعت صوتًا آخر حيوانيًّا لم أميزه مختلطًا بصراخها. وصلت إليها وجدتها لاصقة ظهرها بجدار الكهف، وأمامها حيوانان يتصارعان بعنف. كانا أشبه بالفهود، لكن أصغر، وكانت المعركة حامية الوطيس، وبدا أنهما لا ينتبهان إلينا. أخذت يدها لنخرج، فطلبت مني ألا نتحرك حتى لا ينتبها إلينا، قلت لها إنهما مشغولان لدرجة أنهما لم ينتبها لصراخها. خرجنا من باب الكهف ففوجئنا بالمتفرجين... عائلة كاملة من المفترسات تتابع المعركة ولا تنظر إلينا.

كان من الطبيعي أن نعود أدراجنا للكهف؛ لأن المعركة قد تنتهي في أي وقت، وعندها سوف نكون نحن وليمة الاحتفال. بدأ أحد المتصارعين يظهر تفوقًا على خصمه، فجذبت شادية من يدها وجريت بها نحو الداخل، تبعتني وهي تتبرم وتعترض، لكن رأيي كان أن الموت بأنياب هذه المفترسات لا يمكن التغلب عليه أو الالتفاف حوله، أما إغلاق الباب فهو مجرد جزء من اللعبة.

تبعتني وهي لا تزال تجادلني أن الحيوانات قد تكون جزءًا من اللعبة، ومدربة على ذلك، والدليل أننا لم نر ذئابًا تهاجمنا بعد اليوم الأول، وكأنها اختفت من الغابة. كلامها كان يمكن أن يبدو منطقيًّا لو لم تكن الدماء تسيل من الحيوان المنهزم. لا يوجد كائن يضحي بحياته

طاعة لمدربيه.. غريزة البقاء أقوى من أي اعتبارات أخرى عند كل الكائنات، ما عدا البشر فالحماقة أقوى من غريزة البقاء أحيانًا.

تناهت إلى مسامعنا أصواتهم داخل النفق، يبدو أن المعركة انتهت وحان الوقت للاحتفال بوليمة بشرية. كان النفق لا يزال ممتدًا ونحن نعدو داخله، حتى وصلنا إلى نهايته، وظهر أمامنا البحر من الفتحة. نظرت منها كانت الحافة أضيق من تلك الموجودة في الناحية الأخرى من الشلال والفتحة هنا أعلى. الحيوانات صوتها يعلو ويبدو أنها اقتربت منا تمامًا، وشادية تفقد رباطة جأشها مع الحيوانات، بدءًا من الفئران وحتى الأسود، وتفقد شخصيتها القوية القادرة على التصرف.

طلبت منها أن تدلي جسدها، وأن أمسك بذراعها حتى تقترب من الحافة لتنزل عليها بهدوء. ظلت مترددة لكن تعالي صوت الحيوانات حسم ترددها. دليتها وأمسكت بها بكل قوتي أنزلتها لأقصى ما أستطيع، لكن قدمها كانتا لا تزالان تعلوان عن الحافة بما يقارب المتر، ولا تزال خائفة من السقوط هكذا، فيختل توازنها وتقع في الماء. ظللت ممسكًا بها وذراعي تكاد تتمزق، حتى أحسست أن الحيوانات قد وصلت، فرجوتها أن تفلت لأقفز أنا الآخر.

صرخت بيأس، وأفلتت يدها من ذراعي وهي تغمض عينها في نفس اللحظة التي عض ساقي أحدهم. دون تفكير قفزت من شدة الألم وسقط القط الضخم معي، وهو لا يزال ناشبًا فكيه في ساقي، ثم سقط ثلاثتنا في الماء. كان الماء عميقًا والموج يسحبنا للداخل، وشادية والقط يصارعان الغرق. أمسكت بها بقوة وصارعت الموج الذي لم يكن قويًا لحسن الحظ، ثم أمسكت بالحافة وساعدتها على الصعود وصعدت بدوري.

نظرت إلى الحيوان الذي يصارع الغرق ويحاول الوصول إلى الحافة، فكرت أن أساعده لكن نظرة للدم المتدفق من ساقي جعلتني أتراجع. كان يبدو الآن مسكينًا جدًّا كقطة وليدة في وسط مطر جارف، نظرت إلى شادية فوجدتها تنظر إليه هي الأخرى، وعلى وجهها علامات الأسى. فكرت ثانية أن أنقذه لكنني سمعت صوت هدير يشبه صوت موتور سيارة رياضية.

كانت فوق الماء على ارتفاع منخفض مركبة تشبه مركبات الفضاء الصغيرة في أفلام الخيال العلمي. كانت بحجم سيارة دفع رباعي، لكنها مدببة من الأمام ومنحنية من جانبيها بميل خفيف. فُتِحَ باب وظهر بالداخل رجل شبيه بالذي مات بين يدينا منذ قليل، وهو يمسك بدفة بين يديه. أشار لنا أن ننتظر ثم دار بالمركبة محاولاً النزول لمستوى الحافة، لكن يبدو أن الأمر كان عسيرًا بعض الشيء.

ارتفع بالمركبة لأعلى ثم اقترب من الجبل أكثر ثم بدأ النزول عموديًّا فوقنا تمامًا، ويبدو أن مناورته تلك استثارت شيئًا ما أو التقطها مستشعر هنا أو هناك؛ لأن قذيفة انطلقت نحو المركبة من مكان في الجبل وأصابتها في مقدمتها.

١٦

تناثرت شظايا من مقدمة المركبة ومرت إحداها بجواري تمامًا، توقعت أن تدور المركبة حول نفسها ثم تسقط، أو تدور وترتطم بالجدار ثم تتفتت، أو تقع علينا وتشتعل وتشعل النيران فينا، وتريحنا من هذا كله. لم يحدث شيء من ذلك، بل على العكس انطلقت من جوانب المركبة كرات منيرة أخذت تدور في اتجاهات عشوائية، ثم حاول قائد المركبة الاقتراب منا ثانية.

انطلقت قذيفة فتلقتها إحدى الكرات وامتصتها وطارت بها بعيدًا. انطلقت قذيفة ثانية وثالثة وتكرر نفس الشيء. أدركنا لحظتها أنا وشادية أن مناصرينا أقوياء، وأننا على وشك الهروب أخيرًا، أمسكت يدها وعاونتها على تسلق السلم الصغير الذي نزل من المركبة. تسارع معدل القذائف وشادية تخطو بقدمها داخل المركبة وأنا أستعد للتسلق بدوري.

انطلقت دفعة من القذائف مرة واحدة نجحت إحداها في تجاوز الكرات وإصابة المركبة في جانبها بجوار السلم تمامًا. اختل توازن المركبة وسقطت أنا على الحافة وشعرت بدوخة وبجزء من رأسي يكاد يتمزق من الألم. انطلقت المركبة حاملة شادية وبدأت في الابتعاد بسرعة متفادية قذائف أخرى انطلقت تجاهها.

في لحظة تصارعت كل الأفكار في رأسي، ستهرب شادية وسآوي إلى الملجأ، لو أنقذني هؤلاء فهذا جيد، ولو لم ينقذوني فسأكمل مدتي، ثم أخضع لبعض التجارب، أو يحصلون مني على ما يريدون ثم يعيدونني. هل سأبقى في هذا المكان ثلاث سنوات أكتب مذكراتي أم أنهم سيختصرون المدة ويأخذونني للمعمل ويجرون بعض التجارب أم يحصلون مني على نُطَفٍ لتخصيب نسائهم ثم يتركونني أمضى إلى حال سبيلي؟!

ماذا لو أنهم كانوا يخططون لإبقائي معهم؟ سأغيب عن وطني وعن الناس الذين أعرفهم وسأعيش بعادات جديدة وأفكار غريبة وناس يدينون بدين لا أعرفه. وما المشكلة؟ من الممكن أن أجد البشر هنا أرقى وأفضل وأقل قدرة على الخداع واستغلال الآخرين. قد تكون القوانين هنا أكثر إنسانية، والعادات أكثر منطقية، ثم إن وضعي سيكون مختلفًا تمامًا عنه وضعي في الأرض، فهنا لن أكون مجرد شخص عادي.

إذا قرروا استبقائي هنا فسأعيش مدللاً، (أكل ومرعى وقِلّة صنعة). سيزوجونني مئة امرأة من نسائهم ليحصلوا على نسل جديد. قد لا يكون ذلك ممتعًا إذا كانت النساء هنا بتلك الملامح الخشنة، ولكنني سأتعود، ومع الوقت سوف أبصر في ملامحهن جمالاً لا أراه الآن.

سأنجب العشرات، وربما المئات، لن أكون مسؤولاً عن علاجهم، فالمريض سيتكفلون هم به. لن أحمل هم تربيتهم أو مدارسهم أو فشلهم في الحياة، لن أجهز البنات للزواج، ولن أنفق على البنين العاطلين عن العمل. سيكون نسلي مجتمعًا مميزًا، وسيعاملون معاملة خاصة، وبالمرة

سأكون قد أنقذت كوكب الأرض من احتلال جزء منه بواسطة النياندرتال: بشر ما قبل التاريخ كما نظن.

كل تلك الأفكار دارت في رأسي، وأنا ملقى على الصخور مغمض العينين بساق جريحة ورأس مكدوم وعقل نصف واعٍ. كانت أفكار كثيرة تتلاطم وتحاول أن تصارع الفكرة الرئيسية، وهي بقائي هنا دون شادية التي -على الرغم من طريقتها وأسلوبها- صارت من أساسيات البقاء على الحياة في هذا المنفى. كان صدري منقبضًا لفكرة اختفائها من هنا، لكنني أحاول أن أصرفها عن ذهني بتلك الهلاوس والخطط لحياتي في كوكب آخر.

سمعت الصوت ثانية؛ صوت محرك السيارة الرياضية المميز لتلك المركبة الطائرة. فتحت عيني فوجدتها تقترب ثانية، وبابها مفتوح وشادية تشير إليّ، وتنادي بصوت غطى عليه صوت المركبة. انطلقت الكرات التي تحمي المركبة من القذائف واقترب قائدها مني تمامًا.

تحاملت بصعوبة وأمسكت بالسلم الذي أصبح مخلخلاً بفعل آخر قذيفة وبدأت أتسلقه. مدت شادية يدها لي وعاونتني على الصعود في اللحظة التي انطلقت فيها عشرات الحراب تجاه قائد المركبة بعد أن دخلت من الباب المفتوح وتفادتنا، ليستقر أغلبها في رأسه ورقبته كأن شخصًا يتحكم فيها بذراع بلاي ستيشن.

مات الرجل وتصلبت يده على مقود المركبة، فمالت بزاوية حادة وسقطت بنا في الماء وتوقعت أن تأخذنا وتغرق مخلفة دوامة تجرنا معها إلى القاع، لكنها طفت لحسن الحظ. لم أَضِع وقتًا في التفكير؛ قفزت في الماء وشادية متمسكة بي، وسبحت نحو الحافة مسافة قصيرة لا تتعدى

خمسة أمتار. كانت تحتضنني من ظهري وأنا أسبح، والماء فاتر، ملوحته خفيفة جدًّا، لكنه لاذع الطعم، كأنه عصير ليمون مخفف أضفت عليه نصف ملعقة من الملح.

كنت أشعر بدفء غريب يسري في ظهري من مسكتها؛ دفء غاب عني عدة دقائق ثم عاد إليَّ مسرعًا. تساءلت: هل كانت تود العودة إليَّ أم أنها فرحت بإفلاتها من هذا السجن أخيرًا؟ قالت بحدة: "إحنا ف إيه وللا ف إيه"! ضحكت بصوت عالٍ، وقلت إنني كنت سأفتقد ذلك اللسان الذي يستحق القطع.

جلسنا على الحافة، وقد أنهكني التعب، فطلبت منها أن نرتاح قليلاً قبل أن نفكر في خطوتنا التالية. مات اثنان في محاولة فاشلة لإخراجنا من هنا، ما جعلني أتساءل هل من أرسلوهم سيغامرون بإرسال آخرين لإنقاذنا. قالت شادية إنهم لن يحاولوا ثانية، ففي النهاية نحن بالنسبة لهم مجرد مبدأ يدافعون عنه، ولا أعتقد أن الدفاع عن هذا المبدأ يستحق الموت من أجله.

"بس فيه كتير ماتوا عشان يدافعوا عن مظلومين ما يعرفوهومش"! قلت ذلك وضربت لها مثلاً بالنشطاء الأجانب في فلسطين المحتلة؛ حيث ماتت امرأة وهي تدافع عن بيت كانوا يريدون هدمه في قرية فلسطينية. قالت إنها غير مهتمة بالسياسة، وقضية فلسطين بالذات لم تعد تحب أن تسمع عنها شيئًا. لم أناقشها، فلن يجلب الجدال معها إلا صداعًا ونحن في موقف يجعلنا لا نفكر إلا في نفسينا.

قالت لي إنها تشعر بالذنب تجاه قائد المركبة؛ لأنها أصرت على العودة لالتقاطي، ولكنها لم تكن تستطيع المضي بدوني وتركي هنا.

ابتسمت، لكن الابتسامة تلاشت حين قالت إنني لا أستحق أن يموت هذا الرجل في سبيل تحريري، وأنه لن يكون شيء ليحدث لو تركتني، فأنا كالقط بسبعة أرواح.

كنت مثلها هكذا دومًا مع الجنس الآخر، أقتل أي لحظة جميلة وأقضي على المشاعر الحلوة في مهدها. كان سبب ذلك خوفي منهن، وخوفي من التعرض للإيذاء إذا أحببت امرأة حقًّا، لكن مع شادية لم أكن أفكر بهذه الطريقة. لم أفكر فيها كامرأة بل كرفيقة درب تصادف أنها أنثى؛ سليطة اللسان بقدر رقتها وحنوها، ذكية بقدر سطحيتها، سديدة الرأي بقدر حمقها في التعامل. لا تتحدث عن نفسها كثيرًا؛ مرة واحدة فتحت قلبها وتحدثت عن قصة حب فاشلة، وكنت أنا من الغباء فكتمت بوحها.

"دبرني يا وزير"! قلت لها ناشدًا رأيها، فقلبت كفيها في حيرة لا تعرف ما العمل. لم يعد أمامنا غير يومين من المهلة التي أعطونا إياها. تساءلت عمَّا سيفعلونه بعد انتهاء المهلة، وهل سيتركوننا هنا نتعفن أم سيضعوننا في المزيد من الاختبارات! كم سنبقى بعدها قبل أن يقرروا أن التجربة انتهت وأن عليهم إخراجنا والتصرف بشأننا!

ردت شادية قائلة إنه من الممكن أن تكون وسيلة خروجنا من هنا، والتي طلبوا منا البحث عنها مركبة طائرة كتلك، وتكون مخبأة وسط الغابات لا على الشاطئ، وبهذا فإننا قد نستغرق عامًا كاملاً بحثًا عنها، هذا إن لم تكن مموهة أو مخبأة بطريقة تصعب إيجادها.

"لو متأكدة إن الملجأ ده فيه لبس نضيف هدخله حالاً"، قالت مازحة وهي تتحسس ملابسها التي لم تجف بعد، والتي لم يفلح بللنا

المتكرر في جعلها نظيفة. اقترحت عليها أن نعود إلى النفق، وندخل الملجأ وننتظر كما قال لنا الرجل، قالت إننا يجب أن نتحرك على أي حال، فلا يمكن أن نظل على الصخور هكذا، ولكن كيف نعبر النهر عائدين للمكان الذي تركنا فيه خيامنا وحقائبنا.

قامت واقفة وطلبت مني أن نتحرك على الحافة حتى نتجاوز الجزء المقابل للشلال، ثم نكمل حتى نجد كهفًا نعود منه إلى الغابة. قمت بدوري وسبقتها أمشي مسرعًا لكن بحذر. وصلنا للجزء البارز من الجبل، والذي يقابله الشلال من الداخل، وكانت الحافة رفيعة جدًّا في هذا الجزء، لا تكفي للوقوف عليها. قلت إننا سنعبرها في الماء، لكنها وقفت متجمدة تأبى التقدم.

أسندت ظهرها للحائط وجلست ببطء، وهي تنظر إلى السماء والشمس قد بدأت تميل إلى الغروب. ألححت عليها لتتحرك، لكنها لم تفعل، وبدلاً من ذلك بدأت تتمتم وتقول إنها ملت اللعبة، وتتساءل إلى متى يظل هذا الذل وتشتكي إلى الله. جلست جوارها وربت عليها، وقلت لها إن الله لن يخذلنا، فقالت: "عمر... انت بتصلي"؟ ألجم السؤال فكري، فمن كثرة ما نحن فيه لم يخطر ببالي أنني يجب أن أصلي وأنا هنا في كوكب آخر.

تذكرت دراسة الفقه وأنا في الثانوية الأزهرية، وكيف كان الفقهاء يفترضون مسائل في غاية الغرابة، ويفتون فيها، وكنا حين نسخر من كثرة المسائل العجيبة، يقول أساتذتنا إن الفقه مبني على الافتراض. حسنًا! هل افترض أحد من الأئمة الأربعة أو تلاميذهم مسألة مثل التي نحن فيها تلك. قلت لها مستسهلاً إننا معافون من المطالبة بالصلاة؛ لأنه

لا قبلة هنا، وإذا انتفى الأصل، فإن الفرع ينتفي بالتبعية. لم تفهمني وطلبت مني أن أشرح كلامي، فقلت لها لا تشغلي بالك هذا كلام أزهرية لا يفهمه العوام أمثالك، رغم أنني لم أكن أفهم ما أقول!

"المهم أنا مفتي الكوكب هنا، وبقولك لا تجب علينا الصلاة هنا، ويلزمنا القضاء بعد عودتنا للأرض"، قلتها وأنا متقمص لصوت شيخ من مشايخ الإذاعة. ضحكت ساخرة وقالت إنها تشعر أنني آخر شخص يمكن أن يكون شيخًا ويفتي، رغم ذقني التي طالت من فترة بقائنا على هذه الجزيرة.

عدل المزاح من مزاجها قليلاً، وطاوعتني في النزول للماء، والإمساك بي حتى نعبر تلك المنطقة الصعبة. نزلت إلى الماء أولاً ونزلت خلفي، أمسكت الحافة بيدها اليسرى، ولفت ذراعها اليمنى حول صدري بقوة، أحسست معها أنها تقصد أن تضمني إليها. سبحت ببطء حتى تجاوزنا المسافة الخالية من الحافة، ثم أكملت في الماء بدلاً من أن أتسلق صعودًا على الحافة، حتى وصلنا أسفل الكهف الذي حوصرنا فيه من قبل.

صعدنا الحافة ورفعتها، حتى وصلت لفتحة الكهف، ثم مدت يدها تساعدني على الصعود. استقرينا في الكهف، واقترحت عليَّ أن نستريح قليلاً، لكنني طلبت منها أن نعبر سريعًا إلى الناحية الأخرى، حتى لا يغلقوا الباب علينا. قالت إن تلك الجولة من اللعبة قد انتهت، ولن يغلقوه ثانية، لكنها رأت أنني على حق في الإسراع بالعبور؛ كي نشرب ونتناول بعض الثمار فقد قتلنا الجوع والعطش.

١٧

كان الممر من قسم الحروق حتى الباب الرئيسي للمستشفى طويلاً جدًّا، أو هكذا شعرت زهرة وهي تقطعه بخطوات متسارعة، بعد أن رفضت أن يرافقها سامح إلى الخارج. كادت أن ترتطم بشخصين في طريقها نحو الخارج، قبل أن تصل للبهو الواسع الذي يحتل باب المستشفى ركنًا منه.

كانت تشعر بغبطة غريبة لا تعرف سببها، قاومتها في البداية بخوف غريزي، ثم اعتراها تشكك وتساؤل عن سببها، ثم استسلمت لها. كان شعورًا محببًا كذلك الذي نشعر به عند انتهاء تجربة محببة للنفس، كشعورها بعد انتهاء حفلة تخرجها، وبعد أول عملية جراحية تجريها بمفردها، وشعورها بعد أول قبلة طبعها خطيبها الأول على خدها (رغم أن الأمور ساءت بعدها، لكن إحساس لحظتها لم يفقد طعمه).

وصلت إلى المكان الذي صفت فيه سيارتها، وبحثت عنها لكن لم تجدها، أخذت تنظر يمينًا ويسارًا دون جدوى. سألت رجل الأمن الواقف، فسألها بدوره إن كانت متأكدة أنها تركت السيارة هنا أم في الموقف الآخر. تذكرت أنها بالفعل تركتها في الناحية الثانية، فشكرته وقطعت المسافة سعيًا حتى وصلتها.

كانت المسافة من المستشفى في مدينة السلام إلى بيتها في مدينة نصر تستغرق ما يقارب الساعة، نصفها على الأقل واقفة في ازدحامات خانقة. رشت معطرًا وأدارت السيارة، وانبعث فيها صوت عبد الغني السيد وهو يغني: "ع الحلوة والمرة"، وهي الأغنية الأولى في مزيج أعدته لا يعجب أحدًا إلا هي. كانت تعشق نوعية من المطربين لا يحبهم إلا أصحاب المزاج الخاص مثلها، مثل كارم محمود ومحرم فؤاد وسعاد محمد وفايد محمد فايد.

لم تحب أغاني التسعينات كثيرًا، رغم معاصرتها لسنين مراهقتها، ولم تتنهد مع كاظم الساهر وعمرو دياب، ولم تتقبل أبدًا الموضات التي ظهرت في زمن الفيس بوك؛ مثل فرق الأندر جراوند وغيرها. حبها للأغاني قليلة الصيت كان يوازي حبها لكل ما هو مهمل ومتروك، لكل شيء وشخص يعطيه الناس أقل من قيمته الحقيقية. حين كانت طالبة كانت الفتاة اللامعة الماهرة في كل شيء، والمحبوبة من الجميع، عندها كانت تشفق على المهمشين حتى في حبها للأغاني.

تبدل كل شيء حين استلمت عملها طبيبةً مقيمة في جراحة المخ والأعصاب، وصار الكل يحاول النيل منها وتهميشها فقط لأنها أنثى، وهذا التخصص لا يناسب الإناث، إذا أخطأت يتم تكبير الخطأ وتضخيمه، وإذا نجحت لا أحد يتكلم أبدًا، بدأت تشعر بأنها صارت مهمشة وصارت ترق للمهمشين أكثر لأنها صارت منهم.

"غريب جدًّا هذا الرجل! متأكد من دنو أجله، لكنه يصر على أن يكتب قصة وأن يقرأها الناس... ألا يفكر في شيء آخر"! تساءلت بينها وبين نفسها وهي تتذكر كيف تهدج صوته وهو يرجوها أن تقرأ ما

كتبه، وهي لم تعد تطيق قراءة أي شيء منذ أن اجتازت امتحانات الدكتوراه. شعرت نحوه بألفة لا تدري ما سببها، وكأن الحديث معه يعيدها إلى أيام جميلة نسيتها.

خطر في بالها أنه قد يكون رفض إكمال العلاج حتى تأتي لتزوره ثانية، فكرة غريبة ولا منطق لها، فلا أحد يتحمل ألمًا كهذا ويرفض علاجه، لمجرد أن يرى امرأة أيًّا من كانت. ابتسمت لوهلة وقد أرضت الفكرة أنوثتها، ثم دفعتها عن رأسها ثانية، وهي تقول بصوت عالٍ: "إيه الجنان اللي بقوله ده"! قبل أن تضغط فرملتها بقوة لتتفادى الاصطدام بشاب اندفع بسيارته أمامها ليمر للحارة المرورية في أقصى اليسار. لعنته ولعنت قوانين المرور قبل أن تكمل طريقها. لم تكن قادرة على لعن شخص أو شيء حتى عملت في الجراحة، وعندها اكتسبت تلك القدرة الظريفة من وجهة نظرها.

وقفت في إشارة مرورية طويلة، ونظرت لنفسها في المرآة وأدخلت بعض خصلات الشعر الظاهرة إلى أسفل طرحتها. انتبهت للمرة الأولى لظهور بعض الخطوط الدقيقة حول عينيها وبين حاجبيها، ومصمصت شفتيها بتبرم دون أن تعلق. تجاوزت السادسة والثلاثين منذ أيام، ورفضت عريسًا أحضرته لها زوجة أحد أساتذتها، التي غضبت لرفضها وألقت تلميحًا سخيفًا عن أن هناك عمرًا معينًا ينبغي أن تتنازل فيه المرأة، كي تدرك ما تبقى من فرصها في الإنجاب.

عاد عمر إلى رأسها ثانية، وهي تتذكر كيف كان ينظر إليها؛ نظرات الرجال أنواع، وأي امرأة قادرة على أن تميز نوع النظرة بسهولة. لم تكن نظرة فجة ولا متغزلة ولا ناعمة مسبلة، بل كانت

نظرة تطل من القلب، تلك النظرة التي تشعر معها أن قلبه تحرك من صدره وجلس خلف عينيه لينظر إليها. كانت نظرة كتلك لم تشعر بها من قبل، كفيلة بأن ترمي في روحها الكثير من الابتسامات، وتقذف في بركة مشاعرها الراكدة حجارة ترج سطحها الساكن منذ زمن.

من فترة ليست بالبعيدة، تعرضت لحادثة على طريق مظلم لا تمر عليه الكثير من السيارات. طريق خلفي اعتادت أن تسلكه لتتجاوز الزحام، ومرت فترة حتى وجدوها وأخذوها للمستشفى فاقدة الوعي. استيقظت وهي في جهاز الأشعة المقطعية مرتدية ملابس المستشفى لا تعرف متى جاءت ولا أين هي. ظلت يومًا كاملاً كالممسوسة لا تستطيع الكلام بشكل طبيعي ولا التفكير بشكل سليم. كانت أول مرة لها تجرب أعراض ما بعد الارتجاج التي تشخصها لمريض كل أسبوع تقريبًا، أحست تلك المرة بها وصار التشخيص ذا معنى آخر في مخيلتها.

ظلت بعد ذلك الحادث تشعر أنه ينقصها شيء، وأن فجوة ما نشأت في روحها. كل يوم يمر عليها تشعر أن هناك شيئًا ينبغي أن تفعله ولا تعرف ما هو، ويتزايد الإحساس حين يأتي موعد النوم، فتقوم من فراشها عدة مرات تحاول فعل أي شيء عشوائي، تقلب في هاتفها بعد أن أغلقته، تدخل المطبخ تتأكد من أن الثلاجة تعمل، تطلب صديقة تسألها عن شيء ما وهكذا.

فسر زملاؤها الذين استشارتهم ما يحدث لها بأنها تعاني أعراض ما بعد الارتجاج، وأنها ستختفي مع الوقت. لم تفارقها تلك الأحاسيس إلا في الدقائق التي جلستها مع مريضها غريب الأطوار، ذلك المعجب بها

بلا سبب مقنع، والذي قد يكون قرر أن يتحمل ألمًا إضافيًّا في سبيل رؤيتها ثانية، وهو على وشك فراق الدنيا.

عُمَر في ذلك الوقت كان في غرفة الغيار، يقوم سامح بتنظيف جروحه بطريقته العنيفة المعتادة. لم يشعر بأي آلام أثناء تنظيف الناحية التي خدرتها زهرة. كان سامح كأنه أسعد منه بذلك، فقد مارس عمله بأريحية غير معتادة، قبل أن يعود لممارسته تحت وابل من الشكوى والصراخ حين انتقل لتنظيف الناحية الأخرى. نهرَ عمرَ وقال له إنه لا بد أن يتحمل لأنه لم يسمح للدكتورة زهرة بإكمال عملها.

لا شيء يزيل آلام الغيار مهما كان ذهنك مشغولاً أو كنت سعيدًا. حقيقة أدركها عمر في تلك اللحظة، حين بدأ سامح ينظف جروح ذراعه. مع ذلك كان إحساسه بالألم أقل أو بالأحرى إحساسه بالألم النفسي المصاحب للألم الجسدي. على خلاف ما يظن الكثيرون، فإن الألم النفسي لا يسبب ألمًا جسديًّا بقدر ما يتسبب ألم الجسد في إيذاء النفس وبعنف شديد إذا كان متكررًا. كل يوم يمزق الألم أثناء الغيار وتنظيف الجروح جزءًا من الروح، وقبل أن يلتئم يعود الألم في اليوم التالي ليجعل المزق أكبر وأسوأ.

اليوم فقط كان الرتق الذي وضعته هذه الزيارة القصيرة كافيًا لشفاء روحه، وحمايتها من آثار الآلام، وكان كل ما يشعر به هو الألم الجسدي فقط. انتهى الغيار وسمح له الطبيب بالجلوس على كرسيه قليلاً خارج غرفة العناية المركزة. رأى الطفلين يلعبان ثانية في الممر. نادى عليهما فتسابقا إليه بقدر ما تسمح حالتهما... ضحك من منظرهما، وهو يقول لنفسه إنه لا الحرق ولا الحرب ولا أي شيء في الكون قادر على اغتيال الطفولة.

قال لهما: "هسأل كل واحد فيكم سؤال واللي يجاوب ليه هدية"، رد عليه الطفل الأصغر قائلاً إن هديته لن تزيد على قطعة حلوى كالعادة. ضحك ملء فيه، وقال هذه المرة مختلفة، ثم قال إنه سيقص حكاية عليهم، ثم يسألهم عن أحداثها. قال أكبرهما: "فكك يا عم عمر واسأل علطول".

ضحك ثانية، لكنه أصر أن يحضرا كرسيين ويجلسا، ومضى يقص عليهم حكاية من حكايات جدته عن سليسلة الجميلة التي اضطهدتها زوجة أبيها، وخطفت عريسها لتزوجه لابنتها، وكيف أنها استعانت بالغولة لتساعدها. قال الصغير إنه سمع حكاية مثلها في قناة الأطفال غير أن البنت كان اسمها سندريلا.

قال عمر إن قصته مصرية خالصة، فلا أحد ينادي على الغولة ويقول لها: "يا أمنا الغولة"! إلا أبطال الحواديت المصرية، وأن التشابه بين الحكايتين سببه الصورة الموروثة عن زوجة الأب في كل الثقافات. لم يفهم الطفلان شيئًا، فعاد يكمل الحكاية ثم سألهما وأجابا. نادى على العاملة وطلب منها أن تحضر كيسًا بجوار فراشه.

أخرج من الكيس لعبتين، وأعطى كل واحد لعبة. كان جهازًا شبيهًا بالهاتف اللوحي محاطًا بغلاف مقوى للحماية. انصرف الطفلان في سعادة غامرة بعد أن طلب منهما أن يدعُوَا الله لعمهما عمر. سأله سامح الذي كان واقفًا يراقب الموقف عن سعر هذه الأجهزة، واندهش من السعر المرتفع.

قص عليه عمر حكاية هذه الأجهزة، فقد سأل دكتورة هند يومًا عن طريقة لتخفيف الألم عن هؤلاء الأطفال، فقالت إنهم في بعض

المستشفيات في الغرب يعطون لهم أجهزة شبيهة بالهواتف اللوحية، يمسكها الطفل أثناء الغيار وتقلل انتباهه للألم. طلب منها أن تسأل له عن طريقة لشراء هذين الجهازين، وفي النهاية حصل عليهما بمساعدتها.

"على كده السباكة بتكسب كتير"! سأله سامح مازحًا، فرد بالإيجاب وقال إن لديه مبلغًا لا بأس به في البنك، وأن أيامه معدودة، ولن يبقى له إلا دعوة من قلب نقي كقلوب هؤلاء الأطفال. طلب منه سامح العودة إلى فراشه، وأن يكف عن هذا اليأس. أخبره أيضًا أن هناك خبيرًا أجنبيًّا سيحضر مؤتمرًا طبيًّا في القاهرة، وقد يجيب دعوة رئيس القسم ويناظر بعض الحالات، ومنها حالته، طالبًا منه ألا يفقد الأمل.

١٨

قضمت نصف ثمرة مرة واحدة بعد أن اطمأننت أنها حلوة الطعم قريبة من الكمثرى. كان الأكل هذه المرة له مذاق يشبه أكل المآتم في بلدتنا، تأكله لأنك جائع جدًّا ومجهد طوال اليوم، يدغدغ حواسك طعمه اللذيذ، لكنك تشعر بالذنب؛ لأن ثمة ميت ينبغي أن يمنعك حزنك عليه من التلذذ بالطعام. أحيانًا كنت أتناسى الإحساس بالذنب، وأتركني أستمتع بالطعام؛ لأنني أكاد أقسم أن النساء في بلدتنا كن يبدعن في طهو الطعام في المآتم.

أكلت شادية ثمرة واحدة بالكاد، وترقرقت الدموع في عينيها وهي تسقط بقايا الثمرة من يدها وتتمتم بكلام لم أفهمه. كان الليل قد حل علينا، ولم يكن بوسعنا بعد يوم كهذا أن نتحرك في أي اتجاه، وكان قمر من القمرين غائبًا عن السماء، ونحن نجلس على العشب قريبًا من ضفة النهر. مات رجلان في سبيل تحريرنا، ولا أعتقد أن أحدًا كان سيخاطر من أجلنا لو كنا مختطفين على الأرض.

قلت لها إننا سنتجاوز تلك المحنة، وأن الرجلين اللذين ضحيا بحياتهما ماتا في سبيل غاية يؤمنان بها، وليس لنا ذنب في ذلك، فلا

نحن اخترنا أن نختطف، ولا طلبنا مساعدة. فرَدَتْ ظهرها على العشب، وهي تسألني كيف عرفت أنها تشعر بالذنب تجاههما، قلت إنني أشعر بالذنب، وافترضت أنها كذلك أيضًا، وقلت هذا الكلام لأعزي نفسي قبل أن أعزيها.

طلبت مني أن أتكلم عن شيء آخر، أن أتخيل أننا غريبان التقيا بالصدفة على جزيرة سياحية، وأن أفكر في موضوع أكلمها فيه. ضحكت وأنا أقول إنني آخر رجل في العالم يمكنه أن يفتح موضوعًا للحديث مع امرأة، حاولت مرات قليلة جدًّا في صغري وفشلت فشلاً ذريعًا. "إيه رأيك تكلميني انتي عن نفسك شوية"! قلت لها وأنا أفرد ظهري على العشب بدوري، فصمتت قليلاً كأنها تفكر، ثم قالت إن حياتها لا يوجد فيها ما يستحق الكلام عنه.

أصابني الضيق وأنا أشعر أنها –وبعد كل ما مر بنا– لا تزال تعاملني كغريب عنها. أعلم أن عشرة أيام أو عشرين يومًا حتى ليست كافية لنصير صديقين أو قريبين من بعضنا، لكننا وحيدين في عالم آخر، وربما سنظل هكذا إلى الأبد، فمتى ستنتفي الغربة بيننا. نفضت تلك الأفكار عن رأسي سريعًا، وأنا أعود لرشدي وأتذكر أن حظي مع النساء لم يكن جيدًا أبدًا، وأنه لو كتبت لنا النجاة فلن أراها ثانية.

صمتت ولم تتكلم لفترة، ظننت أنها نامت وحاولت أن أنام لكنني سمعتها تتنهد بصوت عالٍ. هممت أن أسألها عن سبب أرقها، لكن السؤال بدا ساذجًا، فلم أطرحه لخوفي أن ترد باقتضاب أو بتهكم. كانت مستلقية على بُعد ثلاثة أمتار مني، تقلبت يمينًا ويسارًا عدة مرات، ثم قامت تتجه نحو الأشجار، سألتها إلى أين، فردت بتهكم أنه لا يصح هذا السؤال بعد عشرة أيام نقضيها في الخلاء.

غابت قليلاً ثم عادت، واستلقت إلى جواري، ونظرت في عيني واعتذرت عن ردها. قالت إنها لا تحب الحديث عن نفسها وحياتها، وأنها قالت لي ما يكفي، ثم أضافت: "لما حكيت لك عن قصة حب قديمة، كانت مجرد لحظة ضعف"! سألتها هل تقصد بالضعف أنها قصت حكايتها عليَّ أم تقصد قصة الحب نفسها؟ فأجابت وهي تقترب مني أكثر "الاتنين ضعف".

فكرت أنها اقتربت مني تمامًا للحد الذي يمكن أن ننام فيه متلامسين، وأنني لو فردت ذراعي جواري الآن فسوف تتوسده هي. أخذت هي ذراعي ووضعته تحت رأسها وسألتني إذا كنت أستطيع النوم هكذا، فأجبتها بالموافقة. أغمضت عينيها ثم قالت إنها تريد أن تطلب مني شيئًا وتتمنى أن أوافق؛ تريد أن أنسى أنها امرأة وأنني رجل، تريد أن نتعامل كشخصين في أزمة يتوكأ أحدهما على الآخر دون أي اعتبار لمشاعر أخرى. كانت تريد أن تنام ملتصقة بي لتطمئن فقط وتريدني ألا أفكر بطريقة أخرى.

قالت دون أن تفتح عينيها، أنها مثلي علاقتها بالجنس الآخر متوترة، وأن ذلك سبب الكثير من المواقف والردود السلبية بيننا، وأنها تريد –إن طال بنا الوقت هنا– أن نتناسى أننا من جنسين مختلفين، وأنها منعت نفسها كثيرًا من البكاء على صدري في لحظات كانت أقرب فيها للانهيار؛ لأنها خافت من تبعات ذلك على أفكاري الذكورية.

وضعت يدي على وجهها ورفعت جفنها العلوي بإبهامي وأنا مبتسم، وقلت لها إنني حين قبلت جبينها كانت نيتي كذلك فعلاً؛ لأنها أنقذتني من لحظة انهيار، وأنني منذ اللحظة التي بكت فيها على صدري

بعد أن أغرقني السيل، وأنا أعاملها كإنسان يشاركني محنة لا كامرأة. اتسعت ابتسامتها واقتربت مني أكثر حتى صارت تنام فعليًّا في حضني كطفلة صغيرة. وضعت ذراعي على ظهرها، وتركت نفسي أغفو حتى أيقظني ضوء الشمس المصفرة.

كان اليوم التالي أفضل كثيرًا... جو صحو وعلاقة هادئة والأكل أيضًا كان أفضل، رغم أننا لم نأكل لحمًا لعدم وجود النار. حاولنا الوصول إلى مكان النفق دون أن نتناقش عن ماهية القرار الذي سنتخذه، هل ندخل الملجأ أم نبقى في الخارج؟ كلانا صار أكثر ميلاً إلى فكرة الاستسلام، وأننا من الممكن أن نقضي عامًا كاملاً نفتش عن وسيلة الخروج من الجزيرة دون جدوى، فما المشكلة إن قضينا ثلاثة في مكان نظيف. ثم لو أننا غادرناها إلى أين سنذهب؛ نحن هنا أو هناك أسرى وسينهون تجاربهم علينا شئنا أم أبينا.

نمنا كما في الليلة السابقة ملتصقين ببعضنا، وكأنها صارت عادتنا، وكاليوم السابق أيضًا استيقظنا وكل منا ظهره للآخر. وصلنا قرب الظهر للجدول الذي شربنا منه أول يوم، أو هكذا ظننا، ولأنه ضحل عبرناه بالقرب من منبعه من النهر. مشينا من بعده مسافة قصيرة على الضفة، ثم دخلنا بين الأشجار في المكان الذي يفترض أن نجد فيه مدخل النفق، لكنه كان قد اختفى.

ظللنا ندور ونمسح المكان جيئة وذهابًا إلى أن تعبنا ويئسنا من إيجاده. أخذنا نتبادل الأفكار ساعتها، وهل هناك جزء جديد من التجربة يتضمن تعمية مدخل النفق علينا أم أننا ببساطة تهنا عن المكان؟ فكلانا لا خبرة له بالمشي في الغابات. جلسنا نستريح قليلاً وبدأنا في

تناول بعض الثمار، قبل أن يصك آذاننا صوت العواء الغريب الذي سمعناه في أول أيامنا هنا.

كان الصوت يقترب علينا، وكأن ما يعوي كان يجري في اتجاهنا. تركنا الثمار على الأرض وعدونا سريعًا في اتجاه النهر. لمحنا الذئاب تجري خلفنا لكن ببطء كالمرة السابقة، فكرت أن نصعد على أقرب شجرة، لكني لم أجد واحدة مناسبة، كلها ملساء من أسفل بلا غصون. استمرينا بالجري حتى وصلنا ضفة النهر، فسألتُ شادية إن كانت تريد أن نقفز في الماء، فطلبت مني الانتظار حتى نرى ما ستفعله الذئاب.

خرجت الذئاب من بين الأشجار تمشي بهدوء، كانت تشكل مجموعة من سبعة أو ثمانية، وكانت تزمجر وتكشر عن أنيابها وهي تقترب. تراجعنا بهدوء وكأننا نظن أننا نتجنب استفزازها حتى خضنا في الماء، استمرت الذئاب في الاقتراب ونحن في التراجع إلى أن وقفت حين وصل الماء إلى بطونها ووصل إلى أكتافنا تقريبًا.

ظل الموقف ساكنًا، وكأن هناك من يأمر الذئاب بمحاصرتنا دون الهجوم علينا. لم يكن عندي شك في تلك اللحظة في أنها ذئاب مدربة، ومع ذلك لم أجرؤ على الاقتراب منها أو التوقف حين تطاردنا. مشينا بمحاذاة الضفة مع تيار النهر والذئاب معنا لا هي تتقدم نحونا ولا هي تتركنا وتذهب لحال سبيلها. مرت دقائق على هذا الوضع قبل أن تقرر الذئاب التراجع والجلوس بين الأشجار في انتظارنا.

كانت الذئاب تراقبنا؛ نحاول الاقتراب من الضفة، فتقوم وتهم بالتحرك نحونا. نمشي بمحاذاة الضفة فتمشي معنا لتحافظ على وضعها بالنسبة إلينا طوال الوقت. فجأة صرخت شادية وقفزت في الماء عدة

مرات، حولت نظري من الذئاب لها متسائلاً، ولكن الإجابة جاءتني على هيئة عضات متتالية في ساقي.

قفزت بدوري ثم رميت بجسدي على الماء وجذبت شادية من يدها لتفعل المثل، قاومتني في البداية لكنها ما لبثت أن حاولت أن تطفو على الماء بدورها. لم تفلح المحاولة وشعرنا بالعضات في أجسادنا وسيقاننا، ثم شعرت بعضة في ذراعي فمددت يدي وأمسكت مهاجمي. كانت سحلية طولها شبر تقريبًا أشبه بالتمساح وأسنانها حادة كأنها أنياب قوية.

بحركة غريزية ودون اتفاق، خرج كلانا من الماء وجرينا بمحاذاة الضفة والذئاب خلفنا تطاردنا بهدوء، فكرت أن أقف وأستدير تجاهها لأنني بت واثقًا من أنها لن تؤذيني. طلبت مني شادية أن أتمهل في المواجهة، حتى نجد شيئًا نمسكه بيدينا، وندافع به عن أنفسنا على الأقل. اقتربنا من الأشجار والتقطت غصنًا سميكًا وأعطيته لها، ثم وجدت واحدًا آخر بعد قليل وعندها تبادلنا النظرات المشجعة واستدرنا في مواجهة الذئاب.

اقتربت الذئاب منا وكنا واقفين متصلبَيْن من الخوف، نهددها بالجذوع التي بأيدينا، نلوح بها في الهواء يمينًا ويسارًا. اقترب أكبر الذئاب منا مزمجرًا وكاشفًا شدقيه اللذين بدأ اللعاب يسيل منهما، وقالت عندها شادية وهي توشك على البكاء أن سيلان اللعاب هذا لا يدل أبدًا على أن هذا الذئب يتحرك لسبب إلا لغريزته.

اقتربتْ من الذئب وطوحتِ الجذع في وجهه، فتفاداه ثم قفز نحوها فقفزت هي للخلف وهي تصرخ وتتضرع له ألا يؤذيها وكأنه

يفهمها. في اللحظة التالية كانت أنيابه تطبق على فخذها، وصرخت هي بصوت عالٍ وصرخت أنا بغضب، وأنا أطلق سبابًا بذيئًا وأهوي على رأسه بالجذع بكل قوتي.

أفلت الذئب فخذها والتفت إليّ في الوقت الذي هم به ذئبان آخران بالتحرك، لكنه نظر إليهما مزمجرًا فتسمرًّا في مكانيهما. اقترب مني، فطوحت الجذع يمينًا ويسارًا لأخيفه، لكنه تحرك بسرعة مدهشة وأمسك الجذع بفكه. حاولت أن أجذبه منه دون جدوى، حتى جذبه هو بقوة، فخلعه من يدي بعد أن كاد يمزق ذراعي معه، ثم ألقاه بعيدًا واقترب مني وهو يزمجر واللعاب يسيل من شدقيه بغزارة.

١٩

كانت شادية تنتحب بصوت عالٍ من شدة الألم أو من حزنها عليّ، أو من كليهما، فقد كنت ممددًا على الأرض لا حول لي ولا قوة، والذئب فوقي يتشممني للمرة الأخيرة قبل أن يجهز عليّ. في تلك اللحظة تمنيت لو أنني فعلتها من أول يوم ودخلت الملجأ، فلا مبرر لكل ما فعلناه حتى الآن غير أننا سعينا بجدٍّ نحو وقت عسير من الألم والرعب والجوع والعطش وتسببنا بموت شخصين دون طائل.

لم أفعل كأبطال الأفلام وأصرخ فيه كي ينهي مهمته، وأنا فاتح عيني بتحدٍّ، ولم أنادِ على شادية لتغلق عينيها حتى لا تبصر مشهد موتي. كنت كتلة بشرية من الفزع والندم وجلد الذات، وأنا ألوم نفسي على أسوأ قرار خاطئ أخذته في حياتي بعد سلسلة من القرارات الكثيرة الخاطئة.

رفع الذئب رأسه وعوى، ثم فتح فمه واقترب مني ثم أحسست برعدة قوية تسري من جسده لجسدي، ووجدته يعوي في ألم ويرتمي على الأرض وهو يتلوى، وجسدي لا يزال يرتعد كأن تيارًا كهربائيًّا قويًّا سرى فيه. أحسست بألم في صدري وبالأنفاس تتلاحق فيه

بصعوبة... أحسست أني أعافر كي آخذ جرعة من الهواء لا تكفي لملء رئتي ثم أظلمت الدنيا.

أفقت على شادية وهي باركة فوقي ويداها مضمومتان معًا فوق منتصف صدري تضغطه بقوة بكل وزنها. كان وجهها غارقًا في الدموع وهي تفعل ما تفعله بنفاد صبر، وتتمتم بأدعية لم أفهمها. ما إن رأت عيني مفتوحة حتى أمسكت وجهي بقوة، وهي تحمد الله، ودموعها تنهمر بغزارة أكثر، ثم ضمتني بقوة واستمرت في البكاء.

كنت غير مستوعب لما يحدث، ونظرت حولي يمينًا ويسارًا، فوجدت الذئاب قد اختفت ما عدا الذئب الكبير الذي كان ممددًا بلا حراك. سألتها مستوضحًا فقالت إنها متأكدة أن تلك الذئاب مدربة فعلاً، لكن يبدو أننا قمنا باستفزاز ذلك الذئب الكبير بشدة، لدرجة جعلته يبتعد عن خطة مدربه، وينفذ خطة شخصية، وأن خاطفينا بالفعل حريصون على حياتنا، لدرجة أنهم قتلوا ذلك الذئب.

كان بنطالها مثقوبًا وسط فخذها، ومغطى بدماء جافة، سألتها بماذا تشعرين؟ فقالت إن الألم بدأ يعود ثانية، وأنها نسيته حين كانت تحاول إنعاشي. أخبرتني أنهم يعطون دورات تدريبية على الإنعاش في مستشفى خاص قريب منها، وأنها بدافع الفضول حضرت إحدى تلك الدورات. كدت أسألها هل قامت بقبلة الحياة التي نسمع عنها أم لا! ولكنني تراجعت حتى لا أضايقها فتنفر مني ثانية.

جلست وأنا أشعر ببعض الدوار، وزحفت بجسدي نحو أقرب شجرة، وهي تحاول مساعدتي. كانت شجرة ممتلئة الجذع تكفي لنستند عليها معًا، وتركت رأسي ترتاح على كتفها، فربتت عليَّ ثم لفت

ذراعها حولي وضمتني بحنو. سألتها ثانية عن إصابة فخذها، وماذا سنفعل في تضميدها، وفكرت معها هل سنحتاج إلى حقنة كتلك التي يعطونها لعلاج عضة الكلب.

لم تكن العضة الوحيدة على أي حال، فقد قضمتنا تلك السحالي الصغيرة عدة مرات، ومن العجيب أن أيًّا من الجروح التي حصلت عليها منذ جئنا هنا لم تلتهب، والتأمت سريعًا، رغم القذارة التي نعيش فيها، والماء الذي غطسنا فيه في النفق والنهر والبحر.

أوشك الليل أن يحل علينا، وكنا الآن إلى جوار جدول آخر. قمنا لنشرب ونجمع بعض الثمار ونحن نتحرك بصعوبة أنا وهي، وعندما اقتربنا من الجدول قالت بصوت عالٍ: "إحنا أغبيا أوي"! سألتها لماذا؟ فقالت إن هذا الجدول هو القريب من فتحة النفق، وليس الجدول الآخر، وإننا ينبغي أن نعبره ثم نمشي قليلاً في اتجاه جنوب شرقي. أطرقت رأسي مفكرًا ثم أدركت أنها قد تكون على صواب، فقلت لها سنعبر الجدول ونكمل بحثنا أول شيء عندما نستيقظ.

كنت جائعًا بشدة، وكنت أشعر بالقرف الشديد من كل الثمار، وأتمنى لو أصطاد شيئًا ونشويه، لكن أين لي بطريدة أو بنار. كنت أمرّ في هذه الجزيرة بكل المراحل التي يمر بها إنسان يجحد النعمة التي بين يديه، ويطلب الأفضل، ثم يتمنى ثانية لو بقيت تلك النعمة ولن يطلب غيرها. أشعر أن حياتي أوشكت على النهاية، فأتمنى فقط أن أنجو.. أشعر أنني نجوت فأتمنى أن آكل أي شيء، ثم أشعر بالقرف من ذلك الـ "أي شيء"، فأطلب أكلاً أفضل، ثم مأوى أفضل، ثم أطلب حريتي!

هل تأتي الحرية في المرتبة الأخيرة حقًّا أم أنها مجرد هلاوس! المساجين يصرخون من أجل الحرية أول الأمر، ثم بعد فترة من السجن ويأسهم من الحرية يصرخون فقط من أجل تحسين الأوضاع، ثم إذا ساءت تلك الأوضاع يتضرعون من أجل العودة إلى الأوضاع التي رفضوها من قبل. هل هذه هي حالنا على تلك الجزيرة؟ وهل هذا هو الغرض من تلك التجربة.. استكشاف قدرة الإنسان على التحمل والاستكانة على تقبل ما لا يُقْبَل إذا كان الثمن مجرد الأمن.

لا أعتقد أن الشاعر العربي الذي قال: "لا تسقني ماء الحياة بذلةٍ.. بل فاسقني بالعز كأس الحنظل"، سيقول نفس الكلام لو أنه مر بتجربة كتلك. فعلاً الكل شريف حتى تأتي العاهرة، والكل عزيز حتى يرى سوط الجلاد. سوف ننام الليلة ثم نقوم في الصباح لندخل ذلك النفق ونستريح من كل هذا العناء.

كان تفكيري بصوت عالٍ، وكنت أشرك شادية معي، وهي تستمع إليَّ ولا ترد ولا تناقشني. بعد أن جَمَعْنَا بعض الثمار، اقترحت عليَّ أن نحاول إشعال النار كما يفعل فتية الكشافة، باستخدام الأغصان الجافة. كانت تريد أن تستأنس بالنار أولاً، وأن تحاول أن تنضج عليها بعض الثمار، لعل طعمها يكون أفضل. قلت إنني لا أعرف هذه الطريقة، ولم أعجب يومًا بأنشطة الكشافة وهرائهم الساذج.

لوت شفتيها في عدم رضا، وقامت تحضر بعض الأغصان الجافة، لكنها تأوهت وهي تمسك فخذها المصاب، وتعاود الجلوس مرة أخرى، وعلى وجهها حبات من العرق البارد. ربت عليها وطلبت

منها أن تستريح، وقمت أنا فأحضرت لها بعض الأغصان الجافة. أمسكت واحدًا طوله شبران، وتأكدت من جفافه، ثم وضعته طرفه على الأرض بين أوراق جافة، وأغصان أصغر، وجعلت تديره بسرعة بين يديها، وانتظرت أن يتصاعد الدخان لكن دون جدوى.

ألقت الغصن من يدها في يأس، وهي تصرخ في غضب وأوشكت على البكاء. اقتربت منها وربت على رأسها الذي انحسرت عنه طرحتها إلى أعلى رقبتها. مسدت رأسها بيدي وضممتها عليَّ وأنا أعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وأننا أفلتنا من عدة مواقف عسيرة، وأوشكنا على الانتهاء. قالت إننا لم نفلت ولم نتغلب على أحد، نحن مجرد فئران في متاهة نمشي في الطرق المفتوحة أمامنا.

"ما تقوليش كده"! قلتها بحزم، وأنا أقول إننا اخترنا الطريق الصعب كل مرة، وإننا تحديناهم، وأنه يمكن فعلاً أن نعتبر فئرانًا لو قبلنا بالسهل من البداية. كان ردي عليها ردًّا على نفسي بالأساس، وعلى جلدي لذاتي، واعتبار أن قراري من البداية كان خاطئًا. نحن في الجزيرة كما نحن في الحياة، أسرى لخيارات كثيرة ندور في متاهة، نسلك الطرق المفتوحة أحيانًا ونقفز فوق الحواجز أحيانًا، كل منا قدر طاقته وحسب ظروفه.

كنت في تلك اللحظة أتساءل عن الحكمة وراء اختيارنا نحن بالذات، وهل كانت صدفة؟ هل يختارون الأرضيين بعشوائية؟ وإن كان الحال هكذا، فلماذا ابتلانا الله دون عشرين مليونًا غيرنا يعيشون في نفس المدينة. وجود الذئاب أو السيل أحيانًا يكون نعمة؛ لأنه لا يعطينا وقتًا للتساؤل، ويكون همنا فقط هو محاولة الحياة.

هممت بالقيام ثانية، لكنها حاولت أن تستبقيني فقلت لها إنني سأعود سريعًا. أحضرت لها بعض الأغصان الأخرى الأقسى والأكثر جفافًا من السابق، وطلبت منها أن تحاول ثانية. أخذت إحداها، وظلت تفركه بين يديها بسرعة، ثم توقفت وكأنها تتذكر شيئًا. ثم عاودت فرك العود ثانية، ولكنها غيرت طريقة دورانه عن المعتاد، حتى تصاعد الدخان واشتعلت النار، ونحن ننفخ في الأغصان حتى تشتعل النار أكثر ووجوهنا تكاد تتلامس.

شوينا بعض الثمار، وكان طعمها أفضل قليلاً منها نيئة. أمسكت غصنًا كبيرًا في يدي، وقلت لها سوف أبحث لنا عن طريدة نشويها، فقالت: "والنبي تقعد واحمد ربنا بقى". ضحكت ووعدتها ألا أبتعد، مشيت بين الأشجار قليلاً أحاول إيجاد أي حيوان صغير أو طائر على أحد الأغصان. سمعت صوت خرفشة خلف إحدى الأشجار، فوجدت حيوانًا جاثيًا على الأرض يحفر. كان يشبه تلك الجرذان الضخمة التي هاجمت شادية في أول يوم، نظر نحوي ولمعت عيناه في الظلام، فارتبكت للحظة وفكرت بالتراجع.

رأيت أربعة عيون أخرى تلمع في الظلام وتنظر نحوي، لكنها تعود لحيوانين أصغر كثيرًا، وبدا واضحًا أن المجموعة أم وطفلاها. قفزت الأم عليَّ فجأة وخمشت ساقي، ثم تراجعت وهمت بالقفز نحوي ثانية، فتراجعت للخلف وقد صعب عليَّ أن أضربها. حين رأت الأم تراجعي استدارت وولت الفرار مع طفليها. تفحصت الأرض حيث كانت تحفر، فوجدت ثلاثة من الأرانب الصغيرة، أمسكتُ بها وعدت إلى شادية، وأنا أمنّي نفسي بعشاء دسم.

٢٠

كان موعدها في الرابعة عصرًا، رجا عمر أطباءه أن يبكروا بموعد الغيار على جروحه؛ ليكون جاهزًا للقائها. أرسل في شراء زجاجة عطر غالية، ورش منها القليل على الأربطة التي تغطيه، وعلى ما انكشف من جسده. طلب من حلاق المستشفى تصفيف شعره جيدًا، وحلاقة ذقنه وتعطيرها، ولم ينسَ إعطاءه بقشيشًا سخيًّا، أعطى العاملة بقشيشًا آخر، وطلب منها أن تنظف الغرفة، وتحضر مفارش جديدة، وكأنه يجهز بيته لاستقبالها.

كان متحمسًا مبتهجًا، وكأنه نسي تمامًا ما يحيط به، ونسي الحروق والآلام. جلس في الجاكوزي راضيًا لأول مرة منذ أن دخل المستشفى، ولم يشتكِ أثناء الغيار وتحمله ببساطة، ولحسن الحظ كانت طبيبته الرقيقة هند هي من قامت بالغيار اليوم. في الثالثة تمامًا وقبل مجيئها بساعة، وجد الممرضة بيدها كيس دم، وتهم بوضعه على حامل عبوات المحاليل وتوصيله برقبته.

طلب منها تأجيله، وأن ترجعه الآن ثم تعود لتعليقه لاحقًا فرفضت. اعترض ورفع صوته، وقال إنها لو علقته في رقبته فسوف ينزعه ويتركه

يسيل على الأرض. كان خائفًا أن يرفع الدم درجة حرارته كالمعتاد، وتتملك الحمى من جسده وعقله، فلا يتمكن من الحديث معها. جاءته هند وسألته عن سبب رفضه، فقال إن دكتورة زهرة سوف تأتي بعد ساعة لتحقنه بدواء يخدر الألم، ويخشى إن ارتفعت حرارته من الدم أن يتم تأجيل الحقن ليوم آخر. لم تعترض هند على طلبه، وأمرت الممرضة بحفظ الكيس في بنك الدم حتى تنتهي زيارة الدكتورة زهرة.

صباح أمسِ سأله رئيس القسم عن تكلفة الأجهزة اللوحية اللي أحضرها للطفلين، وحين أخبره بسعرها أخذ الرجل يلومه ويتهمه بالسفه، وأنه كان يمكن أن يشتري بهذه الأموال أدوية أو يساعد في شراء مستلزمات لغرف العمليات، وحذره من أن يشتري شيئًا ثانية دون الرجوع إليه. سأله بعدها عن الذي أشار عليه بذلك من الأطباء، ولأنه أحس من لهجته بأنه سوف يوجه اللوم للمتسبب، قال له إن أولاد الحلال دلوه. قبل أن يتركه، خفف لهجته في الحديث ووعده الرجل أن الخبير الأجنبي سوف يمر بعد عدة أيام وسوف يفحص حالته.

مضت الساعة الباقية بطيئة للغاية، وهو يفكر في لحظة لقائه، وهل ستقابله مجرد مقابلة طبية لمريضها أم أن شيئًا تحرك داخلها تجاهه بعد المرة السابقة! لقد رأى ارتباكها حين لمس يدها بأطراف أصابعه، ورأى حرجها واستسلامها لرجائه حين طلب منها أن تقرأ ما كتبه في روايته. هل قرأتها فعلاً أم أخذتها لمجرد التخلص من إلحاحه؟

أخذ يدعو في سره ألا يأتي مريض من الطوارئ الآن ويزاحمه الغرفة في اللحظة الأخيرة أو تسوء حالة أحد المرضى في العنابر، فينقلوه معه في غرفة العناية المركزة. شعر أن التكييف قوي عن المعتاد، فنادى

العاملة لتهدئه قليلاً، فسألته متعجبة عن السبب، فهو يحب التكييف باردًا جدًّا، لم يرد ولم يقل لها إنه يعرف أن زهرة لا تحب التكييف باردًا. تعدت الرابعة ولم تحضر بعد، مرت خمس دقائق ثم صارت عشرة، وأحس أن أنفاسه تتسارع وقلبه... قلبه ينبض بسرعة شديدة بالفعل، بسبب مرضه، ولن يتحمل أن يخفق أسرع ولو لثانية واحدة.

أخيرًا طلت عليه من باب الغرفة.. أميرة من كتب الحكايات ترتدي فستانًا طويلاً، مبهج اللون يغطي حتى كعبها وأسفله، ترتدي قميصًا ضيقًا يداري ذراعيها، وتلبس طرحة وردية وحذاءً أسود ذا كعب قصير. كانت مبتسمة تلك الابتسامة المشرقة التي تترك في النفس مذاق ماء القلة البارد في يوم قيظ. بشرتها خمرية تذيب العقل، كما تفعل الخمر المعتقة، وعيناها بنيتان واسعتان، تعطي الإحساس بالراحة، مثل ما يعتريك حين تنهي صلاة خاشعة في ليلة صموت.

مدت يدها تسلم عليه ببساطة، وتسأله هل هو مستعد؟ قال نعم، ولكن عليها أن تنتظر الدكتورة هند لتحضر معها الحقن. قالت إنها لا تحتاج إلى وجودها، فألح وتحجج بأنه سيكون أكثر اطمئنانًا في وجودها. اندهشت من طلبه، ولكنها استشفت السبب حين قال لها إن هندَ في العمليات، وستتأخر نصف ساعة. ابتسمت بجبور، وقالت إنها ستضحي بنصف ساعة من وقتها من أجله فقط؛ لأنه إنسان طيب، ولأنها أعجبت بالجزء الذي قرأته في قصته.

"بتحبي النسكافيه المتجهز يدوي.... صح"؟ اندهشت كيف عرف، فقال لها إن قريبه عرف من سكرتيرتها. لم تقنعها إجابته وزادتها حيرة، لكنها لم تعلق، وقالت له إنها ستشربه في البيت بعد أن تنتهي. سألته عن مفعول

علاجها السابق، فشكرها ودعا الله لها بالراحة والسعادة كعادة المرضى. فوجئت بكوب النسكافيه، أحضرته لها العاملة وطاولة صغيرة. قال لها إنه في القسم هنا يتصرف كالمساجين الأغنياء، الذين يجندون السجانين والمساجين لفعل ما يريد، غير أنه يدفع بقشيشًا بسيطًا للعمال فقط، أما أهالي المرضى الآخرين فيخدمونه دون سبب، ودون انتظار شكر.

"مصر فيها حاجة حلوة برضه مهما كان"! قالتها وهي ترتشف النسكافيه ببطء، فأجابها إن عطف البشر على مريض وحيد في حالته لا يستلزم أن تكون مصريًّا أو هنديًّا، إنما يتطلب فقط أن تكون إنسانًا، وأن الشفقة والرحمة بين البشر ليستا قاصرتين على جنس بعينه. قص عليها حكايات من مخزونه عن أناس فعلوا الكثير من أجل غرباء في محنة، دون سبب غير الإنسانية المحضة.

كان يتكلم ويتأمل وجهها، والكحل الذي استقر على حافة أجفانها، واللون الأحمر الهادئ الذي وضعته على خديها وشفتيها، وتذكر أنها في المرة السابقة لم تكن تضع أي مساحيق للتجميل. أصابها الخجل من نظرته، فاستأذنت منه، وقالت إنها ستعود بعد قليل. دخلت مكتب الأطباء ودخلت إلى الحمام بداخله، وأغلقته ووقفت أمام المرآة، وهي تلتقط أنفاسها المتلاحقة. ما الذي يحدث لها؟ ولماذا تأنقت وهي قادمة إليه؟ ولماذا تكاد أن تطير من الفرح؛ لأنه التهم وجهها بعينيه؟ لماذا تشعر كمراهقة وتتصرف كفتاة تدخل بقدميها لفخ مشاعر مجهولة وهي مستسلمة تمامًا؟

قرأت صفحات معدودة من قصته، وشعرت أنه متحامل على النساء، وأن بطل روايته يأخذ موقفًا حادًّا تجاههن، ويبدو لها أنه ظل

من روح كاتب القصة مسيطر على أفكار البطل. ما تراه منه الآن مختلف تمامًا... إنه يمر بأسوأ وأفظع تجربة قد يمر بها إنسان، وهي تلك الإصابة المرعبة التي يعاني منها، ومع ذلك يرتب مع العاملة التي تنظف غرفته لتعد لها كوب نسكافيه بالطريقة التي تحبها. من هذا الرجل؟ ولماذا يفعل ذلك؟ لقد رتب الغرفة وسريره، وكانت رائحة العطر الذي خمنت أنه أصلي تفوح منه كأنه يستعد للقاء حبيبته.

قررت أن تنتظر في المكتب حتى تعود هند.. جلست على الأريكة المغطاة بالجلد على يمين المكتب، وأخذت تطقطق أصابعها بعصبية، ثم قامت بعد أن أخذت نفسًا عميقًا، وتوجهت إلى غرفته ثانية. جلست جواره وأخذت رشفة من النسكافيه، وهي تسأله عن سبب حروقه للمرة الثانية. قال لها، إنه ليس من المهم كيف أُصِيب بها، المهم كيف سيعالج منها، وأنه فاقد للأمل في الشفاء، ولم يعد يهتم كثيرًا بالسؤال عن كيف ومتى.

انقبض صدرها من كلامه، وقالت له إن اليأس ليس مطلوبًا في حالته، وأنها سألت عن فرصه في النجاة، وقيل لها إنها معقولة جدًّا. ضحك وقال لها –ووجهه يطفح بالسعادة– متى سَأَلَت عن حالته وفرص نجاته؟ ردت قائلة، أنه من الطبيعي حين تعالج مريضًا مثله أن تعرف كل شيء عن حالته. كادت ابتسامته أن تنطفئ حين وصفته بطريقة عملية هكذا، قبل أن تضيف: "وبعدين انت مريض مهم.. كاتب وقراءك محتاجينك". ضحك لكلماتها، وقال إن قراءه يعدون على الأصابع وأنه تشرف كثيرًا بأنها صارت منهم.

سألته عن قصته وعن خياله الواسع، فقال إنها حقيقية وإنها تحكي عن السبب الذي وضعه في الفراش هنا. سألته عن بطلة قصته، ولماذا

هو متحامل عليها هكذا، ومتحامل على النساء عمومًا؟ وكيف له وهو ينظر إلى النساء تلك النظرة يطلب امرأة لتكون طبيبته وتجري له إجراءً دقيقًا وخطرًا كالذي تقوم له به؟

ناقشها وأجاب عن أسئلتها وأثار إعجابها بثقافته وأسلوبه في الحديث. سألته لماذا اختار أن يكون حِرَفيًّا ولم يحاول أن يستغل شهادته في البحث عن وظيفة؟ قال لها إن سؤالاً كهذا لا مجال له في بلد كمصر، وأن الشهادة هذه الأيام مجرد ديكور وواجهة اجتماعية، تسمح له بالتقدم لخطبة امرأة حاصلة على شهادة جامعية دون حرج.

قال إنه حاول السفر والعمل في الخليج، ولكنه تعرض لنصب وأضاع مبلغًا كبيرًا من المال على وهم، وعندما عاد قرر التغلب على ظروفه، واستطاع في وقت وجيز أن يكون له محل صغير للأدوات الصحية، يدر عليه دخلاً معقولاً، ويجلب له زبائن جددًا يطلبون منه أعمال السباكة، إضافة إلى شراء مستلزماتها منه. قال إنه وسط كل هذا لم يترك الكتابة، بل إنه أنفق عليها من دخل عمله الحرفي.

دخلت عليهما هند ورحبت بزهرة بحرارة، واعتذرت كثيرًا عن تأخرها، وقالت إنها شكرت عمر لأنه عرفها عليها، ولأنها الآن عرفت طريقة جديدة لعلاج الألم، لم تكن تعرف عنها الكثير. في دقيقة واحدة كان كل شيء معدًّا، وزهرة تقوم بعملها، دهنت ضهره بالبيتادين، وحقنت مخدرًا موضعيًّا، ثم أدخلت إبرتها السميكة، وطلبت منها أن يخبرها إذا أحس بكهرباء تسري في ساقه، وعندها حقنت الخليط المعد بعناية لتسكين آلامه.

اختفت الآلام من فخذه وساقه الأخرى، وبقي الذراعان. كانت ستخدر أعصابها من خلال جذر عنقه من فوق ترقوته، وكانت تحتاج من أجل إتمام تلك المهمة لجهاز موجات فوق صوتية. ارتبكت هند، وقالت إنها ستبحث لها عن واحد وتحضره على الفور، فقال عمر إننا يمكن أن نؤجلها لمرة قادمة. رفضت هند وقالت إنها ستحضر جهازًا بأي شكل، وأنها متحمسة لمشاهدة هذا الإجراء.

تركتهما وانصرفت مسرعة، ظلا صامتين للحظات، ثم بادر عمر قائلاً إن هناك خبيرًا أجنبيًّا سيكون في مصر الأسبوع القادم، وقد يزوره ويبدي الرأي في حالته. ابتهجت زهرة لسماع ذلك وقالت إنه سيجد حلاً جيدًا لحالته وإنها متفائلة. سألها عن عملها، وتطرق بحذر للسؤال عن حياتها، عمَّن ينتظرونها بالبيت حين تعود، لكنه أحس أنها ترد باقتضاب، فحوَّل مجرى الحديث وقال إنه سينتظر زيارتها القادمة بفارغ الصبر، حتى تقول له رأيها حين تكمل قراءة الرواية.

قالت إنها قد لا تأتي له قريبًا، فمهمتها ستنتهي بعد حقن أعصاب ذراعيه. طلب منها أن تؤجلها إذًا، فرفضت وقالت إن الموضوع لا يستحق التأجيل. أحس بانقباض في صدره، ثم سألها ألا يمكن أن تزوره كونه مريضًا زيارة لوجه الله. عندها عبست وقالت له: "أستاذ عمر! أعتقد إنه مليش دور تاني في علاج حالتك ومفيش مبرر للزيارة".

انحبس بقية الكلام في حلقه وأحس بالعبرة تخنقه، ولم يتكلم ثانية. مضت دقائق معدودة كانت طويلة كالدهر، حتى عادت هند بخفي حنين، وقالت إنها لم تجد الجهاز، وطلبت من زهرة المجيء في يوم آخر يوافق نوبتها لتشاهد ما تفعله. سألتها إن كانت تقبل أن تضاف مشرفةً

على رسالتها للماجستير؛ لأنها تنوي أن تقترح على أساتذتها أن تحضر رسالتها في علاج مرضى الحروق بهذه الطريقة. رحبت بالاقتراح وأبدت استعدادها وسعادتها بتعليمها.

استأذنت هند لتكمل عملها، وتركت زهرة تشرح لمريضها ما ستفعله في المرة القادمة. قالت لعمر إنها سوف تأتي إليه بعد يومين لتكمل علاجه، وستكون تلك هي المرة الأخيرة. شكرها ثم قال والدموع تنحدر رغمًا عنه: "أنا آسف إذا كنت اتكلمت بعشم زيادة". انفطر قلبها حين رأت دموعه، وكادت الدموع تتألق في عينيها، وهي تؤنب نفسها على طريقتها الجافة في الرد عليه. "أنا اللي آسفة! ما قصدتش أضايقك"، قالتها وهي تمسك يده وتسلم عليه وتعده بأنها ستتابع حالته حتى بعد أن تنهي الحقن في المرة القادمة.

٢١

ثلاث سنوات كانت هي الثمن الذي سندفعه إذا اخترنا أمان الملجأ على العيش في تيه تلك الجزيرة. لم يوضح لنا مصدر معلوماتنا –شهيد العدالة– ماذا سيحدث بعد أن ننهي فترة الحبس تلك، بل جعلني في شك من أن رقم ثلاث سنوات هذا هو مجرد جزء من التجربة. قد يكون المطلوب هو دراسة كيفية وصولنا لاختيار، وعندما ندوس الزر سيضيء مصباحًا هنا أو هناك، وسنسمع صوت مذياع يقول لنا: "انتهى الجزء الأول من التجربة، وحان الوقت لجزء آخر".

استيقظت من النوم قبل شادية، وكانت لا تزال نائمة في حضني على غير العادة. كان شعرها الناعم الكثيف يغطي وجهها وينساب على كتفها، ثم يمتد إلى صدري كجسر يصل بيننا. لم أتخيل قبل تلك الجزيرة أنني سأنام، وهناك إنسان أيًّا من كان يحتل تلك المساحة من جسدي ويرمي ثقل رأسه على ذراعي. شادية فعلت ذلك أو الجزيرة أو التجربة نفسها، وفتحت بابًا في روحي سمح لجسدي أن يتقبل أن أنام وهناك شخص ملتصق بي.

أزحت الشعر عن وجهها، ففتحت عينيها وقالت: "صباح الخير" برقة لم أعهدها منها. تأملت وجهها وسرحت قليلاً في الصدفة أو الخطة

التي وضعتنا الآن بهذا القرب، وابتسمت هي حين لاحظت تأملي لها، فسألتني بخجل عن السبب. لم أكن أعرف ما السبب، فغيرت الموضوع وسألتها عن إصابة فخذها، فقالت إنها تشعر بأنها على ما يرام.

كانت خطتنا أن نعبر الجدول القريب ونفتش عن باب النفق، وننزله ونضغط الزر مباشرة، لن نفعل شيئًا في الطريق. حين اقترحت أن نفطر أولاً نهرتني بطريقتها المعتادة، وقالت إن همي على بطني، وإن الملجأ مجهز بأطعمة ستكون في الغالب أفضل من تلك الثمار.

سألتني عمَّا إذا كنت واثقًا من هذا القرار، فقلت لها إنني لا أرى أي فائدة من العناد، وأنني أظن أن موضوع السنوات الثلاث هذا هو مجرد جزء من التجربة، لجعل الاختيار صعبًا أو لاستفزاز قدرتنا على التحدي. أمَّنت على كلامي، وقالت إنها هي الأخرى ترى ذلك، وترى أيضًا أننا لم نستسلم بسهولة، لكن سيكون من الحمق الاستمرار في معركة لا طائل من ورائها. ما يثير استفهامها هو لماذا أتوا بها إذا كان المطلوب للتجربة ذكورًا من الأرض؟ فلماذا جلبوها معه! قلت لها مازحًا إنهم يريدون أن يقيموا قدرتي على التحمل في وجود مصدر للنكد الأنثوي بالتأكيد.

خبطتني بكفها، وهي تضحك بدلال لأول مرة منذ التقينا. حتى لحظات الهدوء السابقة لم تكن بمثل هذا الصفاء، ويبدو أن شرنقتينا قد بدأتا في التفتت، والسماح لنا بالاقتراب أكثر. كنت أشعر من أول يوم أن لديها موقفًا تجاه الرجال، مثل الموقف الذي أتخذه أنا تجاه النساء، كل منا له أسبابه المختلفة، لكن المحصلة واحدة وهي النفور من الجنس الآخر.

عندما تحاملت للوقوف أحسست بها تكتم ألمًا تشعر به، فسألتها قالت لا شيء. مشينا بهدوء حتى وصلنا للجدول، خضنا فيه وبدأنا نعبره مسرعين حتى لا تمسك بنا العلقات الماصة للدماء. عندما وصلنا ورفعت قدمها لتصعد من الجدول للأرض، صرخت بألم وهي ترفع رجلها عن الأرض. أصبت بالقلق وطلبت منها أن نستريح، فرفضت وأصرت على المشي. مشينا أقل من ثلاثة أمتار قبل أن تصرخ ثانية، وتمسك بي وهي تسقط على الأرض رافعة فخذها المصاب.

طلبت منها أن ألقي نظرة على الجرح، فوافقت وهي تتألم، وتطلب مني ألا ألمس الجرح. نظرت إلى آثار عضة الذئب، كانت أنيابه قد انغرست في اللحم عميقًا، وكانت الجروح تنز بسائلٍ مدمم سيئ الرائحة، وقد احمر الجلد حولها. سألتها هل يمكن أن تعاود محاولة المشي بعد أن نستريح قليلاً، فأومأت بالإيجاب. أسندت ظهرها على جذع شجرة، أحست بالتعب، فتركتها تستلقي على الأرض وتتوسد فخذي، وأخذت أمزح معها قائلاً إنهم أحضروها معي ليروا قدرتي على حملها في النهاية. كنت أفكر هل أذهب الآن إلى المكان الذي تركنا فيه حقائبنا لأبحث عن حقنة أو مرهم ينفعها، أم نذهب إلى النفق وسنجد في الملجأ كل ما نحتاجه.

طالت استراحتنا وقتًا كافيًا قضيناه في الكلام والمزاح، كأننا خاليين من الهموم، أو نحاول صرف القادم عن تفكيرنا. طلبت منها أن تحاول أن تمشي متكئة عليَّ، فأمسكت بذراعي وتحاملت على فخذها السليمة حتى وقفت. ما إن حاولت المشي حتى تأوهت بصوت عالٍ وكادت تقع على الأرض، لولا أن أمسكت بها وأجلستها ثانية ببطء. لم يكن من

الممكن أن نتمكن من المشي وسط تلك الأدغال وهي بحالتها تلك، خاصة ونحن قد نسينا مكان باب النفق.

قررت أن أتركها وأذهب سريعًا إلى مكان حقائبنا، وأنا لا أدري هل سأجدها أم لا. كانت المسافة لا تقل عن ستة كيلومترات ذهابًا وايابًا، تستغرق على الأقل ساعة إذا أسرعت الخطى، وبدلت بين السعي والعدو. كانت خائفة، طلبت ألا أتركها، لكنني وعدتها بألا أغيب، وأنه مهما كان ما سيقابلني في الطريق فلن يمنعني من العودة إليها على وجه السرعة.

توجهت إلى ضفة النهر، وجريت بمحاذاتها حتى أحسست بأنني لا أكاد ألتقط أنفاسي، فهدأت من سرعتي، وصرت أمشي مسرع الخطى كمتسابقي المشي. رأيت الخيمة من بعيد، فعدت للعدو ثانية، حتى وصلت إلى المكان، لكنني لم أجد أثرًا للحقائب وكأنها تبخرت. بحثت في المكان حولها، نظرت على امتداد ضفة النهر، ثم عدت أنظر أسفل الشجرة التي حاولنا قطعها لكن لا شيء ولا حتى البلطة الصغيرة.

لملمت الخيمة، وقد خطر ببالي أن أستعملها كمحفة أنقل عليها شادية، ثم أجرها حتى مدخل النفق، ثم يحلها الحلَّال ساعتها. أسرعت في طريق العودة ومشيت أيضًا على ضفة النهر، وعددت الجداول التي عبرتها حتى لا أفقد اتجاهي وأتوه عنها. وصلت إليها، كانت جالسة دافنة وجهها بين كفيها، وحين انتبهت على وقع خطواتي رفعت وجهها ونظرت إليَّ بعينين تسحان الدموع.

ضممتها إليَّ وسألتها لماذا تبكي؟ قالت إن الألم في فخذها صار لا يطاق، وأنها كانت خائفة عليه ومرعوبة من فكرة أن تفقده بسبب حيلة

جديدة يقوم بها الخاطفون. ربت على ظهرها وطمأنتها، ثم طبعت قبلة على رأسها، وأنا آخذ نفسًا عميقًا، وأقول إننا أوشكنا على النهاية.

فرشت الخيمة، وطلبت منها أن تنتقل عليها ببطء مستعينة على ذراعيها وعليَّ. بدأت في التحرك، ثم تأوهت ثانية وتوقفت وتدفقت الدموع من عينيها. طلبت مني أن أضمها ثانية لعلها تهدأ، فجلست جوارها وأرحت رأسها على صدري وضممتها ثانية بقوة. اعترتني في تلك اللحظة رغبة عارمة في البكاء أنا الآخر، دون أن أدري ما السبب، تركت دموعي تنساب ويبدو أنها شعرت بي، فأبعدت رأسها قليلاً ونظرت إلى وجهي.

كنا ننظر أحدنا في عين الآخر بصمت، ودموعنا تنساب، وأشك أنهم سيفهمون أي شيء مما يحدث إن كانوا يراقبوننا الآن. وضعت يدي على خدها، فأراحته على كفي، ثم نظرت حولنا ونظرت إليها ثانية ووعدتها هامسًا أنني لن أتخلى عنها. اقتربنا أكثر، فلثمت شفتيها سريعًا ثم أرجعت وجهي للوراء، فمدت ذراعها ووضعته على ظهري وضمتني بقوة ورأسها على كتفي.

تحركت ثانية، وفي تلك المرة ثبت ساقها اليمنى بيدي حتى لا تتحرك فخذها حركة مؤلمة. بعد وقت مضى كأنه دهر، كانت مستقرة فوق الخيمة المفرودة وجاهزة للتحرك. أخذت زاويتي الخيمة بيدي وبدأت أجرها ببطء مترين أو ثلاثة أمتار، حتى قالت هي: "أنا شايفة إنك تدور على مكان باب النفق الأول بدال ما نلف كده"! كانت وجهة نظر سديدة، جعلتني أجرها حتى أقرب شجرة وأجلستها تحتها.

كانت شجرة عامرة بثمار طيبة الطعم، نعرفها جيدًا، التقطت منها ثمرتين وبدأنا نأكلهما قبل أن أذهب للبحث. لمحت عيني القرود تتجمع على أشجار مرتفعة بالقرب منا، وتنظر إلينا بتحفز، وفجأة بدأت تقذفنا بثمار قاسية، كأنها حجارة، حميت شادية بظهري حتى تمر تلك النوبة، لكن القذف استمر. أمسكت بأطراف الخيمة وبدأت أجر شادية بعيدًا فتوقف قذف الثمار. جلست ألتقط أنفاسي فعاودوا قذفنا ثانية وحين تحركت توقفوا.

كان الأمر غريبًا بعض الشيء، توقفت ثانية فعادوا يقذفوننا بالثمار، فتحركت فتوقفوا وكأنهم يجبرونني على السير. مشيت في خط مستقيم أملاً أن أجد الباب أمامي بمعجزة، لكن بعد عدة أمتار وجدت مجموعة أخرى تقذفنا من الاتجاه المعاكس فتوقفت، فجاءتنا الثمار من الاتجاهين ولم تتوقف إلا حين استدرت يمينًا. بدا وكأنهم يلعبون معًا ويتسلون علينا، وكأن ما ينقصني هو بعض القرود المجنونة التي لا تجد شيئًا تفعله إلا قذفنا بثمار تؤلم ضربتها بشدة.

فوجئنا في النهاية بباب النفق أمامنا مواربًا كما تركته آخر مرة. فتحت الباب لأقصى اتساعه ثم دليت جسد شادية ببط، وطلبت منها أن ترتكز على السلم بساقها السليمة. نفَّذنا الإنزال تحت وابل من صرخاتها، التي كانت توجعني أكثر من كل ما مررنا به. نزلت على السلم من على يمينها، حتى وصلت إلى الأرض ثم حملتها، وأنزلتها هي الأخرى. جلسنا نلتقط أنفاسنا وهممت بأن أضغط الزر قبل أن تسألني، هل شعرت مثلها بأن القرود كانت توجهنا لفتحة النفق.

فتحت فمي غير مصدق كيف فاتتني تلك الملاحظة.. فعلاً كانت توجهنا نحو النفق. هم متعجلون أم أن تلك هي المرحلة الأخيرة من

الاختبار. هل كان مطلوبًا أن يعضها ذلك الذئب بهذا العنف ولا أجد لها علاجًا إلا باللجوء إلى النفق. لماذا يصرون على استسلامنا، ما الذي يضيرهم لو رفضنا الدخول! أليست التجربة تقصد بالأساس لدراسة قدرتنا على التحمل.

ألا يمكن أن يكون هؤلاء الذين ماتوا من أجل تحريرنا جزءًا من التجربة أيضًا.. هل ماتوا حقًّا أم إننا توهمنا ذلك، وكان المطلوب أن يقنعونا بأن السلامة في الخضوع وانتظار الفرج! المطلوب أن نطيع فقط؛ ليس المطلوب دراسة قدرتنا على المقاومة، بل دراسة ما يتطلبه الأمر حتى نخضع. الآن شادية تعاني، وقد تكون تلك العضة مسممة أو ملوثة، ولا بد من علاجها، ولكي أعالجها لا بد أن أخضع وأضغط زر الاستسلام.

ماذا سأكون حين أخضع لهم غير ثور يستخدمونه للتلقيح ثم يعدمونه بعد ذلك، أو حتى لو حافظوا على حياته، فهو ليس إلا مجرد خازن نُطَفٍ حقير. سيجعلون مني هكذا بسهولة إن خضعت لهم، لكن إذا رفضت الاستسلام وأرَّقتهم فسوف يعاملونني بطريقة أخرى، سيستخدمون واحدًا غيري من "عينات التجارب"، ثم يقتلونني أو يتركونني حسب ما يتراءى لهم.

أيًّا ما كانت المعطيات، وأيًّا ما كان الغرض فالآن شادية على وشك الموت، وليس لدي خيار لإنقاذ حياتها إلا الخضوع. لو كانت حياتي هي التي على المحك لكان من حقي الاختيار، أما وأن حياتها هي المهددة، فليس ثمة خيار ولن أستشيرها حتى. توجهت للزر وقبل أن أضغطه خطرت ببالي فكرة. ماذا لو نزعته من الحائط ووصلت

بالأسلاك التي تفتح باب الملجأ بعد أن أفصل أي أسلاك أخرى قد تغلق أبواب النفق.

سيشاهدوننا نفعل ذلك بالطبع، وسوف يقبضون علينا وينهون التجربة أو سيتركوننا مدة أخرى. أيًّا ما كان قرارهم، فلو أنني فعلت ذلك فسأكون قد أفسدت لعبتهم وعصيتهم حتى النهاية. سألت شادية عن رأيها، فوافقتني ثم سألتني هل أفهم في الكهرباء. تلعثمت وأنا أرد عليها، فقد عملت صبيًّا لكهربائي وأنا في الإعدادية، وكنت فاشلاً بدرجة كبيرة، جعلت الرجل يطردني بعد أقل من شهرين.

ابتسمت وقالت: "أنا واثقة بك".. لن يحدث شيء حتى لو وصلت الأسلاك الخاطئة.. المغزى أننا لم نلعب وفق قواعدهم. دسست السكين بين الزر والحائط وعافرت فيه حتى خلعته ووجدت في الداخل عدة أسلاك متشابكة، عددتها فوجدتها سبعة أسلاك، تنتهي كلها في أنبوب في الحائط. فصلتها واحدًا واحدًا بحذر، ثم بدأت أجرب توصيلها معًا حتى أصل للترابط الصحيح.

٢٢

كان الأمر محفوفًا بالمخاطر بالطبع، ولكن تلك المخاطر تشبه المخاطر التي تتعرض لها حين تنقل قطعة شطرنج نقلة مفاجئة. الأمر وما فيه أنك ستخسر اللعبة، ولعبتي اليوم لا خسارة فيها ولا مكسب... حركتي لن تؤدي إلى نتيجة مفاجئة، وإنما هي إعلان موقف مجرد استنكار، مظاهرة لا طائل من ورائها، صورة ساخرة على فيس بوك أو فيديو مضاف عليه صوت ممثل هزلي.

كانت الأسلاك تشبه بعضها جميعًا، وكأن من وضعها تعمد أن يجعل التلاعب بها عسيرًا. أنا أكره الكهرباء وتوصيلاتها منذ صغري، ولا تذكرني سيرتها إلا بالصفعات التي كنت أتلقاها من الأسطى الذي كان يصر على تعليمي ما لا أستطيع استيعابه. جربت توصيل اثنين معًا: الأول مع الثاني، ثم الثالث هكذا، دون جدوى لا توجد أي استجابة، ولم أسمع صوتًا غير تأوهات مكتومة من شادية تثير أعصابي وتشعرني بالعجز.

تفحصت الأسلاك ثانية واحدًا واحدًا، وفي النهاية اكتشفت أن أحد الأسلاك مختلف من حيث الترتيب في خروجه من الأنبوب. كان وحيدًا

ومركزيًّا بالنسبة للبقية؛ اثنان على يمينه، واثنان على يساره، واثنان أسفله، كل اثنين متلاصقان عند مخرجهما، وهو الوحيد في المنتصف.

جربت توصيل السلك المركزي مع السلكين على يمينه، رأيت شرارة خفيفة تنبعث من تلامس الأسلاك ثم لا شيء. انتظرت قليلاً فسمعت صوت خرير قادم من الناحية الأخرى، ولم تمض لحظات إلا والماء يتدفق نحونا. فصلت الأسلاك سريعًا ظنًّا مني أن توصيلها كان هو السبب، وبالفعل هدأ خرير الماء تدريجيًّا إلى أن توقف تمامًا.

وصلت السلك المركزي بعدها بالسلكين الموجودين أسفل منه، وظهرت الشرارة ثانية وتوقعت تلك المرة فخًّا آخر، لكنني سمعت صوت طنين يتصاعد من باب الملجأ. بدأ الباب ينفتح ببطء كاشفًا قاعة واسعة فيها عدة دواليب، وأريكة وكراسي وثيرة، وطاولة طعام وثلاثة أبواب. صحت في جذل وقفزت في الهواء سعيدًا بالإنجاز الذي تحقق، ونزلت على ركبتي وضممت شادية وضمتني هي الأخرى وهي تكاد ترقص فرحًا.

حركتها ببطء حتى دخلنا إلى الملجأ الذي اتسخت أرضيته اللامعة بالوحل الذي علق بملابسها من أرض النفق. حملتها وأجلستها على الأريكة بحذر شديد، حتى لا تؤلمها فخذها ثم نظرت إلى الدواليب باحثًا عن الدولاب الذي يحتوي على مستلزمات طبية.

وجدت دولابًا فيه ملابس مطوية، لم أخرجها مؤقتًا، ودولابًا آخر فيه أدوات، وثالثًا فيه أدوية ومراهم وحقن. تفحصتها كان على أغلبها أسماء باللغة العربية، ومن الواضح أنهم جهزوا كل شيء ليتناسب مع إقامتنا هنا. أخذت مرهمًا كان مكتوبًا عليه علاج الجروح الحادة، وحقنة مكتوب عليها مسكن للآلام. جلست على الأرض أمام الأريكة التي

فردت جسدها عليها، ثم تناولت قدرًا من المرهم ووضعته على الجرح من خلال المزق الموجود في بنطالها.

طلبت مني أن أبحث عن مقص، سألتها لماذا، فقالت: "هاته بس والنبي". أحضرت المقص من دولاب الأدوات، فأمسكته وشقت به بنطالها وكشفت الجرح تمامًا. كنت أريد أن أفعل ذلك لكن كنت أشعر بالحرج، هي كانت أعقل مني وقيَّمت أن الموقف لا يستدعي حرجًا. أخذت بيدها قدرًا من المرهم، قائلة إنها تستطيع أن تضعها لنفسها دون أن تتسبب بألم؛ لأن يدي ثقيلة. فردت المرهم على الجرح حتى تغطى تمامًا، ثم أرجعت رأسها إلى الخلف وهي تزم شفتيها في ألم، فتحت المحقن وأردت أن أضعه في كتفها كما هو مرسوم على غلافه.

كانت أكمامها الطويلة عائقًا يمنع الحقن، فأشارت إلى المقص، بما معناه أنني أعرف ما ينبغي عمله. قصصت كمَّ القميص الذي أوشك أن يبلى على جسدها، ثم غرست الحقنة في كتفها، وأنا مترقب لتأثيره. لم أنتظر طويلاً فقد أحست على الفور أن الألم قد قل تمامًا، وإن لم يكن قد تلاشى. قالت إن المفترض أن هؤلاء الناس متقدمون عنا كثيرًا، لكن من الواضح أن الطب عندهم لا يختلف عن الطب عندنا.

لم أرد على تلك الملاحظة، فقد كان رأسي مشغولاً بما هو آتٍ، قلت لها إن الحدأة لا تقذف بالكتاكيت، وإنه لا بد أنهم رأونا الآن، وأن لديهم خازوقًا جديدًا لنا. خطر ببالي أنهم ربما أغلقوا علينا النفق، فقمت بسرعة وعبرت باب الملجأ، وصعدت السلم ورفعت الباب، فوجدته لا يزال مفتوحًا. عدت إليها وأنا أعيد حديثي عن الخطة القادمة والكارثة التي تنتظرنا بعد قليل.

قاطعتني بوضع كفها على فمي وهي تطلب مني أن أستمتع لحظة بالهدوء والنظافة التي آوينا إليها. سكت وأنا متعجب لموقفها، فالنساء ليسوا كذلك أبدًا، هن دومًا يقدرن البلاء قبل وقوعه ويفترضن أن ألف مصيبة تختبئ خلف كل هدية مفاجئة من القدر. قلت لها إنني سأقوم لأستطلع ما خلف تلك الأبواب، فأومأت بالموافقة وهي تغمض عينيها كأنها تهم بالنوم.

فتحت الباب الأول بواسطة زر موجود على يمينه، فتحرك جانبًا كاشفًا عن ممر طويل ممتد. على الجدار الأيمن أرفف كثيرة ارتصت عليها معلبات مختلفة الأشكال والأحجام، وعلى اليسار فتحة لغرفة دون باب، وبعدها عدة أكشاك ذات أبواب زجاجية، تشبه ثلاجات العرض، تمتد على طول الممر الذي يقارب العشرين مترًا. دخلت الغرفة الجانبية، كانت مطبخًا به موقد وحوضين ودواليب صغيرة، وطاولتان صغيرتان إحداهما مزودة بعجلات.

عدت أدراجي إلى القاعة الرئيسية، فوجدت شادية قد نامت، فدخلت ثانية إلى المطبخ وانتقيت بعض المعلبات ووضعتها في أطباق، وأحضرت زجاجتي عصير، وملأت دورق ماء ووضعت كل ذلك على الطاولة ذات العجلات، وجررتها حتى وضعتها جوار الأريكة وأيقظت شادية.

ربت على كتفها وأنا أناديها برفق، فأفاقت واعتدلت وهي لا تشعر بألم، تهلل وجهها لرؤية الطعام، والتهمناه في ثوانٍ، رغم غرابة طعمه علينا. قمنا بعدها نستطلع الغرف الباقية كانت كل واحدة غرفة نوم صغيرة وحمامًا فسيحًا به حوض استحمام كبير. كان الحمام مزودًا بفوط وملابس أخرى جعلتنا نميز غرفتها عن غرفتي.

دخل كل منا لغرفته لتغيير ملابسنا البالية ونغتسل. وقفت أسفل الدش غاسلاً كل أدراني وكل الوحل الذي علق بي، وبقايا الأشجار والعشب العالق بشعري، متناسيًا همومي. جففت نفسي تحت تيار هواء معدٍّ لذلك، وموضح بالرسم كيفية استخدامه. ارتديت سروالاً داخليًّا مصنوعًا من مادة تشبه قفازات الأطباء، غير أنها مريحة الملمس، تترك انطباعًا خاملاً على الجلد، فوقه ارتديت بنطالاً وقميصًا ملمسهما حريري، لكنهما مطاطين، اتسعا بسهولة لأرتديهما ثم التصقا بجسدي.

خرجت من الغرفة كانت شادية لا تزال في غرفتها، انتظرتها وأنا جالس على الكرسي الوثير أدندن أغنية لإيمان البحر درويش، لا أعرف ما الذي ذكرني بها، كنت أدندن وأنا أقول لنفسي إن حظي ليس بهذا السوء؛ لأن شادية معي تكمل أفكاري الناقصة وتعدل قراراتي نحو الصواب. استعذبت حمل همها في الأيام السابقة، وأنا لم أطِق أن أتحمل هم امرأة من قبل، حتى من تزوجتهن. كانت بيني وبينها لحظات قصيرة جدًّا من الشغف، لمسات معدودة لمست روحي، وضمات قصيرة مختلطة بالدموع ضمدت جروحي، وقبلة استمرت جزءًا من الثانية لكنها فعلت فيَّ ما لم تفعله قبلات طويلة سابقة.

فتحت باب غرفتها مرتدية نفس الزي الذي أرتديه، قميصًا وبنطالاً ملتصقين بجسدها أعطياها مظهرًا فاتنًا، كالفتيات في أفلام الخيال العلمي، اللواتي يرتدين سترات جلدية سوداء ملتصقة بأجسادهن. كانت قد تركت شعرها مكشوفًا، وكان لا يزال به بعض البلل. رأتني أمامها فقالت في خجل: إن هذا الزي يصيبها بالحرج، فقلت لها: "لا عليك"، وطلبت أن تطمئنني على إصابتها.

قالت إنها غطتها بالمرهم ثانية، وإن الألم قد صار بسيطًا للغاية، وإن الطب عند هؤلاء القوم قد يكون أفضل مما لدينا كثيرًا. وقفت

واقتربت منها وأنا أشعر برغبة قوية في ضمها، قالت لي: أيًّا ما كان سيحدث، فإنها سوف تقبله ما دمنا معًا. قالت إنني فارسها وأميرها المنقذ، وإنني شفيت روحها، قالت عني كل ما كنت أفكر فيه عنها، قالت كل ما دار برأسي وأنا أنتظرها.

ضممتها دون خجل، دون خوف، وضمتني دون تحفظ ودون شعور بالذنب، طالت ضمتنا وطالت وقفتنا، وسألتها إن كانت تشعر بالألم، فأجلسها لتستريح. فقالت إنها لو ظلت واقفة هكذا عشر ساعات فلن تشعر بالألم. احتوتها ضلوعي واحتواني ذارعاها، دمعت عيني وشربت دموعي عيونها، في لحظة تسامت أرواحنا وتماست قلوبنا، واختلطت أنفاسنا.

كانت لحظة لا تزور الإنسان إلا مرة في العمر، ولذلك لم تدم طويلاً. كنا لا نزال واقفين حين شممنا رائحة نفاذة تأتي من جهة النفق.. جريت لأستطلع ما يحدث فوجدت سحبًا من البخار تأتي من نهاية النفق تجاهنا، وهي مصدر تلك الرائحة النفاذة. حاولت إغلاق باب الملجأ لكن شادية صرخت بي ألا أفعل فقد لا ينفتح ثانية. لم أطاوعها هذه المرة، وجذبت الباب بقوة لكنه لم يتحرك إلا سنتيمترات قليلة.

جريت نحوها وجذبتها من يدها وفتحت باب المطبخ، ثم أغلقته خلفنا وجلسنا على الأرض جوار أرفف المعلبات ننتظر ما سيحدث. مرت دقائق ولم يحدث شيء حتى ظننت أننا صرنا بأمان، قمنا وجلسنا داخل المطبخ منتظرين ما سيحدث، حتى فوجئنا بالباب ينفتح فجأة لآخره والغاز يدخل دفعة واحدة، يملأ أنوفنا وأعيننا، ونحن نحاول كتم أنفاسنا دون جدوى حتى أظلمت الدنيا تمامًا.

٢٣

حين بلغت الخامسة عشرة كان "خراط البنات قد خرط جسمها" كما كانوا يقولون، كانت فتاة مكتملة الأنوثة تصلح لارتداء زي العرس. كانت زهرة في درس خصوصي عند مس آمال مدرسة اللغة الإنجليزية، كن ثلاث فتيات في بيت المدرسة، وهي أنضجهن وأكثرهن بضاضة واكتمالاً. دخل زوج مس آمال عليهن وطلب منها أن تهدئ الطفل فهو لا يكف عن البكاء. خرجت آمال وابتسم الرجل لهن في لطف وطلب منهن أن يجتهدن في المذاكرة، ثم وضع يده على زهرة وهو يخصها بالنصح.

لم تكن لمسة طبيعية، كانت مسحة بيده على ضهرها من أعلى لأسفل، وضغطة على لحمها كأنه يقيس مدى اكتنازه. امتقع وجهها ولم تقدر على الكلام، ولم تفهم شيئًا من باقي الحصة. خشيت أن تحكي شيئًا لوالدتها فتتهمها بأنها هي المخطئة، وأن الحجر إذا تحرك فمعناه أن من تجلس عليه غير ثابتة. مضى يومان تشعر أنها مقهورة كعبد مصلوب تأكل الطير من رأسه.. قصت حكايتها على جدتها، فقالت لها حكمة أثرت عليها من ذلك اليوم وحتى الآن: "كله إلا الخشا يا زهرة الخشا في الرجالة يورث الفقر وفي البنات يورث العار".

من يومها وصار الحرج في أي موقف عدوًّا لها شبحًا مرعبًا لا يترتب عليه إلا العار، وخاصة في التعامل مع الرجال. قالت لها جدتها: إن فيلم "دعاء الكروان" مثال واضح، وأن "هنادي راحت في الوبا" بسبب الـ "خشا"، لا بسبب الحب، أختها أحبت نفس الرجل لكنها كانت قوية بما يكفي حتى لا تستحي من صده.

حين صدت عمر بهذه الطريقة كان مجرد رد فعل من امرأة اعتادت أن تكره الـ "خشا" في مواجهة الرجال. لكنها شعرت أنها تجاوزت الحد هذه المرة. إنه يحبها حقًّا، تلك الدموع ليست لأي سبب آخر غير الحب، ليست بسبب كرامة جريحة، بل لوعة من عاشق صدته محبوبته. تلك المرة شعرت به أكثر وأكثر، شعرت بأنه يحبها من دون قيد ودون حساب للربح من وراء هذا الحب.

حبها الأول كان زميلها في الجامعة، ظل يتقرب إليها من السنة الثالثة، وقعت في حبه بعد فترة رغم تحذيرات زميلاتها منه، فهو ليس من الأوائل مثلها، غير أنه يشرب السجائر ويتسكع مع فتيات أخريات. اشترطت عليه الالتزام والاكتفاء بها، وألا ينظر هنا أو هنا. ظلا فترة تقارب العامين حديث دفعتهما، وأنهما طائرا الحب المثاليين، واتفقا على أن يتقدم لها بعد انتهاء امتحانات السنة النهائية. اكتشفت قبل الامتحانات بقليل أنه يعرف فتاة ساقطة، تزوره في شقته بانتظام. كانت صدمة جعلتها تكره الحب وسيرته وتقرر أن تتزوج زواجًا مرتبًا.

رفضت الكثيرين بعده، كان لكل واحد شرط وكأنه يمن عليها باختيارها زوجة، واحد يطلب أن تختار تخصصًا يسهل مهمتها كزوجة، وآخر يناقشها في كيفية إنفاق راتبها، وثالث يشترط السفر للخليج

والتخلي عن السلك الجامعي، ويشترط أيضًا أن يكون له نصف راتبها إن سافرا.

في النهاية خُطِبَت لمهندس متفتح العقل في شركة مرموقة، قال إن عملها فخر له، وإن ترقيها في الجامعة سينعكس بالإيجاب على أطفالهم المستقبليين. كان كالحلم رقيقًا هادئًا كريمًا، لكن تغير كل ذلك بعد وفاة والدها، وطلبها منه أن تعيش أمها المريضة معهما. رفض بشكل قاطع وقال كلامًا في لحظة احتدام نقاشهما جعلها تفهم أن كل ما يقوله مجرد شعارات، لن تكون قابلة للتنفيذ.

لم تجد رجلاً في حياتها يعطيها ما تتمناه في الرجل. لم تكن حالمة تفكر في الحب والرومانسية وحواديت الروايات، كانت فقط تريد رجلاً متفهمًا يحتويها ويخلص لها، لكن هذا النوع انقرض غالبًا. عمر لا يقدم أي شيء حين يتحدث إليها غير حبٍ صافٍ غريبٍ على أفكارها، حبٍ لم تعرف أنه موجود لكنه حب أسطوري لا طائل من ورائه، كحب أحدب نوتردام للجميلة، أحبها كما لم يحبها إنسان آخر، لكن لا جدوى من حبه سواءً أكان حيًّا أم ميتًا.

كانت في مساء الجمعة تنتظر زيارة من مشيرة صديقتها المقربة التي لم تنقص المسافات قدر الحب بينهما. مشيرة صاحبة قصة الحب الوحيدة في دفعتها هي وزميلهما محمود، تزوجا بعد التخرج وسافرا بعد الماجستير. تراها كل عام في إجازة الصيف، تتعدد الحكايات وتتشعب مواضيع النميمة عن هذه وذاك. جاءت وحدها هذه المرة بدون الأولاد، ربما لأنها تعلم أن أم زهرة قد بترت ساقها من فترة قصيرة، وجو البيت لا يحتمل صخب الأطفال.

لا تزال غرفتها كما هي منذ أيام الدراسة، ولا تزال هي المكان المفضل لمشيرة للجلوس معها منذ كانتا تذاكران سويًّا: واحدة على السرير، والأخرى على الأريكة، وصوت مشيرة يعلو ويهبط وهي تعيد الكلام وتحفظه، وزهرة تذاكر بعينها فقط.

فتحت مشيرة قلبها وبدأت تشكو؛ محمود لم يعد محمودًا.. صار يفكر في التعدد ويذكرها كل يوم أنه سنة الله في أرضه، وعفة لامرأة أخرى تحتاج الزوج والسند. قصة حب استمرت خمسة عشر عامًا يريد أن يكللها بزوجة جديدة. كان الأمر مزاحًا في البداية، ثم تعداه إلى التصريح بأهمية خطوة كتلك، والتبجح بأنها قد تعيد إشعال النار المطفأة بين قلبيهما حين تدخل امرأة جديدة.

كانت تعلم أن مشيرة معتزة بنفسها، وأنها لم تفتح موضوعًا كهذا إلا حين فاض بها. قالت إنها لا تذكر آخر مرة كان بينهما شغف في العلاقة وأن الحياة في السعودية قضت على هذا الشغف. مدت زهرة يدها وهي تناولها كعكًا محلى، وتقسم عليها أن تأكل منه قبل أن تقول إن فقدان الشغف لا علاقة له بالمكان، بل بالزمان والأشخاص. ذكرتها بصديقتهما الثالثة التي كانت تأتي لتذاكر معهما أحيانًا، والتي تزوجت طبيبًا أكبر منها، وسافرت بعد انتهاء الامتياز مباشرة. زيجتها أسوأ منها، رجل في حياتها مثل عدمه على الأقل محمود يتحمل أولاده معي، أما هذا فلم يكن معها إلا بجسده فقط.

ضحكت مشيرة ضحكة عابسة، وهي تقول إنه حتى ذلك الجسد فقط لم يقم بدوره يومًا ما، وأنها اشتكت لها من ذلك ذات مرة، وإنها لم تشعر معه بذلك الشغف الذي تفتقده الآن مشيرة، وكررت جملتها

بالحرف حين قالت: "على الأقل انتي دقتي الشغف كام سنة، أنا بقى أربع تاشر سنة لا دقت شغف ولا شغت".

كانت تحب في مشيرة أنها لم تتصرف يومًا كزميلات أخريات يعاملنها بتعاطف، ويذكرنها أنه ينقصها أن تتزوج، وعليها التنازل في سبيل ذلك، أو اللواتي يخشين على أسرهن من الحسد فيطلن الشكوى لها ويخبئن أطفالهن منها. كانت تحبها حبًّا لم تفسده غيرة الفتيات، ولا تنافسهن، ولا البحث عن نقائص في الأخرى للحديث عنها أو للمعايرة بها.

قالت –وهي تناولها طبقًا من "أم عليّ"–: إن لديها حكاية مثيرة للاهتمام، أخذت منها الطبق وهي تقول إنها ستكون سببًا في فساد حميتها، ثم سألتها عن الحكاية. قصت عليها ما حدث مع عمر منذ أن جاء قريبه إلى عيادتها إلى أن بكى حين صدته واعتذاره لها. تحدثت عن إحساسها بأنه يعرفها جيدًا، وأنه يحبها صدقًا، وأنها مرتبكة المشاعر تجاه ذلك الفيض من العشق الذي غمرها به.

حكت لها كيف تعمد ألا يكمل جلسة الحقن الأولى، رغم علمه بأنه سيتحمل ألمًا إضافيًّا، وكيف ترجاها أن تنتظر لجلسة تالية فقط لكي يراها ويسامرها، حكت عن انطباعها عن الرواية التي كتبها، وعن ضيقها حين قرأت كيف تطورت الأمور بينه وبين بطلة الرواية، وكأنها تغار عليه رغم يقينها أن الحكاية خيالية.

"يا بختك"! قالتها مشيرة بابتسامة عاطفية، ثم ضحكت، فنهرتها زهرة وهي تقول لها ليس هذا وقت المزاح. قالت مشيرة: إنها أحست بضربات قلبها تزيد بسبب الطريقة التي تتكلم بها عنه، وأن هذا النوع

من العشق لم تبصر مثله من قبل، وأنها تعتبرها محظوظة لأنها جربت ذلك الإحساس ولو مرة.

سرحت ببصرها وفكرت هل هذا صحيح أم أن إحباط مشيرة في حياتها الزوجية هو ما يتكلم الآن؟ هل تستسلم لشعورها وتكف عن ذلك الصراع بينها وبين ذاتها وأن تنسى كبرياءها قليلاً وتنسى عيون الناس، التي ستتساءل حتمًا إذا زارته بعد أن تنهي علاجه؟ عليها إذًا أن تكف أيضًا عن التفكير في العواقب إذا مات، وما إذا عاش سليمًا معافى أو عاش معاقًا جسديًّا أو نفسيًّا بسبب إصابته.

أيقظتها مشيرة من شرودها بقولها إن الحكاية كلها تشبه الخيال، ويجب ألا تأخذها على محمل الجد، فلا مبرر أصلاً لطول تفكيرها في هذا الموضوع؛ لأنها لا يجوز أن تفكر في رجل بهذه الطريقة، لمجرد أنه أبدى حبه لها. حتى لو كان الرجل يحبها بحق، فهي لا تنصحها بمبادلته الاهتمام؛ لأن المشاعر المجردة ليس منها ضرر، لكن القرارات المترتبة عليها بعد ذلك هي ما قد يسبب كارثة.

٢٤

فتحت عيني وأنا أشعر بصداع فظيع يحتل رأسي، كانت الرؤية ضبابية في البداية، ثم بدأت تتضح شيئًا فشيئًا. كنت جالسًا على كرسي ذراعاي مقيدتان وقدماي، لم يكن قيدًا بالمعنى المفهوم، بل كنت ملتصقا بالكرسي بطريقة لم أفهمها. جواري كانت شادية مقيدة كذلك، لكنها لم تستيقظ بعد، كنا في القاعة الرئيسية للملجأ، وكان الباب الخارجي مفتوحًا كما هو، نظرت مليًّا فلمحت شبحين يقفان على جانبي الباب وقفة عسكرية.

دخلت من الباب امرأة، يبدو أنها أعلى رتبة منهما، ويتبعها حارسان آخران، حليقي الرأس لكنني تبينت أن أحدهما أنثى. كانت المرأة لها نفس الملامح المميزة التي رأيتها في الباقين، وكانت تحتفظ بشعرها المجعد الذي يصل بالكاد إلى كتفيها، نظرت إليّ بصرامة، وقالت: "لعلك تظن أنك حققت انتصارًا ما بفعلتك تلك"!

نظرت إليها بغيظ، وشددت ذراعي من قيده دون جدوى، وأشارت هي بيدها محذرة أن لا جدوى. فتحت شادية عينيها ببطء، وهي تنظر بدهشة لكل ما يحيط بها، وتسألني ماذا حدث؟ ومن هؤلاء؟ وقبل أن أرد طلبت منا المرأة الصمت في صرامة.

أحضرت لها الحارسة كرسيًّا فجلست عليه، ووضعت ساقًا فوق الأخرى، وهي تقول: "أفهم أن هناك بعض الأغبياء تدخلوا في تجربتنا المشتركة، ووضعوا في رأسيكما أفكارًا غريبة" لم أرد عليها، وقالت شادية في غيظ: أن غباءهم لم يكن مبررًا كافيًا لقتلهم. تجاهلتها المرأة وسألتنا بصرامة عمَّا أخبرنا به الرجل الذي حاول تهريبنا.

ردت عليها شادية قبل أن أفتح فمي، وقالت إننا لن نخبرها بأي شيء. ابتسمت المرأة بسخرية وأعادت السؤال، فقلت لها إنهم أخبرونا أنهم يريدون خلط نسلنا –نحن الأرضين– مع نسلهم من النياندرتال. تجهم وجه المرأة واقتربت مني الحارسة وصفعتني، وقالت المرأة: "إياك أن تقول تلك التسمية المهينة مرة أخرى"، فسألتها وأنا أتلمظ غيظًا: "ماذا أقول عنكم إذًا"؟ فقالت: "الأوائل أو الأديتيين، أما تلك الكلمة فتحمل في طياتها معانٍ تعطي للأرضيين أفضلية، وكأن الأوائل مجرد بشر أقل تطورًا"، ثم مالت للأمام ونظرت إلينا وهي تزم فمها العريض وتقطب جبهتها المائلة وسألتنا ثانية.

خطر ببالي لحظتها أنني أشاهد فيلمًا مدبلجًا، فالكلام الذي كنت أسمعه لم يكن يطابق حركات شفتيها، كدت أسألها لكنني تذكرت أن ما نسمعه هو ترجمة من جهاز غريب، فقلت لها ساخرًا: "قالوا إنكم تريدون مني أن ألقح بعض نساء كوكبكم، ويبدو لي أنك تحتجزينني الآن لتنالي السبق بينهن"، ثم أعدت رأسي للخلف وأنا أقول: "أم أنك تجاوزت سن الخصوبة". كادت الحارسة تصفعني ثانية، لولا أن المرأة أوقفتها بنظرة صارمة، ثم هددتني أنها ستعذب شادية إن لم أتكلم.

لم يكن الموضوع يستحق التهديد، فأنا لا يهمني أن تعرف أو لا تعرف، أنا فقط كنت مستفزًّا من تلك الشمطاء وحارستها التي صفعتني

دون سبب. قالت شادية وهي تسبقني بالحديث: إننا سنقول كل شيء على شرط أن تخبرنا بالحقيقة ما دام كلامهم كذبًا.

هزت المرأة رأسها موافقة، فقصت عليها شادية كل ما قاله لنا الرجل، لم يبد على المرأة الرضا، وسألت هل رأينا أدوات معهم، وما إذا كان قد أطلعنا على خطة ما أو وعدنا بالعودة ثانية، قلنا لها هذا كل ما نعرفه.. لم تبد مقتنعة بعد، وأكملت أسألتها حتى أحسست أخيرًا أنها قد اطمأنت لإجاباتنا. سألتها شادية عن الحقيقة، فقالت المرأة: "هناك الكثير مما قالوه لكما حقيقي، بعضه يعرفه كل الناس، والبعض الآخر مجرد شكوك ونظريات مؤامرة، لكن الحقيقة التي لا جدال فيها أننا ننوي أن نفتح باب العودة إلى كوكبنا الأم، وأننا سنسترد مساحة كبيرة من الأرض يقدر عدد ساكنيها الآن بحوالي ثلاثمئة مليون أرضي".

سألتها بفضول عن أي قطعة من الأرض ينوون احتلالها، فرفضت الإجابة عن هذا السؤال، فسألتها شادية عمّا سيفعلونه بأهل الأرض التي ينوون أخذها، وما إن كانوا سيبيدونهم، وقفت المرأة ونظرت نحوها بغضب وهي تقول: "هل تظنين أننا همج مثلكم نحن أصحاب حضارة وقيم ودين راق، لا يسمح لنا بالمجازر تلك.. نحن نتجشم عناء إجراء تجارب كتلك التي نخضعكما لها، لكي نعرف الوسيلة المثلى للسيطرة على الأرضيين، الذين سيكونون في نطاق وطننا الأم.. سنحارب من يحاربوننا، وبعد أن ينتهي الأمر بهزيمتكم ورضاكم بالأمر الواقع نتوقع أن يكون هناك مهاجرون، يقدر عددهم بالنصف تقريبًا، لكن هذا يعني أننا ينبغي أن نتعايش مع مئة وخمسين مليون أرضي، نريدهم خاضعين لقوانيننا وقواعدنا، يجب أن نتوقع طرقكم في المقاومة والالتفاف على القواعد.. هناك تجارب على أفراد

وعلى أزواج مثلكما، وعلى جماعات يصل عددها إلى عشرة ولكل تجربة مستويات متعددة".

كادت شادية تجادلها ثانية وتسألها عن تلك القيم التي تسمح لهم بتهجير بشر، واحتلال أرضهم والسيطرة عليهم، لكنني قاطعتها، فالجدال لن يفيد وستعايرنا بتاريخنا البشري الممتلئ بأمثلة كثيرة ولِم التاريخ؟! وهناك الآن من يفعلون ما تقوله حرفيًّا ولا أحد يقدر على المساس بهم. سألتها كيف اختارونا وكيف يوفقون بين البشر المختلفين الذين يخضعون لتجربة واحدة جماعية فقالت: "كان الأمر عشوائيًّا في البداية.. ليس لدينا الإمكانيات التي تسمح بزرع جواسيس بينكم ينقلون لنا تفاصيل حياتكم الدقيقة، لكن منذ عقدين تقريبًا طورتم شبكات الإنترنت التي سمحت لنا بمعرفة الكثير، ثم جاءت النقلة الكبرى حين ابتكرتم وسائل للتواصل، تكشف كل جوانب حياتكم تقريبًا، لكن يظل الأهم هو كيف تستجيبون لضغوط حقيقية غير العمل والعلاقات الاجتماعية لذلك استمرت التجارب لكن مع انتقائية أفضل للعينات".

كان يستفزني بشدة أن تقول عنا عينات، فقلت لها معترضًا إنها غضبت لأنني استخدمت اسم النياندرتال، وهي تصر على أن تسمينا عينات، فقالت إنهم "الجنس الأسمى"، وأنه يحق لها أن تقول عنا ما تشاء وليس العكس. قالت إن أخلاقهم تجعلهم عادلين في معاملتهم معنا، لكن لا تعني أن نتساوى بهم.

سألتها شادية عن الدافع لمجيئهم إذًا فهذا الكوكب يبدو مريحًا.. ألا يمكن أن يستعينوا ببشر للتزاوج، ولحل مشكلة التيلومير المتناقص أو

حتى استخدام جيناتهم دون خطفهم أم أنهم يصدقون فعلاً أن العودة إلى الأرض أمر إلهي؟ أجابت المرأة بأن الأمر الإلهي حقيقي فعلاً، والملايين يؤمنون به ومتعصبون له، لكن المشكلة أيضًا أن هذا الكوكب يتداعى، وأنه يمر بكارثة ضخمة كل بضعة آلاف من الأعوام، تكلفهم أكثر من ثلثي السكان. وأن الكارثة المتوقعة بعد ما يقارب القرنين من الآن قد تؤدي إلى انقراضهم.

"الناس عندك يظنون أننا انقرضنا، ولا يعلمون أن من انقرضوا هم أسلافنا الذين رفضوا مغادرة الأرض، والذين ارتكب قومك المذابح بحقهم، حتى أفنوهم، ومع ذلك لن نعاملكم بالمثل"، فتحت فمي مذهولاً من تلك المرأة التي تحملنا ذنبًا ارتكبه أجدادنا منذ عشرات الألوف من السنين، ولكنني لن أجادلها، كنت أريد أن أعرف ما خطوتهم التالية معي أنا وشادية، وليذهب أهل الأرض وأهل الفضاء إلى الجحيم.

كدت أن أسألها عن التالي، لكن شادية انسحبت من لسانها وسألتها عن كيفية اختيارهم لنا. ردت المرأة أنهم يختارون أناسًا عاديين غير عسكريين، وليسوا من المشاهير أو أصحاب القدرات الخاصة، يختارون رجل الشارع العادي جدًّا؛ لأن هذا ما يهمهم، وهذا ما سيبقى تحت حكمهم، وأن الناس العاديين يظهرون قدرات استثنائية حين يوضعون تحت ضغط قوي ويريدون أن يعرفوا ما مدى تلك القدرات.

وجهت حديثها لي وهي تقول: "كان المطلوب اختيارًا بسيطًا، وهذا هو لب المرحلة الأولى، ولكنك من ضمن المجموعة التي اختارت

التفكير خارج قواعد اللعبة، وعليه ستدخلان ضمن المرحلة الثانية". اصفر وجهي أو هكذا ظننت، وأنا أسألها عن ماهية تلك المرحلة الثانية.

لم تجبني، ابتسمت بغموض وأشارت إلى الحارس الثاني، فأخرج شيئًا من جيبه يشبه الريموت الصغير، وضغط عليه فانفكت لصقتنا بالكراسي، ثم قالت: "تريدان أن تعرفا التفاصيل من شخص أم من فيديو التوجيهات أفضل"! لم تنتظر ردنا فقد كانت الإجابة بديهية فقالت: "يبدو أنكما تفضلان الحديث المباشر لهذا..."، صمتت قليلاً ثم أشارت إلى الحارس، فخرج وهي تقول: "سيأتي لكما أحد المشرفين على التجربة ليشرح لكما".

كادت أعصابي تفلت وكدت أسبها وهي تتعامل ببساطة، كأننا متقبلين تمامًا لوضعنا في تجربة أيًّا ما كانت. وكأنها استشفت ما يعتمل داخلي، فقالت: "لا تنس أنك السبب في تمديد التجربة، اللوم يقع عليك وحدك"! كدت أرد عليها، قبل أن تطلب شادية منها أن تجيب على سؤال أخير، فقالت بفراغ صبر: "الأسئلة لا تنتهي يا عزيزتي أنت أعلم مني ومنه بهذا، فأنت تتعاملين في مهنتك مع أكثر تركيب يثير التساؤل والدهشة"، نظرت إليها غير مستوعب لمقصدها.

ارتبكت شادية واحمر وجهها، وهي تشيح بعينيها عني، ولاحظت المرأة ذلك فقالت ضاحكة: "يبدو أن هناك أسرارًا في تصرفات الأرضيين لن نعرفها مهما قمنا بتجارب.. أنا لن أستوعب أبدًا، لماذا لم تقل لك عن حقيقة عملها وأنتما هنا في كوكب آخر وأوشكتما أن تصيرا زوجا حب ظريفين"! لم أفهم معنى كلامها، ونظرت نحو شادية بتساؤل فأكملت المرأة: "زميلتك في التجربة، جراحة مخ تتعامل مع

أعقد تركيب في الكون، تفك الجمجمة وتركبها كما تفعل أنت بحوض استحمام".

عقدت لساني المفاجأة، وصدمت قلبي طريقتها في المقارنة بين عملينا. كان أغرب شيء واجهته على الجزيرة حتى الآن هو نفس الشيء الذي لم أفهمه طيلة عمري. لم يكن أكبر مصدر للصدمة تعرضي لسيل جارف أو صعق قلبي بتيار كهربائي سرى إليه من ذئب ضخم، قرر مدربه تأديبه، بل كان كذب امرأة استسلمت لها ووهبتها ثقتي التي لم أهبها لامرأة قط.

٢٥

جاءت امرأة ثانية ترتدي زيًّا مغايرًا وتبدو أصغر سنًّا من الأولى، وكانت ابتسامتها واسعة، لدرجة أنني أحسست أن زاوية فمها تقترب من أذنيها. بدأت أرى الاختلاف في الملامح بين هؤلاء النياندرتال أو الأوائل، فالمرأة الأولى فمها واسع أيضًا، لكن أقل اتساعًا من فم هذه. كانت قليلة الكلام تتحدث إلينا كأنها تملي علينا شروط تعاقد مكتوبة في صك خفي.

سوف يتركوننا هنا في الجزيرة بلا وسيلة خروج منها لمدة ثلاث سنوات، ويعتبر طول المدة إجراءً عقابيًّا لإخلالنا بالقواعد التي وضعت لنا سابقًا. سيتركون الملجأ مفتوحًا كمأوى فقط، لكن المؤن لن تكون موجودة، ولا الماء ولا الأضواء. علينا أن ندبر معيشتنا هنا بكامل حريتنا لمدة ثلاث سنوات، ولن يكون هناك أي تدخل منهم، فقط نحن والطبيعة والحيوانات العادية غير المدربة: منها المفترس والسام وغير المؤذ، ونحن فقط المسؤولون عن حماية أنفسنا وعلاج أنفسنا بالموارد الطبيعية على الجزيرة. إذا استطعنا إكمال السنوات الثلاث، سيتم إعادتنا إلى الأرض سالمين.

سيكون من حقنا طلب المساعدة أربع مرات فقط خلال المدة بأكملها، وهي مساعدة وقتية لحل ظرف معين، وليست مساعدة على مدى طويل. سيكون هناك زر مخصص لطلب المساعدة يتم الضغط عليه، وستأتي فرقة المساعدة في الحال. إذا قمنا بالضغط على الزر أربع مرات سنكون قد استنفدنا فرصنا في طلب المساعدة، وستكون المرة الخامسة إعلان استسلام منا.

بعد إعلان الاستسلام سيتم أخذنا لمنشأة تابعة لمؤسسة الأبحاث العسكرية، وسيتم ضمنا إلى برنامج مع بقية الأرضيين الذين فشلو في التجربة. برنامج يتضمن دمجنا ضمن أجهزة الدعم لديهم، أي أننا سنكون ضمن وحدات عسكرية غير قتالية. كأن التاريخ واحد هنا وفي الأرض.. تجنيد الشعوب الضعيفة ضمن جيوش الدولة الغازية، فعلها الرومان والإنجليز والترك وكل الشعوب المستعمرة عبر التاريخ.

استمعت لكل هذا بنصف عقل، ولولا أن المرأة أعطتنا كتيبًا صغيرًا يلخص ما قالته وبه بعض المعلومات عن الجزيرة لما تذكرت شيئًا. عقلي كان مشغولاً بما فعلته شادية، ولماذا كذبت عليّ؟ ولماذا لم تشاركني في أي شيء يذكر عن حياتها إلى الآن؟ عدنا للأرض أم بقينا هنا ما الفارق الذي سيصنعه هذا في علاقتنا؟ وهل أحبتني أم فقط اطمأنت لي وجرفتها اللحظة؟

لم أكن حددت حتى تلك اللحظة ماهية شعوري نحوها، لكن الأكيد أنني تركت نفسي لها، لم أكن ساعتها أحمل ذلك الهم والقلق الذي يساورني تجاه أي امرأة، كنت أتعامل معها كإنسان قريب مني للغاية، أو كأنها جزء آخر من نفسي.. نصفي الآخر بالمعنى الحرفي للكلمة.

قد يشعر من يسمعني أنني أبالغ في ردة فعلي، وأن الأمر لا يستحق؛ لم يكن بيننا اتفاق مكتوب ولا حتى كلمة صريحة، لم نَعِد بعضنا بشيء، لم نكن في قصة حب، لكن الأمر عندي أكبر من كل ذلك. هب أننا رفيقيّ سلاح يحمي أحدنا ظهر الآخر بدون أي مشاعر إضافية، أليس من المفترض أن يكون بيننا حد أدنى من الثقة يجعلها تقول لي من هي على الأقل.

انتبهت إليها وهي تقول للعالمة بغضب إننا خاسران على أي حال، فحياتها سوف تدمر حين تعود بعد ثلاث سنوات كاملة، ولن تستطيع أن تثبت أين كانت، ستفقد وظيفتها ويهجرها أهلها، أمها المريضة لن تجد رعاية كافية، وابنة شقيقتها المسكينة ستضيع بين بيوت الأقرباء. قالت المرأة: إن هذا ليس من شأنهم، وإذا كانت تريد البقاء هنا والانضمام للعمل من أول يوم فعليها فقط أن تقول ذلك.

تركتنا هي والحارسان وانصرفا ومعهما الحارسان على الباب، اختفوا جميعًا في ثوانٍ وعدنا وحدنا على الجزيرة كما اعتدنا. تركتها ودخلت غرفتي، وألقيت بجسدي على الفراش خالي الذهن، كأن كل شيء صار بلا معنى. حياتي على تلك الجزيرة هي مرآة لحياتي على الأرض، رغم أنني فيها كنت أمتلك قدرات لم أمتلكها من قبل، وتحديت صعابًا لم يخطر ببالي تحديها، لكنَّ قلبي واحد، قلبًا مهزوزًا يعيش في جحيم من الدونية والفقد والوحدة والخوف، قلبًا يعافه الحب، رغم أنه يتمنى لقاءه مرة واحدة قبل أن يموت.

انطفأ النور عدا من مصباح دقيق للغاية في ركن في السقف. بدأ الملاعين في تنفيذ بنود تجربتهم الحقيرة وأنا راقد بلا نية لشيء، ولا حتى

لمجرد التفكير فيما سنفعله. طرقات على الباب قطعت حالة السكون التي كنت فيها، وصوت شادية خافتًا منكسرًا يناديني، ويطلب مني الخروج. "مليش نفس يا.... دكتورة"! صمتت وابتعدت خطواتها، ثم عادت بعد قليل وقالت: "أرجوك.. اخرج"!

فتحت الباب كانت واقفة لا أتبين ملامحها من ضعف الإضاءة، لكن الدموع كانت تلمع في عينيها وعلى خدها. كانت تقف كمذنب لا يملك حجة في الدفاع عن نفسه، إلا رجاء خائب لا ينتظر الإجابة. طلبت مني أن أنسى كل ما مر بنا، وأن أتصرف فقط كرجل يرى امرأة من قريته في محنة، وقالت إنها لن تبرر ما فعلته، لأنني لن أفهم، وقالت بصوت يمزج نبرات التحدي بنبرات الألم: إننا شركاء وكلانا أنقذ الآخر وساعده، ولا تطلب مني غير إكمال شراكتنا فقط.

وافقتها وطلبت منها أن تتركني أنام قليلاً، فرجتني أن أخرج لأنام في الخارج، فهي لن تستطيع النوم وحدها في هذا المكان. إذًا من سينام على الأريكة ومن سينام على الأرض؟ هل لأنني رجل يجب عليّ أن أتحمل النوم على الأرض من أجلها أم يمكنها أن تتنازل وتنام هي على الأرض؟ كان هذا هو سؤالي بلغة باردة، كلغة المرأة التي كانت تتحدث منذ قليل.

في النهاية اقترحت أن تحرك الأريكة الى جوار باب الغرفة، وأن تتركني أنام على فراشي وأترك الباب مفتوحًا. وافقتها بذات اللهجة الباردة، وأنا أشتعل غيظًا منها؛ لو أنها اعتذرت أو بررت أو قالت أي شيء يجعلني أعيد التفكير، لكنها كانت تبكي وتتعامل بغطرسة الأيام الأولى في نفس الوقت. تطلب المساعدة وتأبى أن تعتذر عن كذبها.

رقدت على فراشي بعد أن ساعدتها في تحريك الأريكة، ودخلت دون أن نتبادل كلمة. أفكر في مصيرنا قليلاً وفيها هي كثيرًا. يتغير فكري ناحيتها عشر مرات في الثانية الواحدة. أرثي لها، وألعنها، وأعذرها، وأدينها، والتمس لها العذر مرة، والتمس لقلبي السلامة من عواقب التسليم لها مرات.

أقول لنفسي لن تكون هي الاستثناء بين النساء، هي واحدة منهن تحترف الكذب وتبرره، كلما كان ذلك في صالحها، وتقول لنفسها إن الكذب حيلة الضعفاء، وإن الرجال مخلوقات خبيثة لا ينبغي التعامل معهم بصدق أو بحسن نية، ثم أعود وأتهم وسواسي المرضي الذي منعني من الحب ومن الإنجاب بأنه هو السبب وراء تلك الأفكار.

كنت نائمًا على جانبي الأيمن، ظهري تجاه الحائط ووجهي ناحية الباب، مغمض العينين أحاول النوم، ورأسي يموج بألف فكرة، حين فوجئت بها تدس وجهها في صدري وتنام على ذراعي هكذا، بمنتهى البساطة وبنفس البساطة، وجدتني أحيطها بذراعي وأضمها بنفس الطريقة التي كنا ننام بها خلال الأيام الماضية. لم تتبرر ولم أسأل، وكأننا عاشقان منذ مئة عام تخاصما وعادا دون مبرر.

فكرت أن أتكلم فأنا مضحوك عليّ هكذا؛ لم آخذ حقي منها بعد.. كيف تعود الأمور هكذا لسابق عهدها ببساطة. زفرت دون أن أتكلم، وتنهدت هي ثم تسارعت أنفاسها، ثم انقلبت نحيبًا بصوت عالٍ، وهي تقول: "أنا آسفة يا عمر"، واندفعت تحكي عن تاريخ لها أسود مع الرجال، وكيف أنها لم تعد تأمن لرجل منذ زمن، وأنها كذبت عليَّ في البداية، ثم جرفتنا الأحداث فلم تجد فرصة لتقول لي ما حدث.

بكت ودموع النساء قد تخدع، لكني شعرت بها تنسكب على قلبي وتوشوش في أذني بأنها لم تسكب إلا لأنها تفتقدني. كنت صامتًا لا أرد إلا بضمي لها، لا أقدر على الكلام، قالت إنها لم تستوعب كثيرُا مما قالته العالمة التي شرحت التجربة، وأنها كانت تفكر فقط في قلبي الذي سيتغير بعد ما حدث، وتفكر في الطريقة التي ستصلح بها ما انكسر بيننا.

تكلمت أخيرًا وقلت لها أن لا مشكلة، وأنني أعذرها، أخذت تستحلفني بكل عزيز وغالٍ وتقسم لي أنها لن تكذب عليّ أبدا، فقلت لها ثانيةً: "لا بأس". لم تكف عن الكلام، وقالت إننا ينبغي أن نفكر في الغد، وفيما سنفعله، وخطتنا وكأننا ينقصنا الوقت، وكأنها لم تفهم أن كل ما هو مطلوب منا هو أن نصبر. "اتخمدي بقى" قلت لها وأنا أضغط رأسها في صدري، فضحكت ضحكة رائقة، وهي تقول إنها لأول مرة تجد هذا اللفظ ممتعًا.

٢٦

مضى أسبوع منذ أن زارته زهرة وأكملت مهمتها، وعدته بزيارة أخرى قريبة دون أن تحدد موعدًا. أعطته رقم هاتفها وطلبت منه ألا يتردد في طلب مشورتها في أي لحظة، ووعدته بأنها ستكمل قراءة روايته كلما حالفها الحظ ووجدت بعض الوقت لفتحها. لم تطل جلستها معه في هذا اليوم وأحس بها متوترة تتجنب النظر في عينيه، لكنه يكاد يجزم أنها كانت تتمنى لو جلست وقتًا أطول وأن داخلها الكثير تريد أن تقوله لكن تمنع نفسها.

زاره ابن عمه زيارة مفاجئة لم يكن يتوقعها أبدًا. هو وابن عمه خصيمان منذ الطفولة، وزادت مع الوقت. كانا الحفيدين الذكرين الوحيدين للحاج عوض الله، وكانت دومًا بينهما مقارنة تنتهي دومًا لصالح ابن عمه ما جعل عمر يمقته. جربه أبوه في أكثر من صنعة وهو في بيته أو حين كان في بيت أخته أيام دراسته في المعهد الثانوي الأزهري، ولم يفلح في صنعة واحدة.

ترك محافظته وذهب إلى القاهرة من بداية دراسته الجامعية. مات أبوه وهو في السنة الثانية في الجامعة، وكان ابن عمه يجرب حظه هنا

وهناك، دون أن يغادر القرية، حتى اشتغل في زراعة السمك، وشيئًا فشيئًا بدأت حياته تتحسن، ولم يكن ينفك على التأكيد بأنه أفضل من عمر الذي لم يعرف نجاحًا يذكر، وليس عنده سوى كلمات مقعرة يقولها ليبدي للناس أنه أكثر فهمًا وتعليمًا.

بعد وفاة عمه وفَّى عمر بواجب العزاء ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع اقترح عليه ابن عمه أن يشاركه في مزرعة سمك ليوسع أعماله. وافق عمر واشترط عليه لو خسرت المزرعة أن يسترد ماله كاملاً، وفي المقابل لو كسبت سيرضى بنسبة من الربح أقل من المتعارف عليها. حدث ما كان يخشاه وتمت سرقة المزرعة، وخسرا الكثير، وطالب عمر بنقوده ولم يوافق ابن عمه بالشرط، واجتمع الكبار وحكموا بينهما، لكن عمر لم يعجبه الحكم، فقد رأى أنهم يحابون ابن عمه لأنه يعيش بينهم.

انقطعت علاقته بالقرية من يومها منذ أكثر من ثمان سنوات، لامه الكثيرون على غضبه، لم يقتنع أنه مخطئ، ربما كان يمكن أن يتجاوز ويسامح في خسارته، لو كان شريكه شخصًا آخر، لكنه مع ابن عمه كان يحمل تاريخًا طويلاً من الغيرة وسوء الظن.

زاره ابن عمه مرتين من قبل، والثالثة كانت هذا الأسبوع. أحس عمر بعدم ارتياح لم يدر ما سببه، جلس ابن عمه معه بعد أن أحضر زيارة سخية، وجلب معه ابنه الأكبر ذا الخمسة عشر عامًا، ومضى يحكي أمام ابنه عن الحب بينه وبين عمر، وأنه الشقيق الوحيد لأبيه، والولد مبتسم ابتسامة عريضة خالية من أي دفء. مكثت زيارتهما ساعة كان عمر خلالها ينتظر ليعرف سبب عدم ارتياحه، ولم يطل

انتظاره فقد فاتحه ابن عمه في إدارة دكانه، وأنه لا ينبغي أن يترك للغرباء ماله سائبًا فيتعلمون السرقة.

كان يعلم أن ابن عمه هو أول وارثيه في حال وفاته، لكن لم يخطر بباله أن يكون هذا هو سبب الزيارة، فرد على ابن عمه بجفاء طالبًا منه ألا يشغل باله بإدارة الدكان، وأنه يأتمن الغرباء أكثر من بعض أهله. "إبقى استنى لما أموت وبيع الدكان بالصنايعية اللي فيه"، قالها لابن عمه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، فرد ابن عمه بصوت نزل لزجا على أذنه: "ربنا يديك طولة العمر يا أخويا.. إحنا يهمنا إنك تطيب، وغلطك فيا أنا مسامح فيه".

تركه وانصرف وابنه في ذيله، وعمر يشيعهما بتمتمة مليئة باللعنات. كان أهل بلدته منقسمين حوله: البعض يقول عنه مغرورًا بلا سبب، والآخرون يرونه براويًّا لا يحب الناس، والقليل يرونه على حقيقته شخصًا ملولاً وحيدًا محبطًا من كل شيء.

لم يتغير شعوره بالحياة إلا حين كان على الجزيرة، ولم ترتوِ صحراء روحه إلا حين كانت هي تنام بين ذراعيه. يخشى أن يصارحها بالحقيقة ثم يموت، فيهديها ذكرى أليمة ويجعلها تبكي الحب الوحيد الذي ملأ حياتها. يخشى أن يعيش ويذكرها فلا تتذكر وتصده أو تتهمه بالجنون ويعود لحياته المقيتة قبل الجزيرة وحيدًا حانقًا على الدنيا والناس، غير أنه الآن سيعيش حاملاً تشوهات حروقه إلى جانب تشوهات روحه.

زاره الطبيب الأجنبي؛ أولى حالته اهتمامًا خاصًّا لأن نوعية حروقه كانت غريبة ومختلفة. طلب منهم صورًا لأيامه الأولى بعد الحرق، وحين رآها كان حائرًا لأن شكل الإصابة وتوزيعها لا يتماشى مع أي شيء رآه قبلاً.

طلب منهم أن يكشفوا جروحه، ووقف مع أطبائه في غرفة الغيار، يرتدي كيسا بلاستيكيًّا فوق بزته الفاخرة، ويتابع في اهتمام إزالة الأربطة والأغطية من على جروحه. كان بعض جروحه نظيفًا وبعضها لا يزال مغطى بأنسجة ضارة. كان الطبيب من أصول عربية، وكان يحاول أن يتفاهم معه بشكل مباشر، فسأله بعربية متكسرة عن سبب حروقه، فقال عمر إنه لا يذكر. تبرم الرجل من رده وقال: "إن عدم إفصاحه عن طريقة إصابته لا يخدم علاجه"، ولكن عمر لم يغير من كلامه.

بعد مناظرته تحدث معه الرجل قائلاً: "يبدو أنك عميل سري يا سيد عمر، ولا تريد أن يعرف أحد سبب إصابتك، وهذا حقك، لكن على العموم أطباؤك هنا يقومون بمجهود رائع في علاجك.. أعجبت جدًّا بالطريقة التي استخدمت لتسكين آلامك، رغم تحفظي عليها في حالة كحالتك. أنت تحتاج إلى بدائل جلد، وهي غير متوفرة في مصر، ومرتفعة الثمن للغاية حتى بمقاييسنا في أوربا. البديل الذي اقترحته على أطبائك هو البدء مباشرة بإجراء عمليات ترقيع لحروقك تكون صغيرة، وإذا أمكن أن يجدوا متبرعًا يعطيك جلدًا يغطي جراحك مؤقتًا فستتحسن فرصك في النجاة".

سأله عمر عن فرصه في النجاة في حال وجود متبرع، وفي حال عدم وجوده، فقال الرجل إن حالته ليست بهذا السوء، وأن قليلاً من المجهود الإضافي والدعم المادي سيجعلان أمر نجاته محتملاً جدًّا، خاصة إذا تبرع له أحدهم بجلد. قال له إنهم في أوربا لديهم بنك جلد يصدره إلى بلاد العالم، لكنه مرتفع الثمن أيضًا، وقد يستغرق شحنه وقتًا يجعله غير مفيد حين يصله.

كان يشرح لعمر بعربيته المتكسرة ثم يجيب عن أسئلة أطبائه بالإنجليزية، أغمض عمر عينيه وأصوات نقاشهم تطرق سمعه، ولا يفهم منها الكثير. انتبه فجأة حين سمع صوتًا أنثويًّا مميزًا دافئًا هادئًا واثقًا يتكلم بالإنجليزية، ويعرف بصاحبته ودورها في علاج عمر. نظر إليها وهي تتكلم وتتناقش مع الرجل في حالته، والرجل يرد عليها ويسألها بدوره، ويبتسم معجبًا بكلامها. كان يشعر بالفخر، وهي تَنظِّر لرأيها، واعتقد أنها غالبًا تقنع الرجل بطريقتها في علاج الألم.

إضافة إلى تغييرها أبجديات روحه، قامت زهرة بتغيير تفصيلتين صغيرتين في حياته. أولهما أنه تقبل أن ينام وهناك شخص آخر ملتصق به، وثانيهما أنه لا يغار من المرأة التي (معه). لأول مرة ينظر بفخر لامرأة في حياته ولا يضايقه أنه يرى قدرتها وحضورها.

انتهى المرور وانصرف الرجل وجلست جواره، وهي تقول لنفسها إنها قررت زيارته اليوم لسببين مهمين: أولهما الاطمئنان على حالته من ذلك الرجل، والثاني أنها تريد أن تفهم ماذا يحدث، وما الذي فعله بها ذلك الرجل البائس الراقد على فراش تلتهم أعضاءه الحيوية سموم الحروق وتبعاته.

قالت له إنها مرت بحادثة غريبة منذ فترة، وأن الحادثة أثرت على نظرتها للحياة، وأن ثمة فجوة داخلها تركتها تلك الحادثة، لم يملأها شيء إلا وجوده. أخبرته أنها استشارت طبيبتها النفسية لتفهم ما سبب تعلقها به وراحتها حين تراه، ولماذا يتردد كلامهما في ذهنها بعد أن تمشي، وكأنه تكملة لكلام قالاه منذ زمن. كانت تشعر حين تجالسه أنها تفعل ذلك منذ زمن طويل. ما لم تخبره به وأخبرت طبيبتها به أنها وهي

تنصرف عنه تشعر لوهلة أن من الطبيعي أن تقبله قبل أن تنصرف. لم تخبره أنها تراه في أحلامها رجل حياتها، تراه صديقًا يدرس معها وحبيبًا يقبلها أسفل شجرة زرقاء وعاشقًا يضمها في فراش صغير.

أخبرته أن طبيبتها قالت إنه يشبه أحدًا مرّ في طفولتها، أو أن طريقته مثل طريقة أبيها أو جدها، لكن الطبيبة لم تفسر لماذا هو أيضًا متعلق بها، ولماذا بكى حين قالت إنها لن تزوره ثانية. لم تخبره أنها قالت أيضًا أن تعلقها به قد ينبع من افتقادها للحب وضياعه من بين يديها، حين ظنت أنها وجدته، وأن تجاوبها الغريب مع مشاعره ليس دليلاً على أن مشاعرها حقيقية، وإنما مجرد تعلق بلحظة غريبة عليها خاصة، وأنها لم تتعافَ نفسيًّا من الحادث الذي تعرضت له.

كانت مسترسلة معه في الحديث غير مكترثة لعيون تأتي تنظر إليهما باستغراب وتنصرف، ولا لإطراء هند عن طيبتها التي جعلتها تزور عمر وقد أنهت مهمتها معه، وهو الإطراء الذي حمل في طياته تساؤلاً عن السبب الذي أتى بها إليه اليوم. سألته عن طفولته وهل بالفعل حاول أن يتعلم أكثر من صنعة وفشل فيها؟ وكيف استطاع مع تلك الظروف أن يكون قارئًا ثم كاتبًا؟

قص لها عن أبيه الذي كان يراه ضعيفًا في تحصيل العلم، وأراد أن يكون له صنعة تَقِيه عاقبة الفشل في العلم، وعن خيبة أمله المتكررة في ابنه الوحيد وهو يخرج من كل صنعة مطرودًا بعد أن يئس الأسطى منه. كيف كان يشتري القصص المستعملة ويقرأها أثناء عمله، وينال بذلك تقريعًا وأحيانًا ضربًا بسبب أخطائه التي نجمت عن قلة تركيزه في العمل.

أشار إلى جرح في جبهته، وقال إنه أصيب به حين كان يساعد ميكانيكيًّا في عمله، وأنه فتح رأسه لأنه ثبت صامولة بشكل خاطئ. حكى لها كيف قام أبوه بشتم الميكانيكي وتهديده بطرده من البلدة بسبب قسوته على ابنه، رغم أن هذا الأب الطيب ذاته هو من قضى ليلة بأكملها يضربه قبلها بأسبوع.

"أكيد كنت عامل مصيبة"! ضحك وقص عليها كيف خبأ نقودًا كانوا قد أعطوه إياها منحة في مدرسته. كانت ثماني جنيهات، أنفق ثلاثة منها كاملة على شراء القصص، وأضاع خمسة، وحين عرف أبوه أقام محرقة للكتب وحفل تأديب له. ضحكت وهي تقول إنها كانت الطفلة المدللة في بيت أبيها، المتفوقة التي يشيد الكل بها، لم يضربها أبوها مرة. "مقولتلكيش ع العلقة الكبيرة"! كان في الإعدادية يعمل عند الكهربائي، وكان يجلس في الدكان ويقرأ قصة كالعادة، وباع بالخطأ أغراضًا ثمينة، ونسي أن يقبض الثمن. لم يصدق الأسطى وأصر أنه سرقه وطالب أباه بالمال. لم يقبل أبوه اتهام الرجل، وقال إن ابنه تربى جيدًا، وأنهم بيت شرف، وأعطاه المال قائلاً إن الولد أخطأ لكنه ليس سارقًا. ذهب إلى البيت مع أبيه فخورًا بدفاعه عنه، ولم يكن يعلم أن علقة محترمة كانت في انتظاره.

ضحكت على طريقته وهو يصف العلقة، ويصف ما حدث بعدها، وكان يتكلم كأن كل جروحه طابت، وأنه يستعد للذهاب إلى بيته. قال لها لو أنه مات فلن يكون حزينًا أو نادمًا ولن يشعر أن عمره انقضى بلا جدوى، وأن ساعة بقربها الآن تكفي ليموت راضيًا.

قالت والصوت يغادر حنجرتها بصعوبة: "ليه.. إيه السبب؟ هتجنن يا عمر! حاسة إن فيه حاجة ناقصة مش فاهماها"! قالتها

والدموع تتألق في عينيها من فرط الحيرة. سألته عن شادية وقالت إنها تشعر أن الكلام الحلو بينها وبين عمر الذي في الرواية حقيقي وليس خيال مؤلف، وأنها أحيانا تعيد قراءة لحظاتهما المشحونة مرات ومرات، وكأنها تجتر ذكريات عاشتها. قالت إن تصرف شادية معه هو التصرف الطبيعي الذي كانت ستفعله لو أنها في موقفها، رغم استهجانها الشديد لكون فتاة تقبل رجلاً غريبًا ناهيك عن النوم في حضنه.

مد يده وأمسك يدها، لم تجذبها منه، تركتها تنقاد لكفه وهي حائرة مضطربة. عيناها تنظران إليه بمزيج من الفزع والدهشة وشفتاها مرتعدتان، وحبات من العرق البارد تتفصد من جبينها. اختفت الغرفة وأجهزتها وستائرها، واختفى الأطباء والممرضات وبقية المرضى. تلاشت جدران المستشفى وحل محلها أشجار مورقة وضفة نهر وشلال بعيد وهو وهي فقط.

طبع على كفها قبلة، فأفاقت ونزعت يدها، وقال له بصوت ضارع: "انت عملت إيه؟ انت مين"؟ طلب منها أن تطيل النظر إلى عينيه، أن تتأمل الألق في دموعه، أن تنظر إلى صدره وتنسى أنه مغطى بالضمادات، وأن تحاول أن تتذكر. طلب منها أن تتذكر ما بين سطور روايته، وأن تحاول اكتشاف روحها في كلمات شادية، وخوفها وذكائها وحسن تصرفها. أن تربط النقاط ببعضها وترسم صورة مكتملة لشادية، ثم تنظر إليها لتكتشف أنها تنظر في مرآة صافية، وأنها هي التي خرجت من بيتها ذات يوم لتسكن غرفة في قلبه وتتوزع كلمات بين صفحات قصته.

٢٧

مضى ما يقارب الشهر منذ أن تركنا هؤلاء الملاعين ومضوا، لم يكن الأمر بهذا السوء، بل إنني أستطيع أن أقول إننا وجدنا الكثير من الراحة والمتعة. في الأيام الأولى القليلة كنت أخرج وحدي حتى أتركها لتتعافى تمامًا، أجلب الثمار وأملأ المياه من الجدول القريب، ونجحت مرتين في اصطياد فرائس لنأكل لحمها. بعد ذلك صارت تخرج معي نتجول في الغابة، ونجلس أحيانًا على ضفة النهر، ونعود آخر اليوم إلى مهجعنا نحكي ونتسامر.

في ذلك الشهر قصت عليّ تفاصيل حياتها بالكامل، وكأنها تعوضني عن الفترة التي كانت تخبئ عني حقيقتها. قصت عليَّ كيف كانت تعاني في بداية مهنتها، وكيف كانت تواجه وتتحدى زملاءها ومرؤوسيها، وكيف كانت تهادن وتخضع لأساتذتها المتعجرفين، والذين يرى الكثير منهم أنها لا تصلح للجراحة بصفة عامة، ناهيك عن جراحة الأعصاب. عددت لي مئات المرات التي جلست فيها تبكي وحيدة في المكتب، في غرفة الإفاقة، في الحمام في أي مكان تضمن فيه ألا يرى أحد دموعها ولا ضعفها. كنت أنا أول رجل يرى دموعها بعد أبيها الراحل وأول رجل تغفو على صدره منذ ولدت.

يوم أن قلت لها أحبك للمرة الأولى كنا على الشاطئ، قررنا أن نقضي يومًا بين ماء البحر وشي اللحم، كانت قد استطاعت أن تولف تشكيلة من الأوراق والثمار تعطي للحم على هذه الجزيرة طعمًا أكثر قابلية للأكل. كان الحيوان الذي قررت اصطياده ذلك اليوم كائنًا بين التيس والوعل، وكانت قرونه متشعبة وحادة. حين رآني وقف بتحد يحك حوافره بالأرض، فطلبت من شادية أن تقف بعيدًا وأنا أراه يتجهز للهجوم عليّ.

جرى التيس نحوي مشرعًا قرونه نحو بطني، وقبل أن يصل إليَّ ملت جانبا ولمسته بالصاعق الكهربائي لكنه لم يعمل. هززته ثانية وجربته والتيس قد تجاوزني ووقف أسفل شجرة قريبة ينظر إليَّ ويحك قرنه بجذعها، كأن إفلاتي منه أصاب قرنه بالحكة. أمسكت بالسكين الذي كنت أحمله معي لتقطيع الأغصان متهيئًا لهجومه التالي، لكنه بعد أن أنهى حك قرنه استدار ومشى بتؤدة مبتعدًا، وسمعت شادية تتنهد شاكرة ربها، لكنني صرخت عليه متحديًا فالتفت إليَّ ووقف متحديًا يرفس الأرض بقوة.

كنا كذكرين يتنازعان منطقة نفوذ، ركض نحوي وركضت نحوه ثم ملت بجانبي وأنا أضربه بالسكين ضربة خائبة، جرحته دون أن تضعفه حتى. نادت شادية عليَّ وهي تقول لي ألا أحاول تقمص دور رجل الغابة القوي، وأن نبحث عن طريدة في مستوى قدراتنا. التفت التيس إليها وجرى نحوها هذه المرة وقد استفزه صراخها. جريت نحوه وهو غير منتبه إليَّ، حاولت طعن رقبته لكني أخطأت كالعادة فقفزت فوق ضهره وأوقعته أرضًا.

كان يحاول التملص مني حين طلبت منها أن تحضر السكين، وأنا أخشى لو أفلت ذراعي من حوله فسيفلت مني. فاجأتني شادية حين اقتربت بسرعة وغرست هي السكين في رقبته وذبحته كأنها جزار في المذبح. أخذ التيس يفرغ دماءه عليَّ وهو يحاول التملص مرارًا إلى أن همدت حركته في النهاية.

جررناه معًا حتى الشاطئ ثم طلبت منها مبتسمًا أن تسلخه هي، ريثما أنزل الماء أغسل الدماء عن جسدي وملابسي. استنكرت طلبي، فقلت لها إنها جراحة، وعليها أن تتولى الأمور التي تشبه عملها، وقد أثبتت قدرها على غرس السكين في الحيوانات بسهولة.

نزلت للمياه وأخذت أتقلب فيها بطريقة ساخرة، وهي تنظر إليَّ وتضحك، وهي تسلخ الحيوان ببساطة كأنها تقلم أظافرها. خرجت من الماء واقتربت منها مبتلاً، فقالت كلامًا وهي تضحك لم أذكره لأنني كنت أريد أن أهتف بأعلى صوتي في تلك اللحظة وأقول أحبك. قالت "مالك؟ فيه إيه"؟ قلت: "بحبك يا شادية! بحبك"! قالت إنها تعلم وأنها سمعتها مني كثيرًا، قالتها عيوني وشفتي، وقالها صدري الذي ضمها، وكفي التي احتوت خديها، قالتها دموعي وكانت أكثر وصولاً لقلبها.

"يعني مفرقش معاكي تسمعيها"؟ طلبت مني أن أغمض عيني وألا أفتحهما مهما حدث، أغمضتهما، فقالت: "بحبك"، ثم سألتني هل أحسستها، فأومأت بالإيجاب، طلبت أن أبقي عيني مغمضتين، ثم أمسكت كفي وفتحته، وقبلتها قبلة طويلة، ثم سألتني بأيهما شعرت أكثر. هل استوعبت أذني ما لم تستوعبه كفي، فتحت عيني ولم أرد، فقط تركتهما تطوفان حول وجهها وأنا أفكر في ذلك الحب الذي لم أتخيله يومًا.

قالت وكأنها تتكلم بلساني إنها لم تشعر من قبل بأمان كالذي تشعر به معي، وأنها لم تسمح من قبل لعواطفها أن تنجرف هكذا، وأنها على استعداد أن نعيش على تلك الجزيرة للأبد، ونكون نحن فيها آدم وحواء، يزوجنا الله وينعم علينا بأبناء يملؤون علينا هذه الجزيرة. كانت أول مرة أتقبل فكرة الأبوة وأشعر أنني أتمناها، سألتها هل تقبل أن تكون زوجتي على الأرض؟ فأجابت أنا زوجتك من الآن، وحتى تقوم الساعة، فهل تقبل؟ فقلت: "أقبل يا سيدة الدنيا وملكة هذه الجزيرة".

غبنا في قبلة طويلة أجفلت منها حين لمست صدرها. كانت أول مرة أفعل ذلك معها، نظرت إليَّ بوجه محمر من شدة الخجل، وهي تسألني: "ماذا تفعل"؟ قلت لها لقد بدأنا للتو طقوس الزواج، ضحكت بتوتر وقالت إنني أخيفها هكذا. ضحكت بدوري وقصصت عليها حكاية أول مرة ألمس فيها صدر فتاة أيام مراهقتي. كنت طالبًا في المرحلة الثانوية، وكنت أساعد مبيض محارة، فقاطعتني وهي تسأل، كم مهنة فشلت فيها؟ فضحكت وقلت لها: "خمسة: ثلاثة في إعدادي واثنين في ثانوي"، ثم أكملت قائلاً إنني كنت وحدي أرتب المؤن، وأنتظر الأسطى حين صعدت فتاة لي بالشاي، وهي ابنة قريب لصاحب البيت، تحضر لنا الأكل والشاي بانتظام، كنا نتبادل نظرات ذات مغزى كلما جاءت.

لم أدر ما حدث بيني وبين الفتاة، قبل أن يفاجئني صوت الأسطى صاعدًا السلم، فابتعدنا عن بعضنا بسرعة وجرت خارجة، رآها الرجل فطلب منها بضيق أن تنظف ملابسها. كنت واقفًا خجلاً أنكر أنني لمستها، فصفعني الرجل وهو يقول إن كفي مرسومان على صدرها ببقايا الأسمنت العالقة في يدي، ثم طردني شر طردة.

غَرِقت في نوبة من الضحك، ثم سألتني: "كنت بتلعب بديلك كتير"؟ أقسمت لها أنها كانت أول وآخر مرة، وأن الفتاة دفعتني دفعًا لذلك، وأنني لم ألمس نساء إلا زوجتيّ السابقتين، وأنني في أقصى لحظات الحميمية معهما لم أشعر بنصف ما شعرت به وأنا أقبلها، لم أشعر أبدًا بضمة احتوتني مثل ضمتها. "مصدقاك"، قالتها ثم رجتني أن أتمهل عليها، وألا أدفعها لشيء ليست مستعدة له، فأقسمت لها أنني لن أخذلها، ولن أُعَرِّضها لأي ضغط من أي نوع.

كنا نحاول كل بضعة أيام أن نغير عادتنا يوم على الشاطئ، يوم على النهر، وآخر عند سفح الجبل. كانت الأيام تسقينا من حلوها دون كدر، وكان هذا الأمر يقلقني، فلم تفعل الدنيا معي هكذا من قبل. كنت أتوقع أن يحل النياندرتال بتعهدهم ويتحفونا بِبَلْوة جديدة ولم يطل انتظاري.

كان النهار قد انتصف، وكنا معسكرين وسط الغابة، وقد نصبنا خيمة بين شجرتين كبيرتين. كنا قد تناولنا وجبة من ثمار مشوية، وجلسنا داخل الخيمة نتسامر، وأنا نائم في حجرها أداعبها، فأجذب وجهها نحوي لأقبلها، ثم تشد نفسها من يدي لتعتدل ثانية، ثم أسكت فتميل هي عليَّ تقبلني ثم تتملص من ذراعي، عاشقان لا يملكان غير الوقت الطويل.

فجأة سمعنا صوت ضجة في الخارج، وصياح حيوانات مختلفة الأصوات، خرجنا من الخيمة فوجدنا حيوانات كثيرة تندفع نحونا بسرعة كبيرة، كأنها تهرب من وحش ما. التصقنا بالشجرة الكبيرة الخالية، ثم رفعت شادية لتجلس على غصن قريب. تأهبت للصعود

بدوري حين اصطدم بساقي ذلك الحيوان ذو الجلد المدرع فسقطت أرضًا.

كانت هناك رائحة دخان في الجو وطيور في السماء تطير مبتعدة في نفس الاتجاه الذي تطير إليه الحيوانات، وشادية تشير لي أن أصعد. أخبرني حدسي بأن صعود الشجرة غير صائب، وأننا يجب أن نهرب في نفس الاتجاه نحن أيضًا. صدقت حدسي حين رأيت تيسًا يجري والنار مشتعلة بجسده ينقلها لبعض الأغصان الجافة أثناء جريه.

أنزلت شادية من على الشجرة والحيوانات ما زالت تجري، غير أن بعضها كان مشتعلاً. جرينا لكن بدلاً من أن نتبع الحيوانات تجاه الشرق جرينا تجاه الجنوب نحو ملجئنا، كانت تبدو خطوة صائبة وقتها، غير أننا حين اقتربنا من الملجأ وجدنا النيران تفصلنا عنه، وقالت شادية إنه من حظنا لأننا لو دخلناه وامتدت النيران فوقنا لمتنا مختنقين من الأدخنة.

غيرنا اتجاهنا وعدونا في قطيع واحد مع بقية الحيوانات، قطيع متنوع الأجناس كل ما يمشي على أربع كان معنا، إلا القرود التي كانت تقفز من شجرة لأخرى في خفة وسرعة. كنا نجري لاهثين متقطعي الأنفاس، فقد أوشكنا أن ننسى المعاناة والمطاردات، ونعيش كطيور الحب على جزيرة منعزلة.

كنت أجري فزعًا ومندهشًا من هذا الحريق الغريب، أتساءل ما غرضهم منه، هل يريدون حرق الموارد على تلك الجزيرة حتى نقرع زر الاستغاثة كلما أردنا أن نأكل. لو أنهم يريدون استسلامًا سهلاً هكذا، فَلِمَ التجربة إذًا؟ كان يمكن أن يسوقونا نحو ذلك المكان الذي ينوون تجنيدنا فيه.

أوشكنا على الوصول إلى الشاطئ حين تعثرت شادية، فجلست جوارها والحيوانات تمر من حولنا، وقد قل عددها حتى توقف تدفقها، ويبدو أن الجميع قد وصل إلى الشاطئ. كانت النار أيضًا قد تباطأت ولم تعد قريبة منا، لكن الدخان كان يأتي كثيفًا من ناحيتها يصيبنا بالسعال وحرقة العين.

عاونتها على القيام لكي نخرج إلى الهواء الطلق عند الشاطئ، الذي كان ظاهرًا لعيوننا. كانت الحيوانات هائمة على الشاطئ يختلط المفترس بالعاشب دون أي محاولة للصيد أو العراك، كأنهم كانوا يعرفون أنهم معرضون معًا لنفس البلاء، أو كأن بينهم قانونًا أخلاقيًّا يوجب السلام في هذه الأوقات. جلسنا على الشاطئ ناحية الغابة، ونتابع اقتراب الحريق، وفجأة رأينا قذيفة تطير فوقنا متجهة ناحية البحر، وسمعنا دويًّا عاليًا لانفجارها قبل أن ندير رؤوسنا وراءها ونشاهد المفاجأة.

٢٨

انفجرت القذيفة بعد أن اعترضتها قذيفة مضادة، خرجت من مركبة تشبه تلك التي كنا سنهرب فيها. كان هناك ثلاث مركبات: الوسطى في الأمام وكانت أصغر حجمًا ويمتد من جسمها ما يشبه منصات إطلاق صغيرة، انطلقت منها قذائف أخرى مضادة لتوقف قذائف جديدة جاءت من الجزيرة. في الخلف مركبتان: واحدة على اليمين، وأخرى على اليسار، الواحدة منهما ضعف حجم الوسطى.

كنا واقفين نشاهد المنظر، ونتساءل إن كان هؤلاء سينقذوننا أم أنهم هنا لغرض آخر؟ جرت الحيوانات فزعة من أصوات الانفجار يمينًا ويسارًا ونحن لم نحرك ساكنًا، مفعمين بالتوتر وترقب أمل نخشى أن يكون كاذبًا. انطلقت قذيفة كبيرة من المركبة اليمنى وحلقت نحو الغابة في اتجاه الجبل، وما زالت القذائف تأتي من الجزيرة تجابهها قذائف مضادة من المركبة الصغرى.

سمعنا انفجارًا ضخمًا أتى من ناحية الجبل، تلاه مباشرة نزول لعدة أشخاص من المركبتين الكبيرتين. كانوا يرتدون ملابس سوداء ملتصقة بأجسادهم، وخوذات تغطي وجوههم، وتلمع تحت ضوء

الشمس، جاء اثنان نحونا عدوًا واتخذ آخرون أوضاعًا دفاعية على الجانبين. أشار الاثنان لنا بالتحرك نحوهم، لكننا ظللنا مسمرين في مكاننا ملتصقين متوترين لا نعلم ما القادم.

"هيا بنا! لا يمكنكما إضاعة الوقت"، قالها أحد الشخصين، فسألته: إلى أين؟ فرد عليَّ بعصبية: "هل تريدان البقاء هنا"؟ في الحقيقة كدت أرد عليه بالإيجاب، فقد أحسست في الأيام السابقة أنني في الجنة، وأنني أنهيت كل أفعال الخير على الأرض، ولذلك كافأني الله بنقلي هنا. كنت أشعر أنني آدم وأنها حواء، ولم يعد ينقصنا إلا أن نملأ الأرض بذريتنا.

"مش هنتحرك إلا لما نعرف رايحين فين"! قالت شادية بحدة، وأمنت على كلامها، وقبل أن يرد الرجل فوجئنا بصوت طلقات تأتي من جهة اليمين. نظرت فرأيت مجموعة قادمة تجاهنا تطلق النار على الذين تصدوا لها من محررينا. بدأ تبادل إطلاق النار بين المجموعتين، وصرخ بنا الرجل لكي نتحرك تجاه المركبة، فرفضت بحزم. كان سبب رفضي أيضًا أن المرأة التي لقنتنا قواعد التجربة، قالت إننا لو حاولنا الهرب بمساعدة آخرين كما في المرة السابقة فسوف نوضع في سجن هنا مدى الحياة.

تكلم الرجل ثانية بعصبية وإطلاق النار مستمر، وزملاؤه يشكلون حاجزًا يحمينا من المهاجمين، ولكننا كنا مصرَّيْن على البقاء. الغابة تحترق ودخانها بدأ يغزو الشاطئ، ولو لم نهرب معهم سنعود للبدء من جديد في أطلال لا يمكن البقاء فيها، مع ذلك لم أكن مطمئنًا للذهاب هكذا. النشطاء الذين حاولوا تهريبنا من قبل كانوا هواة؛ أناس عاديون

يحاولون إحداث فرق بإمكانيات بسيطة، أما هؤلاء فيشبهون حملة عسكرية ومعهم أسلحة متطورة ورجال مدربون. ألا يمكن أن يكونوا تابعين لدولة أخرى على هذا الكوكب، ونحن هنا في خضم حرب بينهما أو على الأقل صراع مخابراتي.

كانت هواجس من عقل صار لا يعرف أي يقين فيما يحدث حوله، هل نحن في كوكب آخر؟ هل نخضع لتجربة علمية؟ هل سنعود حقًّا؟ لم يكن ثمة يقين في تلك اللحظة إلا شادية وعشقها، ويبدو أن الأمر كان معروفًا لهم؛ حيث صرخ الشخص الثاني فينا بحزم لنتحرك، ثم استل سلاحًا غريبًا يشبه القبضة الحديدية التي يستعملها البعض في توجيه اللكمات. وجهه ناحية المهاجمين وأطلق طلقة أسقطت واحدًا منهم كان يتسلل نحونا، ثم وجهه نحو رأس شادية قائلاً: "مهمتي هي إنقاذك أنت وإخراجك حيًّا من الجزيرة، سأقتلها ما لم تتحرك فورًا".

صدق حدسي هؤلاء الناس لا يحملون لنا خيرًا نحن مجرد مهمة، جزء من تجربة أخرى أو خطة لا نعرفها. أنا وشادية مجرد عينتين في تجربة، أو رقمين في معادلة، أو بالأحرى أنا العينة وهي أحد العوامل. بعد أن جربنا أروع أحاسيس حياتنا وعشنا روعة أن أكون أنا الرجل الأول وهي الأنثى الأولى، عدنا ثانية لواقع أننا مسيَّران في خطة لا يعلم نهايتها أحد. آدم وحواء بعد أن ذاقا حلاوة النعيم الآن يطردان إلى التيه.

جرينا مع الرجلين تجاه المركبة اليمنى، وزملاؤهما لا يزالون يبادلون المهاجمين إطلاق النار، ثم بدأوا يتراجعون حين أبصروا أن المهمة تمت، وأنه تم جلب العينات (نحن). صعدنا إلى المركبة على سلم

قصير تدلى منها، وخلفنا الرجلين يدفعاننا دفعًا حتى دخلنا وجلسنا على أقرب كرسيين أمامنا. دخل الرجلان بعدنا ثم اثنين آخرين ثم أغلق الباب وانطلقت المركبة.

كانت جدران المركبة تكشف لنا الخارج كأنها شفافة، وكان بقية الرجال يتراجعون للمركبة الأخرى. سقط منهم من سقط لكنهم في النهاية أجهزوا على مهاجميهم ثم أخذوا جرحاهم وركبوا المركبة الثانية، وانطلق الموكب بنا فوق المياه، أمامنا الأفق خالٍ: ماء وسماء فقط، وخلفنا سلسلة الجزر التي تتوسطها جزيرتنا التي يتصاعد الدخان من حريقها.

بدأت الجزيرة تتضاءل شيئًا فشيئًا كوطن يبتعد عنك كلما ارتفعت بك الطائرة، وعيناك مثبتتان على ما تبقى من صورته حتى تختفي تمامًا. جالت عيني في وجوههم بعد أن خلعوا الخوذات، كانوا رجالاً ونساءً متشابهين، نفس الأنوف والجباه والفم، لا تفرق بينهم في الشكل في رأيي إلا العيون، ولولا بروز النهدين لما استطعت أن أفرق رجلاً عن امرأة.

كانوا صامتين لا يتحدثون ولا يتبادلون النظرات، كأننا محاطون بتماثيل في متحف شمعي ساخر، يظهر إنسان ما قبل التاريخ مرتديًا ملابس من أفلام الخيال العلمي. كانت شادية تجلس على الكرسي المجاور لي صامتة، تنظر نحو الأفق، ساكنة لا تتحرك كأنها قطعة أخرى في ذات المتحف، لكنها قطعة مألوفة الملامح. وضعت يدي عليها لأبعث فيها طمأنينة لا أمتلكها، فأمسكتها وقبلتها وهي لا تزال تنظر بعيدًا.

كنت متيقنًا أنها مثلي رأسها يموج بأفكار كثيرة وبأسئلة لا حصر لها، وبحسرة على الجنة التي كنا نسكنها حتى قبل قليل. طلبت منها ألا تقلق، فهزت رأسها بالموافقة دون أن تتكلم، قلتُ إنني أشعر أننا طُردنا من الجنة، وأنني أتمنى العودة، فقالت: إنها جنة كاذبة! وأننا كنا نتوقع أن يفعلوا شيئًا في أي وقت ولم يتأخروا علينا. "بس دول مش تبعهم"، قلت لها مصححًا فنظرت إليهم بازدراء، وقالت كأنها تخاطبهم: "كلهم حيوانات".

لم ينظر لها أحد، وكأنهم لا يستمعون إلى حديثنا، فرفعت صوتها وهي تفرغ ما في صدرها من غيظ وحنق في شكل سباب متواصل، لم أكن أتوقع أن ثمة طبيبة تمتلك هذا المخزون منه. طلب أحدهم منها الصمت فلم تصمت، ومضت تتساءل وهي تسب، فأخرج أحدهم أداة مسننة ورفعها لأعلى ثم هوى بها على فخذي فصرخنا معًا. قال الرجل ببرود شديد: "إذا فعل أحدكما شيئًا فسوف أعاقب الآخر.. أنا مدرك لمدى تعلقك كل منكما بالآخر".

استمرت الرحلة والماء يبدو ممتدًا بلا نهاية، تصادفنا كل فترة أطلال بعضها يبدو كأطلال لمحطات استخراج النفط، وبعضها يظهر وكأنه مجموعة من حطام سفن ضخمة. بعد وقت طويل ظهرت أرض إلى الغرب منا، وتوقعت أن تتوجه المركبات ناحيتها لكنها استمرت متجهة نحو الشمال. بدأ مشهد غياب الشمس بألوانه المبهجة التي لا تناسب رحلتنا بأي حال.

أظلمت الدنيا وكان قمر صغير في السماء، والآخر غائبًا، ونجوم قليلة متناثرة هنا وهناك. أضاءت المركبة بنور خافت، والبحر لا يزال ممتدًا ولا أرض تبدو في أي اتجاه، وتماثيل الشمع كما هي لا تتحرك ولا

تتكلم. سألتهم عن وجهتنا وماذا ينوون أن يفعلوا بنا؟ لكن لم أتلق إجابة فصمت. أمالت شادية رأسها عليَّ أخيرًا وهي تطلب مني ألا أتركها، سألتها لماذا تظن ذلك لم تجبني. صمتت قليلاً ثم قالت إنها لو ماتت الآن فسوف تكون مكتفية بما عاشته معي.

طال الوقت بنا في المركبة وبدأنا نغفوا ونحن جالسين على مقاعدنا وتماثيل الشمع، كما هي لا يبدو عليهم تعب ولا نعاس. رحت في النوم دون أن أشعر وحين استيقظت وجدت شادية واضعة رأسها على فخذي، وقد غطت في نوم عميق، ورأيت تماثيل الشمع كما هي، وأولى خيوط الصبح تظهر في السماء والبحر لا يزال ممتدًّا. كان الرجال أمامنا ينظرون نفس النظرة نحو الأفق بنفس الثبات؛ هؤلاء عسكريون بلا شك، وقد يكونون أعضاء في وحدة كوماندوز أو ما شابه، وإلا كيف لهم تلك القدرة.

أخيرًا ظهرت أرض في الأفق بدأنا نقترب منها وبدأت تظهر لنا بعض المباني الشاهقة على أول اليابسة. انخفضت المركبة حتى كادت تلامس سطح الماء ثم سارت بشكل أبطأ. استيقظت شادية واعتدلت في جلستها، وهي تنظر نحو الشاطئ والأبراج الشاهقة بفضول. توقفت المركبة تمامًا ثم أعتمت جدرانها، ولم نعد نرى خارجها إلا من خلال زجاج في المقدمة. سمعت صوت ضجة، مثل حركة أجزاء معدنية أعقبها صوت ارتطام بالماء، والمركبة تلمس سطح البحر ثم تغطس أسفله.

نزلت المركبة التي تحولت لغواصة أسفل الماء، حتى عمق كبير كافٍ لاختفاء ضوء النهار من أعلى، ثم اندفعت للأمام حتى وصلنا إلى ما يشبه الحيد البحري. استمرت المركبة في الاندفاع نحوه حتى شعرت بأننا

على وشك الاصطدام. انفتحت كوة بين الصخور اندفعت فيها المركبة إلى داخل أنبوب معدني، احتواها كأنه مصمم على مقاسها. تحركت المركبة داخل الأنبوب بسرعة كبيرة وظلت هكذا عدة دقائق.

توقفت المركبة بهدوء في قاعة فسيحة يتوسطها أخدود صغير تقف فيه مركبتنا. كان هناك رجل بدين يقف في انتظارنا، وخلفه أربعة حراس بذلك الزي الذي يرتديه المرافقون لنا، لكن دون خوذات. كلهم حليقي الرؤوس إناثًا وذكورًا واقفين بثبات والرجل يتحرك نحو العربة مبتسمًا.

انفتحت المركبة ونزلنا منها، ونزل منها الرجل الذي هددني بإيذاء شادية أولاً. كان يبدو أنه قائد المجموعة، اقترب من الرجل البدين، ثم تكلم بلغة غريبة ورد عليه الرجل بطريقة موحية بالشكر. نزل بقية الرجال وانصرفوا خلف قائدهم، واقترب منا الرجل البدين قائلاً: "أهلاً بأصدقائنا الأعزاء.. أعتذر عن الطريقة التي جلبناكما بها إلى هنا، لكن أمن الجزيرة معروف بعنفه وأنتما عنيدان للغاية".

تسابقت أنا وشادية في توجيه الأسئلة للرجل، الذي ضحك وهو يطلب منا التمهل حتى نجلس. أخذنا من القاعة إلى غرفة صغيرة فيها طاولة طعام، عليها أطباق مختلفة، لكن دون ملاعق أو شوكات. كان على الطاولة أربعة كراسٍ جلس ثلاثتنا ثم جاءت امرأة وجلست معنا، قدمها الرجل على أنها ابنته، فسألته لِمَاذا يُعَرِّفنا عليها ونحن لم نعرف من هو حتى الآن؟

ضحك الرجل ثانية وهو يقول إنه يدير منظمة كبرى، هي التي رتبت عملية إخراجنا من الجزيرة، وأنهم يريدون مساعدتنا، فسألته:

"هل أنتم من النشطاء"؟ قال وهو يقضم ثمرة مطهوة: "أي نشطاء! هؤلاء مجموعة من الحمقى يظنون أنهم يمكن أن يغيروا العالم، ويصدقون الكثير من الخرافات التي اخترعها قادتهم الأوائل". تناول جرعة من عصير أمامه ثم تجشأ بصوت عالٍ، وأكمل: "نحن لا نحب السلطة ولا الأفكار الدينية المتشددة، ولسنا بلهاء ننشد عالمًا مثاليًّا.. نحن أصحاب استثمارات ولا نريد إلا المال فقط".

انقبض قلبي من إجابته، فهو ينفي عن نفسه تهمًا قد تعتبر توجهات لها تقديرها إذا تم توظيفها بشكل صحيح، ويؤكد أنه لا يطلب إلا المال، وهو الشيء الذي يبرر أي إثم للحصول عليه. وكأن ابنته قرأت أفكاري، فقد تدخلت في الحديث قائلة: "أعتقد أن هناك في كوكبكما من يبرر الكثير من الجرائم باسم سلطة الشعب، أو سلطة الوطن، أو الدين، أو باسم أفكار قد تبدو مثالية في ظاهرها". قلت – وأنا أضع في فمي بضع ثمرات تشبه العنب لم يكن هناك مثلها في الجزيرة–: "نعم لكن المال يدفع إلى جرائم أكبر، بل إنه أحيانًا قد يكون السبب الحقيقي وراء جرائم ترتكب باسم مبادئ أخرى".

نظرت شادية لي بغيظ، وهي تتمتم بكلام عن همي الذي ينصب على بطني، وفلسفتي التي ليس لها وقت الآن، ثم تدخلت في الحوار وهي تقول إننا لا نهتم بكل تلك الحوارات الفلسفية، وإننا نريد أن نفهم ماذا يريدون منا؟ وماذا سيفعلون بنا؟ نظر الرجل نحوها مبتسمًا وهو يقول: "يبدو أن السيدة حامية الطبع قليلاً.. اليوم أنتما في ضيافتنا سوف تستريحان قليلاً بعد الغداء، ثم لنا حديث آخر".

٢٩

جلست زهرة أمام طبيبتها النفسية على كرسي مخملي وثير، وهي لا تعرف من أين تبدأ. في النهاية قالت لها إنها ستقص عليها كل شيء، لكن ترجو منها عدم التسرع إلى تشخيص من علبة التشخيصات الجاهزة، وتفسر كل ما ستقوله طبقًا لهذا التشخيص. ابتسمت طبيبتها في تفهم، فهي معتادة على مثل هذه الطلبات حين يكون مريضها طبيبًا، وخاصة إذا كان تخصصه يقترب من المخ.

حكت لها رواية عمر أولاً، وحكت لها كيف أثرت مشاهدها فيها، وبالأخص تلك المشاهد المشحونة بالعواطف بينهما، وكيف تألمت بشدة حين قرأت وصفه لعضة الذئب فخذ البطلة. ردت عليها الطبيبة بأن هذا التعاطف شيء طبيعي لها، وخاصة أنها كانت مفتقدة للحب. "عشان كده قولتلك استني لما أخلص ما تحكميش دلوقتي"! قالتها زهرة بفراغ صبر، وهي تؤكد ثانية على أن التفسيرات الجاهزة غير مناسبة الآن.

أكملت الحكاية عن عمر وعن عشقه وعن لهفتها، تكلمت عن تفكيرها وانشغالها بمشاعره بطريقة لا تتسق مع أي منطق. كيف تنزل

أمامه من عليائها، وتشعر أنها مجرد أنثى فقط، تشبعها نظرته وتملأ وجودها لمسة حانية منه، ثم تترك ضعفها المكبوت يظهر أمامه دون خجل. قالت إنها تشعر أن أطباءه والمتواجدين حوله ينظرون إليها بطريقة توحي أنهم يعرفون أنها تبادله الحب.

"شوفي...."! همت الطبيبة بالتحدث، فطلبت منها ثانية أن تنتظر؛ لأن المشكلة الرئيسية لم تأتِ بعد. قصت عليها كيف قال لها عمر إنها هي بطلة قصته، وأن كل شيء في القصة حدث بينهما بالفعل، وقصت عليها كيف كان رد فعلها بأن أنهت اللقاء سريعًا وتركت المستشفى وكأنها تجري فعلاً من قطيع ذئاب يطاردها.

توقعت الطبيبة أن يكون سؤالها عن صحة عمر العقلية، وأنها عقدت هذه الجلسة لتسأل عنه، وليس عنها، وأنها تبرر ذلك الاهتمام الزائد عن الحد بتلك القصة الطويلة. لم تقاطعها وانتظرت حتى تفرغ ما في جعبتها. قالت زهرة إنه طلبها على الهاتف بعد ذلك، وحكى لها عن أسرار في حياتها لم يعرفها أحد من قبل، وادعى أنها قصَّتها عليه حين كانا في كوكب آخر.

قالت إنه لم يصف أحداثًا فقط، وإنما وصف مشاعرها تجاه أناس مروا في حياتها، لم تكن تجرؤ أن تصارح نفسها بها، وعن أفكار مجنونة كانت تخجل من إعادة تذكرها، كان يتكلم عنها وكأنها هي التي تتكلم عن نفسها. قالت إن غرضها من تلك الجلسة أن تفسر لها طبيبتها سبب أنها تجد نفسها أحيانًا تصدقه وتصدق أن ما حدث كان حقيقيًّا فعلاً وليس مجرد رواية.

"خلصتي.."؟ سألتها الطبيبة بابتسامة هادئة، فقالت لها: "آخر حاجة بس.. فيه آثار جرح فعلاً على فخدي ظهرتلي من بعد الحادثة، ومش عارفة سببها"! هزت الطبيبة رأسها متفهمة، وقالت أن ما تراه أمامها هي حالة من الاستغراق في عمر في حبه وفي قصته، وأن هذا مصحوب باستنكار نفسي شديد، جعلها تحاول أن تفسر كل شيء حولها بما يعطيها الحجة الوحيدة المقنعة لهذه العلاقة.

الرجل يهلوس وصار يخلط الحقيقة بالرواية التي كتبها، والأرجح أنه يعرف زهرة منذ زمن بعيد، قد تكون عالجت قريبًا له بالفعل أو شيئًا من هذا القبيل. أعجبته شخصيتها وتخيل أنها بطلة روايته، واستغرقته الحكاية حتى صار لا يفرق بين الخيال والحقيقة. ذلك الصدق في مشاعره (المبني بالأساس على هلاوس لم تحدث) جعلها تقتنع بما يقول وتستغرق في حكايته بتلك الطريقة.

آثار الجروح قد تكون أصيبت بها في الحادث، ولا تذكرها وهذا عرض مألوف، المعلومات التي يعرفها عنها قد تكون قصتها عليه في جلسات سابقة أو محادثات تليفونية ولا تذكرها؛ لأنها تود أن تصدقه، مشاعرها الخفية موجود لدى أغلب الناس مشاعر مثلها، وتصادف أن لمست نفسها تمامًا؛ بالضبط كما يقرأ الناس صفات الأبراج ويطبقونها على أنفسهم ويقسمون أنها حقيقة وهي مجرد هراء فارغ.

سألتها عن إمكانية أن يكون صادقًا ويكون كل شيء قد حدث فعلاً. المبرر الوحيد المقبول لعواطفها تلك من وجهة نظرها، هو أنها عاشت معه تجربة كتلك، وأنها عرفته فعلاً وأحبته من قبل، وأن عقلها الباطن يحرك مشاعرها رغم فقدانها لذاكرة هذه الأحداث. ردت طبيبتها

بأنها مقتنعة أن عقل زهرة الباطن هو من يحرك تلك المشاعر فعلاً، لكن لأسباب أخرى تتعلق بحرمانها النفسي الذي تكبته، وتحاول التغطية عليه باهتمامها بحياتها العملية وصراعاتها مع المحيطين بها.

ظلت الطبيبة تحلل كل جوانب القصة لتقنعها بحقيقة أنها متوهمة، وأنها لا تحب عمر حقيقة، ونصحتها بتجنب زيارته ومحاولة صرف ذهنها عن ذلك الموضوع بأي شيء. نصحتها بأن تسافر في إجازة بعيدًا عن كل تلك الضغوط، ووصفت لها بعض الأدوية، وحددت لها موعدًا لزيارة قادمة.

انصرفت من عندها ورأسها ما زال يتخبط، وإن صارت أقرب إلى الاقتناع بوجهة نظرها. مرت بسيارتها على المعهد الموسيقي الخاص الذي تعطي فيه دروسًا لابنة شقيقتها سلمى في العزف على الكمان. طيلة عمرها كانت تتمنى أن تمسك الكمان وتفرغ كل أحاسيسها في معزوفات تبهر الناس. أرادت أن تحقق حلمها في سلمى التي صارت ابنتها ومحور حياتها منذ أعوام.

دخلت إلى الغرفة الصغيرة، وكانت سلمى تعزف موسيقى "لاموني الناس". تعشق الأغنية الأصلية وتعشق إيقاعها المشحون بالشجن، والموال الذي يحمل أحزان قصة حب تخلو من المنطق. تنهي سلمى عزفها، فتحتضنها بسعادة، وتستمع بفخر لإطراء مدربها. تأخذها إلى البيت، وفي الطريق تسألها الفتاة عن سبب شرودها وتقول إنها تشعر أن هناك شيئًا ما يضايقها.

تفكر ماذا لو أخذت سلمى في رحلة خارج مصر أسبوعًا أو اثنين، وتبتعد عن كل شيء وتعود لتبدأ بداية جديدة. هناك مؤتمر في باريس

مطلع الشهر القادم، وقد كانت تفكر جديًّا في حضوره، ستأخذ سلمى معها وستتخلف عن حضور جلسات المؤتمر، وتمضي تزور كل مكان في فرنسا بدلاً من ذلك.

وصلت إلى البيت وقد هدأت خواطرها وصارت فكرة السفر تسيطر عليها. طلبت صديقة لها لتسألها عن مشورتها في إجراءات التأشيرة والسفر، وعن المواقع التي يمكن أن تعرف منها معلومات كافية عن تنظيم الرحلات. رن هاتفها، وكان على الطرف الآخر هند: "محتاجين حضرتك ضروري، عمر حالته وحشة ومحتاجين نفنتله ورافض".

اضطربت ضربات قلبها وهي تسمع الخبر.. عمر ساءت حالته لدرجة أنه يحتاج أن يوضع على جهاز تنفس اصطناعي، هل حان أجله؟ أصابتها الفكرة بقشعريرة وتدفق الدم إلى رأسها بعنف، وسألت عن السبب الذي يريدون لأجله وضعه على جهاز تنفس اصطناعي. قالت هند: إن معدل تنفسه تعدى الستين نتيجة التهاب رئوي أصيب به، ويحتاج الجهاز حتى لا يصاب بفشل تنفسي. قال إنه يشعر أنه لن يقوم من على الجهاز، وأنه يريد أن يقول لها شيئًا قبل أن يموت.

"فنتلوه من غير ما يوافق، إيه المشكلة"؟ قالتها وهي تعتصر قلبها، لكي لا تهرع إليه وتستنفد كل حيلة في الامتناع عن رؤيته. قالت هند إن القوانين تشترط موافقة المريض؛ لأنه لا يزال واعيًا، ولو وضعوه على الجهاز دون رغبته وتوفي لا قدر الله فسوف يتم مقاضاتهم بسهولة. شعرت بغصة في حلقها، وهند تتكلم عن موته بهذه البساطة، في النهاية حسمت أمرها وتناولت مفاتيح سيارتها ونزلت السلالم جريًا واتجهت إلى المستشفى.

كانت أنفاسه متلاحقة لدرجة تمنعه من الكلام بوضوح، وتجعل الإحساس بالألم مجرد عرض بسيط. أنفاس متلاحقة لا يستطيع كبح جماحها مهما حاول، كأن كل نفس يدخل صدره هو الأخير. يحاول أن يأخذ نفسًا واحدًا عميقًا يمكنه من الحديث، لكن تخونه رئتاه. كانت تلك حالته حين رأته، وكانت الأجهزة الموصلة به لا تكف عن الطنين المزعج المنذر بخطورة حالته.

سألتهم إن كان الالتهاب الرئوي هو السبب الوحيد لحالته، فأكدوا جميعًا أنها كذلك، وأنه يمكن أن يعود إلى التنفس بشكل طبيعي بعد عدة أيام إذا تحسنت حالة الرئة. جلست جواره تحاول أن تقنعه بالموافقة على وضعه على جهاز التنفس الصناعي، فحاول أن يغتصب ضحكة رغمًا عن جهازه التنفسي، الذي يقاتل لإبقائه حيًّا، ثم قال بحروف متقطعة: "أنا مش رافض.. أنا كنت عاوز أشوفك قبل ما أموت" ردت عليه وهي تدعو ببعد الشر عنه، فقال لها إنه لم ير مريضًا وضعوه على الجهاز إلا ومات بعدها.

دمعت عيناها رغمًا عنها، فمد يدًا مرتعشة ووضعها على خدها، ثم جاهد بصعوبة ليقول: "أنا عارف بعد ما أموت هتفتكريني وتفتكري كل حاجة حصلت"، قالت لتطمئنه أنها لا تحتاج أن تتذكر شيئًا لتحبه؛ لأنها في تلك اللحظة غارقة في حبه. جذب وجهها نحوه وقبل خدها بفم مرتعش، ووجه يتحرك جانبًا مع كل نفس يأخذه. تركته يقبلها رغم وجود هند، وكأن مرضه كان عذرًا لتلك القبلة، أو كان حبهما الذي بدا واضحًا للجميع سببًا مقنعًا لقبلة كتلك.

همس في أذنها برجائه الأخير وهو ألا تبكي عليه، وأن تنشر روايته، وتكتب أنها مستوحاة من أحداث حقيقية، وأنه كتب توكيلاً لها بنشر الرواية. قالت إنه سيتعافى ويكملها ثم ينشرها هو ويفرح بنجاحها. مد يده المرتعشة تحت وسادته وأخرج قرص تخزين، وأعطاه لها، وقال لها إن هذا يحوي نهاية الرواية. "بحبك"! قالها ثم أشار لهند طالبًا منها أن تقوم بمهمتها.

وقفت تنظر من بين دموعها لهم وهم يحقنونه بالمهدئات، ثم يضعون الأنبوب الحنجري في حلقه، ويوصلونه بجهاز التنفس الاصطناعي. راقبت صدره وهو يعلو ويهبط بانتظام والأجهزة التي كانت تطن بشكل مزعج، وهي تدق بهدوء معلنة نجاح الجهاز في مد جسمه بالأكسجين الكافي. وقفت على جانب تبكي دون أن تحاول إخفاء دموعها، واقتربت منها هند وضمتها وهي تطمئنها أنه سيعيش، وقد سلمت بحقيقة أن زهرة هي أقرب الأحياء لذلك المريض المسكين.

٣٠

أدخلوني غرفة صغيرة وأدخلوا شادية في غرفة مجاورة، وتحججوا بأن الغرف هنا فردية، ولا يمكن أن يجلس فيها اثنان بأي حال. كانت أشبه بزنزانة سجن؛ سرير عرضه أقل من أن تتقلب فيه على راحتك، وطاولة صغيرة بالكاد يوضع عليها كوب شاي وطبق صغير وحمام ضيق. جلست أقلب الأمور في رأسي قلقًا من منظر ذلك الرجل وكلامه المريب.

حاولت النوم وبالكاد غفوت. جاء أحد الرجال المسلحين وطلب مني أن أتبعه، مشيت خلفه في ممر طويل خالٍ من الأبواب يفضي إلى قاعة كبيرة، تشبه قاعة اجتماعات. تركني الرجل وجاء بعده الرجل السمين وأخذني إلى غرفة جانبية كانت تجلس فيها شادية وابنته.

جلس الرجل وتناول مشروبًا من على الطاولة، وأشار إلينا أن نحذوَا حذوه. تذوقت المشروب بحذر أولاً، لكنني شربت الكوب كاملاً حين أعجبني طعمه. "قلت لكما من قبل إن كل ما أريده هو خدمة بسيطة، في مقابل خدمة كبيرة أسديتها لكما، وهي تهريبكما من الجزيرة ووعدي بمحاولة إعادتكما إلى الأرض". همت شادية بالحديث لكنه أشار لها بصرامة أن تنتظر.

"أنا رجل مستثمر، دفعت أموالاً وأريد استعادتها مع الأرباح، وأنت يا عمر ستساعدني في ذلك، فالأغنياء في مجتمعنا مهووسون بفكرة التناسل مع الأرضيين، وهناك سوق سوداء رائجة يتم فيها اختطاف أرضيين من عينات التجارب بتواطؤ من بعض المسؤولين، ويتم استخدام نطفهم في إجراء عمليات تلقيح صناعي لسيدات يدفعن مبالغ طائلة، مقابل الحصول على أجنة مهجنين".

نظرت إليه بفراغ صبر، وأنا أطلب منه ألا داعي لأن يكمل، وأنني موافق على أن يأخذوا مني ما يشاؤون من النطف مقابل إطلاق سراحنا في أقرب فرصة. نظرت إليَّ شادية في استنكار، وقالت إنني أتناسى أن الأطفال الذين سيولدون بهذه الطريقة هم أبنائي، قلت لها إننا مجبرون ولا خيار لدينا فأصرت على الرفض.

"العزيزة شادية"! قالها الرجل بابتسامة صفراء، وهو يشير لخادمة بإحضار شيء ما، ثم أردف: "أنتما هنا أسرى، هذه هي الحقيقة التي يذكرها عمر، وتتناسيها أنتِ، وهناك حقيقة أخرى لا تدركانها جيدًا، وهي أن المتعصبين الذين يسيطرون هنا سوف ينقلون الملايين منا إلى كوكبكما، وقد تكون بلدكما إحدى المستوطنات التي يختارونها حسب تفسيرهم للكتب الدينية"، نظرت ابنته إليه بدهشة، وكأنه يبوح لنا بسر حربي، فقال لها إن معرفتنا لن تغير من الأمر شيئًا.

سألته شادية: "وماذا عن الآخرين الذين يرفضون هذه الهجرة"؟ ضحك الرجل وهو يقول: "هؤلاء يرفضون فقط لإرضاء ناخبيهم، لكنهم في الحقيقة مستثمرون ويخططون من الآن لتحقيق استفادة عظمى من تلك الهجرة، وفي نفس الوقت يستفيدون من الأبحاث على جينات

الأرضيين الذين يخضعون للتجارب هنا.. كل واحد منهم يستثمر في منطقته: هناك من يستثمر في الدواء، ومن يستثمر في البناء، ومن يستثمر في السلاح، ويعكف على دراسة كل أنواع التسليح على كوكبكم".

تبادلت أنا وشادية نظرات قلقة، وقد وقع في قلوبنا أن هؤلاء النياندرتال قادمون إلينا. حقًّا حاولت ابنته التخفيف من وقع كلماته، بأن قالت إن كل هذه الخطط لا يزال أمامها معوقات جسيمة، وأنها قد لا تجد طريقها للتنفيذ قبل قرن من الآن، ثم قالت: "وسيكون هناك تدابير لكي لا يتأثر أحد من الأرضيين بهجرتنا تلك أو على الأصح هجرة أحفادنا و....". قاطعها الرجل ووجه كلامه إلينا وهو يقول: "فكرا بالأمر جيدًا: إما أن تساعدانا أو نترككما تعيشان هنا للأبد". كانت لهجته حاسمة وأنهى بها المقابلة، ثم قال للحرس وهو ينظر إلينا متصنعًا اللطف: "خذ العزيزين عمر وشادية لغرفة الضيوف المهمين، ووفر لهما كل ما يحتاجانه من وسائل الراحة".

أخذنا الرجل إلى غرفة فسيحة كغرف الفنادق الفاخرة، يتوسطها سرير فخم وبها طاولة وكراسي مبطنة وحمام كبير. كان على الطاولة عشاء وشراب، لكننا كنا مهمومين بالتفكير في كل ما قاله، جلسنا على الكرسيين نتحدث وأحاول أن أقنعها أنه لا خيار لدينا، وأنه لا يمكننا البقاء هنا. كيف لنا أن نرفض ونحن ما زلنا أسرى في هذا المكان اللعين، إن ما يطلبونه منا الآن أهون كثيرًا مما كانوا يطلبونه على الجزيرة.

كانت متشككة لا تشعر بأدنى قدر من الراحة تجاه هذا الرجل، أو تجاه المرأة التي يقول إنها ابنته. قالت إنها تشعر بتوتر شديد، وقالت لي إنها تحتاج

إلى النوم قليلاً، وأنها لم تذق له طعمًا منذ أخذونا من الجزيرة. قمت معها ورقدت على الفراش، وأخذتها في حضني وأنا لا أشعر بأي رغبة في النوم.

مسدت شعرها وظهرها بكفي في هدوء، كي أزيل توترها وتبدأ في النوم. بدأت تمرغ رأسها في صدري، وهي مغمضة العينين وعلى وجهها شبح ابتسامة كتلك التي تراها على وجه طفل يتقلب في نوم هادئ. قبلت رأسها، ففتحت عينيها ونظرت إليَّ وقالت إنها تغار عليّ، وتغار من فكرة أن جزءًا مني سيذهب إلى نساء أخريات، حتى ولو لم أمسسهن. قلت لها إن هذا لن يقلل من حقيقة أني ملكها، ولأن ذلك الجزء مني ملكها كذلك فسأترك القرار لها.

قبلت صدري وكفي، وهي تهمس لي ببوح أحلى من قصائد ابن الفارض ومن موسيقى السنباطي. ختمت مقطوعتها الموسيقية بقبلة، وضعتها على شفتي، فمددت يدي وشددت على رأسها، وغبت معها في قبلة طويلة تبادلنا فيها نبض قلبينا قبل أنفاسنا.

كانت اللحظة تتصاعد بيننا وتحملنا على أجنحتها، وأوشكت أخيرًا على أن أضع رحلي وأقر في موطني. كنا ولكن اللحظة انقطعت وانطلق في فضاء الغرفة صوت طرق عالٍ متعجل، كأنهم يستدعوننا للتحقيق. فتحت الباب مواربًا، فرأيت حارسة غليظة الملامح حتى بمقاييس هؤلاء القوم، قالت إنهم يريدونني وحدي لأمر مهم. طلبت منها أن تنتظرني لحظات، فأخبرتني بحزم أن أعجل. أغلقت الباب وجريت على شادية وقبلتها وأنا أقول لها إنني سأذهب إليهم، ولن أتأخر، قالت إنها غير مطمئنة: "خلي بالك من نفسك"، قالتها وكأنها تودعني قبل أن أذهب إلى عملي في الصباح، وهي تعلم أنني لا أملك من أمر نفسي شيئًا.

ذهبت إلى الغرفة التي كنا فيها منذ قليل، كان الرجل البدين موجودًا ومعه رجل آخر وامرأة. بدأت المرأة الكلام بعد أن أشار إليها الرجل: "العزيز عمر.. الرئيس لم يتسن له أن يخبرك بما هو مطلوب منك بالضبط، فقد كانت شادية حادة المزاج وخشي أن يؤثر رد فعلها على قبولك للمهمة"، أشار إليها الرجل لتصمت وهو يزفر بضيق صبر وأكمل هو:

"نحن سنقدم خدمة لزبوناتنا وهي الإنجاب الطبيعي منك، دون أجهزة أو تلقيح صناعي"، نظرتُ إلى الرجل ببلاهة، وأنا أحك مؤخرة رأسي، فأكمل: "نريدك أن تنجب منهن يا عمر، هل هذا عسير على فهمك"! أجبته بأنني قد فهمت لكنني لم أستوعب السبب.

"التلقيح الصناعي ينجح في حالة واحدة فقط من كل عشرين"، قالت المرأة مبررة، فأكمل الرجل الثاني: "كنا نقدم خدمة التلقيح الصناعي مثل منافسينا، وقل إقبال النساء عليها؛ لأن الغالبية منهن يدفعن دون أن تنجح العملية، ولذا قرر الرئيس (أناندار) عرض خدمة الإخصاب الطبيعي في السوق بأضعاف السعر، وجاءتنا طلبات كثيرة، وكلهم دفعوا جزءًا من الأتعاب مقدمًا".

كنت أستمع إليهم وقد اعتدت على تلك الأخبار الصادمة والمهينة. الآن أنا بالضبط مثل عجل عمي (محمود أبو يوسف)، الذي كان الناس يستأجرونه لتلقيح جواميسهم في بلدتنا. لا يمكنني أن أقبل سأقاومهم مثلما قاومت حكومتهم في الجزيرة، وليكن العصيان من الآن.

"أنا أعرف أنك تفكر في الرفض، ولكن صدقني ليس لديك خيار"، قالها السمين (أناندار) قاطعًا أفكاري، فنظرت إليه بتحدٍ وقلت

اقض ما أنت قاضٍ، وشددت على أنني لن أستجيب لتعذيب أو ترهيب. "مسكينة شادية ستعاني لأن رجلها يريد أن يكون العاشق المخلص"، نظرتُ إليه وقد امتلأ فمي ببصقة أريد أن أرميها على وجهه، قبل أن يقوم من على كرسيه ويشير إلى الرجل الآخر بإكمال الحديث معي لأنه سينصرف.

أضاءت شاشة في الحائط المقابل لي، وبدأت المرأة بالحديث: "ما تراه على الشاشة هي الغرفة التي ستقيم فيها شادية بدءًا من الآن" كانت غرفة صغيرة لا تحوي إلا فراشًا ضيقًا ومرحاضًا صغيرًا، زنزانة حبس انفرادي كما تراها في الأفلام الأجنبية. بلعت ريقي بصعوبة وأنا أشعر بالقلق الشديد عليها، وهممت بالكلام، لكن المرأة أكملت: "هذه الغرفة تتغير في لحظة واحدة بكبسة زر هكذا".

ضغطت شيئًا بين إبهامها وسبابتها، فبدأت الغرفة على الشاشة تتغير. غاص الفراش في الأرض تلاه المرحاض واستوت أرضية الغرفة تمامًا. اقتربت الكاميرا من أرضية الغرفة التي بدأت تظهر منها زوائد مدببة: "تخيل حبيبتك في هذه الغرفة واقفة على قدميها ليلة كاملة لا يمكنها النوم ولا الجلوس ولا الراحة بأي شكل، وكلما خانتها ساقها وسقطت على الأرض من الإعياء قابلتها هذه الزوائد، مسببة ألمًا فظيعًا يجبرها على الوقوف ثانية".

صرخت بغضب وقمت متهجمًا على المرأة، فأمسكني رجلان وأجلساني عنوة على الكرسي، وأكمل الرجل الثاني: "ستقضيان يومكما معًا وسيبيت كل منكما في غرفة كتلك، ستخلد هي إلى النوم وستقوم أنت بأداء مهمتك.. إذا رفضت أداءها أو اشتكت العميلة من سوء معاملتك ستبيت حبيبتك الغالية ليلتها واقفة".

صرخت بغيظ، وخرج من فمي سيل من السباب، فقال الرجل بهدوء كأنه لم يسمعني: "عميلاتنا لا يردن إنجاب هجائن وحسب إنما يردن أيضًا تجربة جديدة... كلهن نساء يعشن حياة فارغة، لم تفلح في ملئها كل النعم التي لديهن، وستكون ليلتهن معك مجالاً جديدًا للتفاخر والمكايدة بينهن. تذكر أنت أول الأرضيين الذين نجلبهم ولن تكون الأخير.. قم بمهمتك جيدًا وسوف نعيدك لوطنك أنت وحبيبتك حين نحصل على أرباحنا".

٣١

في اليوم التالي أخذوني لغرفة جديدة، فيها طاولة لفحص المرضى، وطلبوا مني أن أخلع ملابسي بالكامل، وأن أرقد على الفرش منتظرًا الطبيب. كنت عاريًا تمامًا، عدا عن قطعة قماش صغيرة بالكاد تغطي سوءتي. تنهدت في ارتياح حين وجدت طبيبي رجلاً، اقترب مني وضغط زرًّا في جانب الطاولة، فارتفع منها ذراع جانبي في نهايته شاشة صغيرة.

مرر الطبيب قطعة صغيرة كانت في يده على كل جزء في جسدي، وهو يتابع الشاشة باهتمام. كانت الشاشة تصدر أصواتًا أحسب أنها أصوات أحشائي الداخلية وشراييني. صوت نبض وأصوات تنفس عند الصدر وعند البطن أصوات قرقرة، كالتي تصيبني وأنا جائع أو مصاب بربكة في أمعائي.

أنهى الطبيب عمله بعد أن أمسك عودًا يشبه أعواد البخور، ووضعه للحظات في فمي، وعودًا آخر في أنفي، وثالثا بجفن عيني، ثم في بقية فتحات جسدي. كنت مستسلما تمامًا كعروس يتم تجهيزها لرجل لا تطيقه، وقد فقدت كل إحساس بالرفض، فقط مجرد ملل

وانتظار ليمضي الوقت ولتنتهي المهمة. كان مجرد تخيل شادية واقفة في تلك الغرفة ذات الأرضية المدببة والنوم واقفة قد جعلني أفقد الرغبة في المقاومة. "الشتيمة ما بتلزقش"، قلتها لنفسي مبررًا وأنا أؤكد أن المهانة ليست كذلك.

سنعود إلى الأرض ونبني بيتًا ونعيش أسعد من الأيام القلائل الماضية، وسننسى كل شيء عن الجزيرة وعن النياندرتال. إذا كانت خططهم حقيقة فسيأتون بعد أن نكون قد متنا وتكون مهمة أحفادنا مقاومتهم، أو بالأحرى أحفاد الموجودين في أمريكا والصين وروسيا، فنحن العرب لدينا خبرة سيئة في مقاومة الغزاة المستوطنين الذين كلما حاربناهم زادت رقعة سيطرتهم.

لا أستطيع أن أمنع نفسي من عقد تلك المقارنة السخيفة بين ما ينوون فعله وبين ما جرى في أرضنا. أناس وجدوا أمرًا إلهيًا بطرد أناس آخرين من أرضهم، والعيش مكانهم والسعي لإقناع عالم بأكمله بأن لهم عذرًا في اتباع نصوصهم الدينية، مهما تضمنت من جور، وفي نفس الوقت يشيطنون نصوص الآخرين. سوف يسطون على دولة أو عدة دول أو قارة بأكملها، سيحاربهم العالم أجمع وحين يكتشف أن لا جدوى سيكتفي بالسلام، ثم ستجد من يبرر أنهم من حقهم العودة إلى أرضهم الأصلية وأن على الجميع التعايش مع ذلك.

مالي أنا ومال تلك الحواديت والافتراضات أن أمامي مهمتان أعقد من بعضهما: الأولى أن أكذب على شادية وأتظاهر بأنهم يأخذونني فقط للحصول على نطفي، ولا أعلم إن اكتشفت الحقيقة يومًا ما إن كانت ستغفر لي أم ستتهمني بالخيانة. مهمتي الأخرى أن أواقع نساءً خاليات

من الأنوثة، وأن أنجب منهن بل وأرضيهن أيضًا. كيف لي أن أفعل ذلك دون رغبة وبإحساس بالمهانة.

دخل عليَّ الطبيب ثانية، فأخبرني أن نتائج فحصي ممتازة، وأنني جاهز لمباشرة مهمتي. ابتسمت بسخرية مريرة، وأنا أشكره وأكمل ارتداء ملابسي، قبل أن أرتدي القميص استوقفني وأخرج محقنين من علبة كانت في يده، وغرسهما في كتفي واحدًا تلو الآخر. قال إن الحقنة الأولى هي أشبه بلقاح مخصص للقضاء على أي فرصة لانتقال الأمراض بيني وبين العميلات، والثانية مقويات تساعدني في إنجاز العمل.

اقترب مني وصار كلامه هامسًا كالفحيح: "اسمع أيها العزيز عمر، نحن لسنا في مقر شركة، هذا وكر عصابة، وهؤلاء الناس أغلبهم من المجرمين السابقين، ولن يتورعوا عن فعل أي شيء إذا عارضت مصالحهم"، لم يقل الرجل شيئًا جديدًا فمقار كثير من الشركات الكبيرة هي في الحقيقة أوكار عصابية، تتاجر بحياة الناس، لذلك لم أعر لكلامه اهتمامًا. قال: "ما أطلبه منك هو أن تعلم أنني هنا مجبر مثلك تمامًا، ولست ذلك الطبيب المشرف على المتاجرة بجسدك مقابل حفنة من المال".

يبدو أن هذا الكوكب يحمل تنوعًا كبيرًا بين ساكنيه، وأنهم كأهل الأرض فيهم الطيب والقبيح. شكرته بابتسامة مرحبة، فربت على كتفي واقتادني إلى خارج تلك العيادة، وسلمني إلى حارسي المرافق. عدت إلى الغرفة التي يسمح لي فيها بالجلوس مع شادية، والتي استقبلتني بلهفة وهي تسألني عن الأخبار.

قلت لها وأنا أحاول تصنع البساطة في الحديث، وأتجنب النظر إلى عينيها المتسائلتين: "ولا حاجة، كانوا بيتطمنوا ع البضاعة"، ابتسمت في مرارة وهي تضمني وتعتذر لي عن عدم قدرتها على التصرف، وكأنها هي المفترض بها أن تحميني. حبيبتي شادية التي اعتادت على التصرف بمفردها والحياة كرجل، تعتذر لأنها لم تقم بواجبها في دفع هؤلاء عني أو تعتذر لأنها تشعر أنها مصدر ضغط عليّ.

سألتني هل أخبروني بسبب وضعنا في غرفتيّ نوم منفصلتين، فقلت لها إنهم لا يريدون أن تتم بيننا تفاعلات تؤثر على جودة النطف التي سيحصلون عليها مني. احمر وجهها في خجل، ثم نظرت محاولة التظاهر بالجدية، وهي تطلب مني أن أكف عن المزاح وأخبرها بالسبب. قلت لها مرتبكًا وموجهًا عيني نحو الفراغ إن هذا ما قالوه، وإنني مثلها غير مقتنع.

أمسكت وجهي بين يديها وقالت وهي مثبتة عينيها عليّ إنها لا تصدقني، وإنها تطلب مني أن أخبرها بالحقيقة مهما تطلب الأمر. صمت ولم أتكلم، ترجتني، لم أفتح فمي، وأخفضت عيني فقالت إنها ستسامح في أي شيء إلا أن أكذب عليها، وأننا منذ تلاقينا نخوض كل مشكلة معًا.

أخبرتها عن غرفتها وكيف سيعذبونها، أشاحت بوجهها معترضة، وقالت: إنهم يكذبون وحتى لو فعلوا ذلك فستتحمل. قلت لها ماذا لو عذبوها أكثر؟ ماذا لو اغتصبوها؟ فقالت لا فارق بين تعرضها للاغتصاب وتعرضي أنا له. غضبت من مقارنتها، فنهرتها عن ذلك الحديث، وقلت إن هناك فارقًا كبيرًا بين الأمرين، فغضبت وأشاحت بوجهها ولم ترد.

قلت لها إنهم هددوني بقطع أصابعي إذا فشل تعذيبها في إقناعي. كل يوم يمضي دون أن أطيعهم سيقطعون إصبعا، وفي النهاية سيقطعون كفي. لم أكن صادقًا لكنني بذلت جهدًا خرافيًّا لأضفي الصدق على كلامي، نظرت غير مقتنعة، فأقسمت لها، وقلت إنني لم أفكر في تلك الاحتمالية؛ لأنني لن أدعها تخضع للتعذيب، لكن إذا كان يرضيها أن يستأصلوا كل يوم قطعة من لحمي فسأتقبل ذلك.

احتقنت عيناها بالدموع، وظلت لوقت غير قادرة على الكلام، فقلت لها مازحًا: "ها.. هتقولي جنازته ولا جوازته"، ضحكت واحتضنتني، وهي تدعو ببُعد الشر عني، وقالت باكية إنها لن تتحمل أن تراني أُعذب، أو أشاك بشوكة، فكيف بما ينوي هؤلاء الوحوش فعله.

ظلت شادية طوال اليوم متجهمة لا تتكلم إلا نزرًا، حاولت أن ألاطفها دون جدوى، حاولت أن أعتذر فقالت إنني لست المذنب لأعتذر. كنت لأول مرة أشعر بهذا العجز، أرى معشوقتي وريح الصبا التي لطفت من قيظ حياتي حزينة لا أملك لحزنها علاجًا. يمزقني ذلك الشعور وأتمنى لو أصير خارقًا وأمسكها بين ذراعي وأطير بها بين النجوم حتى تبتسم. حين تكون ضحكة من حبيبك أمنية بعيدة وأنت مستعد لقلب العالم رأسًا على عقب لتسمع منه ضحكة صافية.

في الليل اقتادوها لغرفتها، ودعتني بحرقة ونهنهت على كتفي، وكأنني أساق إلى كرسي الإعدام أو أزف إلى ضرتها. اقتادني أحدهم نحو الغرفة الوثيرة التي أوشكت بالأمس أن تكون شاهدة على تكليل زواجنا. قال لي الرجل الذي اقتادني وهو يضحك، إنه يجب أن أطرد

من رأسي تلك الأفكار لأتمكن من أداء مهمتي على ما يرام. شيعته بنظرة حانقة وجلست أنتظر.

كانت زبونتي صغيرة، لو كان تقييمي لأعمارهم دقيقًا لقلت إنها في نهاية العشرينات. كانت ملامحها أقل غلظة من الأخريات، وحين أقول أقل غلظة فأنا أعني أنها غليظة أيضًا. خفضت المرأة من إضاءة الغرفة بكبسة زر على ريموت في يدها، وبكبسة أخرى انبعثت في المكان موسيقى عجيبة، لم أسمع مثلها من قبل، لكنها كانت هادئة ومريحة للأعصاب.

شر البلية ما يضحك، وأنا كنت أشعر أنني الآن ممثل في فيلم ساخر، يقلب العلاقة بين الرجل والمرأة. كنت جالسًا على طرف الفراش منكمشا، تقترب مني امرأة أصغر سنًّا لتقودني في علاقة دفعت ثمنها لقواد يؤجر جسدي. اقتربت مني وهمست: "قم نرقص أنا وأنت". وقفت معها لأرقص، وأنا لا أعرف كيف يرقصون بالطبع، كانت واقفة تدور حولي وتطلب مني أن أدور حولها، ثم بدأت تقترب مني تدريجيًّا.

طلبت مني أن أستمر في أداء تلك الحركات اقترابًا وابتعادًا، وقالت إنهم يراقبون حركة جسدينا من الخارج. أصبت بالدهشة، فهذه امرأة غنية دفعت مبلغًا كبيرًا فكيف تسمح لهم بتصويرها، فقالت إنهم لا يصورون، وإنما يستشعرون حركة جسدينا بمستشعرات حرارية.

بدأت أتوجس من هذه المرأة التي تسارعت حركتها في الدوران خلفي، ثم بدأت في خلع ثيابها وطلبت مني خلع ثيابي، ثم أكملت رقصتها واقتادتني للفراش وهي تقول بصوت هامس "أنا جزء من

المقاومة، والدي رجل غني جدًّا، زوجي سياسي كبير، هو يريد طفلاً هجينًا وأصررت أنا على أن أحصل عليه بالشكل الطبيعي"، بلعت ريقي وبدأت أفهم أنها تبرر سبب ما أقدمت عليه من فعل حقير.

"اسمي شاوريا، وسأساعد في تحريرك أنت والمرأة"، حاول أن تتصنع ممارسة العلاقة معي وإلا سوف ننكشف"، قالتها ونامت إلى جواري، ثم بدأت تتحرك وتحركني بطريقة عجيبة، وهي تشرح لي ما يعانيه الناس على هذا الكوكب. قالت إن الطبقة الحاكمة تمثل على الشعب، وكلهم شركاء في الفساد والطغيان. يعيشون حياة مترفة وهناك الملايين يقبعون في الفقر والحاجة، ويموت الكثيرون من الجوع والمرض.

هناك مجتمعات بالكامل تعيش في الظلال وأسفل الأرض، وأغلبهم لا يدري شيئًا ويقبل أن يكون وقودًا في الصراع على السلطة في بعض الأحيان. بقية الشعب حرفيون وجنود ومهنيون، يعيشون في دائرة مفرغة من العمل ليل نهار، تطحنهم رحى الأيام، وهم يحاولون الصعود للسلم الأعلى في طبقات الدولة.

الموارد شحت هنا في أديتيا، وهم يستنزفونه ويستنزفون الفقراء ويعدون بأن استخدام الأرضيين والهجرة للأرض هي الخلاص. هناك الملايين يصدقون أن الأرض هي الخلاص ويعملون في المشاريع التي تحضر للهجرة؛ لأنهم مؤمنون بأن تعاليم الدين تحتم ذلك، وأن كوارث الطبيعة ليست بسبب جشع الشركات، وإنما لأننا تأخرنا في إجابة الأمر الإلهي بالهجرة إلى الموطن الأصلي.

ظللنا نتصنع ممارسة العلاقة فعلاً، ثم توقفت حركتها وأكملت حديثها، وهي تشرح لي كيف أن زملاءها في المقاومة سيأتون في أي

وقت الآن لإخراجنا بمساعدة ابنة الزعيم، تلك الفتاة البطلة التي تسدي للمقاومات خدمات عظيمة.

قالت إن ذلك البدين (أناندار) زعيم عصابة حقيقة لا مجازًا، وأنه يتاجر في كل شيء حتى البشر، وأن هناك فتيات من المفترض أن ألقحهن مجبرات على ذلك، وقد فشل التلقيح الصناعي معهن، وأن هناك أكثر من مئة فتاة سجينات هنا، سيكون لبعضهن نصيب في التجربة معي لإنجاب أطفال مهجنين للأغنياء العجائز.

٣٢

ظلت المرأة تتحدث وهي مستلقية على ظهرها، تشرح لي خطة الهروب. قالت إن استلقاءها على ظهرها سيجعلهم يظنون أننا أكملنا العملية، وأنها مستلقية لتزيد فرص الإخصاب. قالت إن الطاقة سوف تتوقف بعد قليل، وسنبدأ في التحرك سريعًا. كان ردي أنني لن أهرب دون أن تكون شادية معي، فطمأنتني وهي تقول: "الطبيب سيحضرها عند محطة المركبات".

قالت إنهم سيهربون مجموعة من الفتيات السجينات هنا أيضًا، وهن أكثرهن تضررًا، وأن عملية الهروب اليوم يتم التنظيم لها منذ فترة، وكان من المفترض أن يكون هناك أرضي آخر لكن العصابة لم تتمكن من إحضاره من المنشأة التجريبية التي يتم فيها اختباره.

كما فهمت فإن الأرضيين مثلي أنا وشادية لا يخضعون لذات التجارب، بعضنا على جزر وآخرون في منشآت كالسجون، وآخرون في صحاري ومتاهات، كل حسب المعطيات المجموعة عن شخصيته، وحسب ما تحدد برامجهم التي تعالج ملايين البيانات عنا، عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي وأنشطتنا على مختلف مواقع الإنترنت.

العينة التي يتم اختيارها يتم اختراق هاتفها والأجهزة الإلكترونية التي يستخدمها، وكل ذلك عن طريق برامج يستحيل على تقنياتنا كشفها.

بدأت أشعر بالقلق، وسألتها عن المقاومة، وهل هم منظمون فعلاً وقادرون على إسقاط الحكام وإنشاء نظام جديد لا يسعى لاستيطان الأرض؟ أجابت بأنهم قلة، لكنهم منظمون جدًّا، وكل يوم ينضم إليهم أعضاء جدد، والكثير من الشباب من أبناء الطبقة الحاكمة وطبقة الأغنياء يؤمنون بمبادئ الثورة، وهم أقوى سلاح في مواجهة آبائهم وأمهاتهم من صناع القرار.

كنت أشعر أنني أتحدث مع فتاة يسارية متحمسة من حقبة الستينات، هؤلاء الشباب الذين كانوا يحلمون بعالم مثالي جعلهم يحملون السلاح، ويقاتلون من أجل الحرية في أركان العالم الأربع، ولم يتحقق في النهاية إلا فشل ذريع وجرائم ارتكبت باسمهم في كل مكان.

انقطع النور، وبدأت تظهر أضواء متقطعة خافتة، وقامت هي فارتدت ملابسها على عجل، وطلبت مني أن أرتدي ملابسي بسرعة. توجهنا إلى باب الغرفة وفتحناه، فوجدنا الحارس واقفًا أمامنا يمنعنا من الخروج. أطلقت رذاذًا في وجهه من علبة، فصرخ الرجل متألمًا ثم سقط على الأرض كالجوال، وأخذت هي من حزامه سلاحًا وارتدته في يدها باحتراف يدل على أنها تلقت تدريبًا على تلك الأشياء.

جاء حارس من الممر على صوت صرخة زميله، فأطلقت نحوه مقذوفًا من سلاحها بسرعة فجندلته. استلت سكينًا صغيرًا من حزام الحارس الأول، وقطعت به جلد إبهامه دون أن يطرف لها جفن، ثم جرت وأنا وراءها كالحمل المرتعب. وصلتْ للحارس الآخر فأخذت

من حزامه نفس السلاح، وأمسكت يدي وأدخلت أصابعي الأربعة فيه، والإبهام مضموم عليه من الخارج. كان واسعًا على يدي، فهؤلاء القوم أكفهم ما زالت غليظة رغم تقدمهم.

شرحت لي كيفية استخدامه؛ كل ما هنالك أنني سأضغط بإبهامي على تلك النقطة، ثم أضغط إصبعي الوسطى لأطلق قذيفة فردية، وبسبابتي لأطلق قذيفة تحدث انفجارًا محدودًا يكفي لإسقاط شخصين أو ثلاثة. حذرتني من استخدام المقذوف المتفجر لأنه يحتاج إلى تدريب على توجيهه غير أنه سيلفت نظر الكثيرين.

عدونا في الممر قابلنا حارسان أطلق كلانا على نفس الحارس، مما مكن الحارس الثاني من إصابتها. صرخت من الألم وهي تطلق مقذوفًا تجاهه فأسقطته، تفحصت مكان إصابتها كانت طفيفة مجرد جرح سطحي أعلى كتفها. أكملنا عدونا في ممر تلو آخر، وبدأت أصوات متقطعة في التصاعد خمنت أنها طريقتهم في الإنذار.

قابلنا شادية والطبيب الذي فحصني من قبل، وهو يحمل سلاحًا في يده وهي كذلك. صارت مقاتلة، وهذا لقب جديد تضيفه لألقابها العديدة، ومن فرط لهفتي كدت أنسى أننا مطاردان، وأندفع نحوها أضمها، وأقبل كل شبر فيها، لكن المرأة دفعتني بقوة ثم أطلقت مقذوفًا على حارس كان يهم بضربنا.

"من حسن الحظ أن الحراس مترددون في إطلاق القذائف عليك، هيا بنا من هذا الاتجاه" قالتها المرأة ونحن الأربعة نعدو، وأنا ممسك بيد شادية بقوة، قابلتنا مجموعة من الحراس، فأطلق كلاهما قذائف متفجرة فأسقطوهم، ثم انحرفنا يمينًا واستمر عدونا عدة أمتار قبل أن نرى

مجموعة من الفتيات النياندرتال يبدو عليهن الفزع والإجهاد ومعهم رجل وامرأة مسلحان.

سار موكبنا تجاه الخندق الذي رست فيه مركبتنا أول ما جئنا هنا، كان مرافقونا يطلقون القذائف على من يواجهنا وعلى من يتبعوننا بمهارة غريبة. أسقطت قذائف المهاجمين واحدًا من مجموعتنا وفتاة، وأصاب شادية مقذوف احتك بفروة رأسها، قبل أن يصيب فتاة ثانية ما أصاب بقية الفتيات بالفزع، وأوشكن على الجري على غير هدى.

بعد لحظات انضمت إلينا امرأتان مسلحتان، هدأتا الفتيات وعدلتا مسار موكبنا، واستطاعتا إسقاط بقية المهاجمين. وصلنا وكان في انتظارنا مركبتين، كانت قائدة المركبة الأولى (بروفاتارا) ابنة الزعيم بنفسها. كانت مركبة كبيرة جلست فيها الفتيات اللواتي يزيد عددهن على العشرين، أما المركبة الخلفية فجلسنا فيها أنا وشادية والطبيب و(شاوريا)؛ المرأة التي تظاهرت بأنني أضاجعها.

خلف المركبتين كان هناك ما يشبه دراجتين ناريتين طائرتين، على كل واحدة جلس اثنان عكس بعضهما ومشهران أسلحتهما. جاء كثيرون وبدأوا الهجوم علينا، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها المركبتان تتبعهما الدراجات النارية، وسط تبادل للمقذوفات. لم يكن مهاجمونا قادرين على استخدام مقذوفات متفجرة، فقد كنت أنا في مركبة و(بروفاتارا) ابنة زعيمهم في مركبة أخرى، ما جعلهم يحاولون اصطياد المدافعين وأنظمة تشغيل المركبات.

لم تنطلق المركبات وتبادلت مع شادية النظرات القلقة. كان الطبيب ينظر ناحية بداية الأنبوب الذي جاءت منه مركبتنا أول الأمر، سألته

ماذا ينتظرون، فقال إن الطاقة لا بد أن تعود لنتمكن من الانطلاق. بينما نحن في الانتظار والقلق يأكلنا انطلقت قذيفة متفجرة فأسقطت دراجة نارية براكبيها، وانكشف جزء من مركبتنا كانوا يدافعون عنه.

قفزت (شاوريا) عن مركبتنا وأطلقت عدة قذائف متفجرة تجاه المهاجمين من سلاحين في يديها في نفس الوقت فأحدثت جلبة كبيرة. أضاءت الأنوار دفعة واحدة وانطلقت المركبات في الأنبوب سريعًا، تتبعها الدراجة النارية الطائرة وصراخ غاضب بلغة غريبة لم أفهمها.

رفع الطبيب يده صائحًا بحماس المنتصر، وهو يقول: "كانت عملية متقنة، ستجعل الجميع يعلم أن للمقاومة قوة مكنتها من هزيمة أعتى أسياد الجريمة"! صفق بيديه جذلا، ثم توقف حين لاحظ أن المرأة تنظر إلى الخلف دامعة العينين فسألها: "هل سقط أثناء الهروب"؟ ردت بإيماءة دون أن تتكلم ونزلت دموعها منسابة بهدوء.

ربتت شادية على كتفها، فنظرت لها المرأة ممتنة وهي تقول لها إنه من ضمها للمقاومة، وأنه حبيبها الذي كانت تنوي البقاء معه بقية عمرها، وها هو سقط بقذيفة حقيرة. كان هذا هو سبب غضبتها إذًا وإطلاقها كل تلك المتفجرات على الذين أسقطوا الدراجة الطائرة.

كان الأنبوب الذي ننطلق فيه لا يزال ممتدًا، وقبل أن نتمكن من الخروج منه توقفت المركبات مرة واحدة. سألتهم عن السبب فقال الطبيب: "لا بد أنهم قطعوا الطاقة عن النفق ليوقفونا حتى يستطيع رجالهم محاصرة المخرج، فنكون قد وقعنا بين فكي الوحش"، فهمت أنه يقصد بين شقي الرحى، فسألته بقلق عن الحل الآن، فطلب مني ألا أقلق فما زال لديهم الأعوان المتخفين بين الفنيين في مقر العصابة.

مر الوقت ثقيلاً والرجل يشرح لي: "هذا الرجل السمين –أناندار– يختطف أناسًا مثلي تقنيين وآخرين حرفين، ويجعلهم يعملون لديه تحت التهديد بالقتل وإيذاء عائلاتهم"، أكملت المرأة شارحة: "مثل عصابات المافيا عندكم في الأرض"، سألتها كيف عرفت بعصابات المافيا عندنا، فقالت: "أنا أعمل رئيسة لأحد المراكز التقنية الخاصة بمراقبة الأرض، ولدي صلاحية الدخول على شبكات الإنترنت الأرضية ومشاهدة كل شيء عندكم".

بدأت المركبات في التحرك، وأشارت (شاوريا) للطبيب، فأخرج عدة أسلحة أعطى كل واحد منا سلاحين، وقال إنه من المتوقع أن نجد بعضًا منهم عند المخرج، وأن علينا أن نستعد، ثم نظرت إليّ قائلة: "أحد أسباب انضمامي للمقاومة هو تعاطفي معكم من طول ما عشت قصصكم وحكاياتكم وتفاعلاتكم، شعرت أنكم لا تختلفون عنا كثيرًا، لديكم نفس الآمال والآلام، ولم أجد مبررًا أخلاقيًّا واحدًا يسمح بتفضيلنا عليكم وإعطائنا الحق في سلب الملايين منكم أمانهم وأوطانهم".

سألتها عن معاناة الفقراء في وطنها، أليست سببًا أولى للانضمام إلى المقاومة، فقالت: "كل مكان فيه الغني والفقير، والضعيف والقوي، لكن ما يريد قادتنا فعله بأرضكم هو إخلال بكل نواميس الكون"، وأن هناك الكثير مثلها انضموا للمقاومة، لمنع تلك الهجرة اللعينة "خوفًا على الأرضيين وخوفًا على أهلنا من تبعات غير محسوبة العواقب".

وصلت المركبات عند مدخل الممر الذي كان ساحة قذرة وسط مكان يشبه الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى، حطام آلات ملقى في

جانب، وأكوام مهملات في جانب آخر، ومبانٍ نصف متهدمة، وأكشاك صغيرة. لم أتخيل أن توجد هذه القذارة في الفضاء أيضًا.

كانت (شاوريا) محقة في توقعها، فقد ألفينا بعضًا من المسلحين يهاجموننا من زاويتين مختلفتين، لكن لحسن الحظ كان عددهم محدودًا ولم نستغرق وقتًا في إسقاطهم. نزلنا من المركبتين وتفرقنا إلى عدة مجموعات، كانت مجموعتنا تضمني وشادية وأربع فتيات مذعورات، إضافة إلى الطبيب و(شاوريا) ومسلحة أخرى.

مشينا في عدة أزقة صغيرة متشعبة، والناس يرمقوننا بفضول، كانت ملابسهم مهترئة، وشعورهم مشعثة ووجوههم قذرة، لو جمعت صورتهم تلك إلى جانب ملامح وجوههم البدائية، لحصلت على صورة تشبه إنسان ما قبل التاريخ، على خلاف مرافقينا الذين غيرت ملابسهم ونظافتهم من صورتهم وجعلتهم أقرب إلى البشر من المستقبل.

بعد ما يقارب النصف ساعة من المشي في تلك الأزقة، وصلنا إلى بيت متهالك، شكله لا يوحي بأمن من أي نوع. دخلنا إلى المبنى الممتلئ ببقايا أمتعة وبعض الفرش البالية الملقاة على الأرض بإهمال، ودلفنا إلى أحد غرفه. كانت أرضية الغرفة هي مدخلنا السري إلى سلم قادنا إلى قاعة فسيحة مليئة بالشاشات ولوحات التحكم وصندوق زجاجي في جانب الغرفة يتسع لشخص واحد.

كان بالغرفة بعض المسلحين أغلبهم من النساء، كان من الواضح أن هذه المقاومة كونت تشكيلاً شبه عسكري، وليست مجرد شباب

يرفعون شعارات ويحتجون هنا وهناك. أجلسونا على كرسيين، واقتاد أحدهم الفتيات إلى باب جانبي لا نعرف إلى أين يتجه.

جاء لنا العالم المسؤول عن إعادتنا إلى الأرض، وبدأ يشرح لنا آلية العمل: "هذا الجهاز مختلف قليلاً عن ذلك الذي استخدم في إحضاركما، فهو مصنع يدويًّا عن طريق فريقنا الصغير"، أصبت بالقلق، فكلامه أشعرني أنهم يستخدمون لعبة أطفال في قتال حقيقي، ويبدو أنه فهم رد فعلي، فعدل شرحه وقال: "هذا الجهاز جيد لا يقل كفاءة عن أجهزتهم، بل إنني زودته بخاصية تمكنكما من العودة مكانًا وزمانًا: أي أنكما ستعودان إلى نقطة زمنية مطابقة تقريبًا لنقطة إحضاركما".

سألته شادية هل يعني ذلك أننا سنسافر عبر الزمن، فقال الرجل: "العزيزة شادية لا تقيسي ما أقول بقواعد الفيزياء التي تدرسونها في الأرض، فهناك الكثير من النظريات الخاطئة تعتبر عندكم من المسلمات.. ببساطة حاولي أن تعرفي أن الرحلة العكسية التي صممتها لكما تسير في الزمان والمكان بدون شرح أكثر".

أشار إلى الجهاز، وهو يشرح كيف سيدخله الواحد منا، وكيف سيقوم بنقله، وعن النصائح الواجب اتباعها في لحظة الوصول. طلبت منه إحدى المسلحات التعجيل، فقال بسرعة: "من الأعراض الجانبية المحتملة فقدان ذاكرة الأحداث التي وقعت أثناء الرحلة.. هذه لا تحدث للجميع، لكنها واردة، سوف تشعران بسخونة قبل الانطلاق بعدها إغماءة ثم...." طرقع بإصبعه في الهواء وهو يكمل: "تكونان في نفس موقع إحضاركما".

بعد جدال قصير، وافقت شادية على أن تكون البادئة. ضمتني بقوة ثم تراجعت ونظرت في عيني، وهي تقسم أنها لن تنساني، وأنها لو فقدت ذاكرة هذه الأيام فسوف يظل حبي في قلبها يقودها إليَّ مهما كنا غرباء. قبلتها وأنا أقسم أنني لن أنساها، وأنني سأتبع قلبي وسأجدها ولو كانت نسيتني، فأنا أعرف أن نظرة واحدة بيننا كفيلة بأن تطلق فيضان الحب من بدايته. دمعت عيوني وأنا أتكلم، تعانقنا وتعانقت دموعنا ثم دفعتها برفق نحو الصندوق الشفاف.

دخلته وبدأ الجهاز يرتج ثم ملأه وميض مبهر، ثم خبا الوميض واختفت من أمامي. انقبض قلبي واندفعت للدخول في الجهاز، لكن العالم أوقفني، وقال إننا يجب أن ننتظر قليلاً؛ لأن حرارة الجهاز قد تحرقني إذا دخلته مبكرًا قبل أن يبرد من النقلة السابقة.

لم يكمل جملته إلا وأصوات قذائف في الخارج تتناهى إلى مسامعنا. قال أحد المسلحين إننا ينبغي أن نهرب الآن. رفضت وأصررت على دخول الناقل رغم تحذيراتهم. وافق العالم أخيرًا تحت ضغط وقع أصوات تبادل المقذوفات بالأعلى. دخلت الجهاز وضغط الزر وأحسست بسخونة رهيبة تشوي جلدي، ثم أظلمت الدنيا وصحوت على أصوات الناس وهم يتنادون حولي وصوت عربة إسعاف، ومحفة وقناع أكسجين وفكرة واحدة تسيطر عليّ؛ "شادية" هل وصلت بسلام أم احترقت مثلي؟ هل تذكرني كما أذكرها أم أنساها الجهاز كل شيء؟ هل سأعيش لأضمها ثانية أم أن النيران قد حكمت عليّ بالموت؟

٣٣

غرفة العمليات اليوم مختلفة تمامًا، ليس لأنها في مستشفى آخر أو لأن أجهزتها أحدث أو أقدم، بل لأن موقعها هي مختلف. زهرة كانت ممددة مستسلمة على طاولة الجراحة منتظرة أن تغرق في غيبوبة التخدير الاصطناعية. رفضت أن يعطيها الأطباء مخدرًا نصفيًّا وأصرت على أن تنام تمامًا وتستيقظ فتجد الجراحة قد انتهت.

كشاف العمليات مبهر يدمع عينيها، طلبت من الممرضة إطفاءه مؤقتًا. الجميع في الغرفة يعاملونها باحترام ممزوج بالإشفاق عند البعض، وبالاستنكار المبطن عند البعض الآخر. أغمضت عينيها وأوردتها تستقبل جرعة من المهدئ، سائل أبيض يجعل المحقن يشبه زجاجة لبن معدة لإرضاع طفل. استسلمت لذلك الإحساس المريح.. الهدوء التام الذي قطعه قناع يوضع على وجهها، وغاز نفاذ يتسرب إلى صدرها، استنشقته رغمًا عنها ثم.. ظلام تام.

أمضى عمر خمسة أيام وهو على جهاز التنفس الاصطناعي، وزهرة تجلس معه كل يوم أكثر من ست ساعات. تقرأ له حديث الصباح والمساء لمحفوظ، والوتد لخيري شلبي، وزمن الخيول البيضاء

لإبراهيم نصر الله. روايات حدثها عن عشقه لها، أعادتها على مسامعه وهي تعلم أنه بين الصحو والنوم، بفعل المهدئات التي يحقن بها بانتظام كي تبقي جسده مستسلمًا لجهاز التنفس الاصطناعي.

ابتاعت أغلى مضاد حيوي لا يعطى إلا في حالات البكتريا شديدة المقاومة، وحقنًا تعزز قدرة جهازه المناعي. لم يتبرم الأطباء من محاولتها للمساعدة؛ لأنهم يعرفون أن تلك الأدوية مفيدة لكنها غير متاحة في المستشفى. خطر ببالها في أحد الأيام أن تكتب منشورات على الفيس بوك تحكي عن حالته، وتطلب من الناس الدعاء له. كانت تقول لو أن هناك احتمالاً واحدًا في المليون أن تكون قصته حقيقية، وأن يكون من ساعدوهم على الهروب يراقبون حقًّا صفحات الإنترنت فسيعرفون أن جهازهم قد سبب له حروقًا مميتة، وقد يرسلون إليه علاجًا متطورًا. كانت فكرة ساذجة وستثير تساؤل أصدقائها عن سبب اهتمامها بذلك المريض، لكنها لم تبال فقد تعرضت لانتقادات بسبب زيارتها المتكررة له بالفعل.

في اليوم السادس كانت حالته قد تحسنت بشكل يسمح بفصل الجهاز عنه في الصباح ثم إزالة الأنبوب في نهاية اليوم، وعودة وعيه كاملاً. كانت أنفاسه لا تزال متلاحقة، لكنها أهدأ كثيرًا وكان جسده يزداد نحولاً. لم يتحسن فيه إلا صدره، لكن حالته كما هي. أجرت اتصالاً بالخبير الأجنبي الذي رأى حالته من قبل، وطلبت من رئيس القسم التحدث إليه فقبل متبرمًا. قال الرجل إن الحل الوحيد النافع الآن هو نقل جلد بشري له بشكل مؤقت؛ ليوقف نزيف سوائل جسده المتواصل.

قال رئيس القسم: "أنت تعرف يا سيدي ليس لدينا هنا بنوك جلد". فرد الرجل بأنه يعلم، واقترح اللجوء إلى متبرع حي وأنه يحتاج لمتبرعَيْن على الأقل، حتى تزيد فرصه في النجاة، وفي نفس الوقت لا يتأذى المتبرع. انتهت المكالمة ونادى رئيس القسم على سامح، وطلب منه الاتصال بابن عم عمر وإخباره بالأمر. جاء الرجل وأخبر الأطباء أنه على استعداد للتبرع.

كانت لحظة مؤثرة شهدتها زهرة حين قال ابن العم لعمر أنه سيتبرع له بالجلد. قال عمر كلامًا كثيرًا عن الدم الذي لا يستحيل ماءً وعن تقصيره في حق ابن عمه، وعن أن سبب توتر العلاقة بينهما على الدوام هو غيرة عمر منه. ربت الرجل عليه في تأثر، وقال إنه هو الذي كان يغار من عمر، وأن الوالدين –رحمهما الله– هما السبب، حين كانا يصران دومًا على عقد مقارنات بينهما.

طلبت زهرة من رئيس القسم أن تتبرع هي الأخرى، انزعج الرجل بشدة، وقال لها إن ما تريد فعله شيء غير مقبول، وأن الوضع تجاوز المألوف: "ما تزعليش مني يا دكتورة، أنا في سن والدك"، قالها مبررًا كلامه حين لاحظ على وجهها استنكارًا شديدًا. أحضرت ابن عم عمر وجعلته يطلب بصفته قريبه الأول أن يوافق الأطباء على تبرعها له، مما جعل رئيس القسم يتراجع عن رفضه.

سامح وهند وافقا على عدم إخبار عمر بأن زهرة ستتبرع له، حتى لا يرفض، فقد كانا متحمسين لعلاجه، رغم عدم اقتناعهما بقرارها أو دوافعها مهما كانت. في اليوم التالي أجرت التحاليل المطلوبة في مستشفى الجامعة، وجاءها استدعاء من أحد أساتذتها، وهو الوحيد

الذي ساعدها طيلة مسارها الوظيفي وعاملها كابنته. قال لها الرجل إنه لا يتدخل إلا من منطق اهتمامه بها، وأنه وصل لعلمه أنها سوف تتبرع بجلد لمريض في مستشفى السلام، وأنه غير مقتنع بما قيل له عن علاقة حب تربطها بذلك الرجل.

شكرته على اهتمامه الشديد، وقالت إنها تعي ما تفعل، وأنها امرأة ناضجة وليست فتاة مراهقة تفعل شيئًا دون منطق باسم الحب. ابتسم أستاذها في حنو، وهو يقول إنها لم ترد عليه من قبل بهذه الطريقة. تلعثمت واعتذرت بأدب، وطلبت منه أن يثق بها كما كان دومًا، وأنها لن تشغل بالها بأيام قليلة في الفراش وأثر طفيف جدًّا للجراحة.

لم تخبر أمها ولا سلمى ابنة شقيقتها، فقط قالت إنها ستذهب لمؤتمر في الأقصر عدة أيام. في صباح العملية لم تمر على عمر وأخبرته أنها ستزوره متأخرة. بدأت الجراحة في التاسعة صباحًا، قام الأطباء بالحصول على طبقات رقيقة من جلد فخذيها، ثم وضعوا عليها الضمادات، وأنهوا عملهم وحان وقت استيقاظها. طلب سامح من طبيب التخدير الاهتمام بالمسكنات لأن آلام الفخذ في حالتها لا تطاق.

أفاقت على أصوات الأجهزة تزعق وعلى إحساس بالاختناق، وأن هناك شيئًا يسد حنجرتها. كان حنجرتها في حالة تشنج، والأطباء يتناقشون بصوت عالٍ. اضطربت الرؤى في ذهنها وبدأت تدخل في حالة بين الغيبوبة واليقظة الكاملة. ألم شديد في فخذها يتسرب إلى كيانها كله، تظهر أمامها صورة ذئب ينشب أنيابه في فخذها، وعمر يمسك بغصن يضرب به الذئب، والذئب وهو بارك فوق عمر. ترى عمر

متيبسًا وهي فوقه تدوس على صدره بكفيها حتى يستيقظ.. يحتضنها ثم تختفي الأشجار ويملأ الدنيا نور خافت، وعينان مغمضتان وشفتان تلتهمان شفتيها وكتفان عريضان تمسدهما بذراعها.

تسعل بقوة وتشعر باختناق شديد، وبروحها تكاد تزهق، وترى عمر يحملها ويرفع وجهها فوق سطح الماء.. تعود أنفاسها تقف تحت المطر ممسكة بجذع شجرة، وعمر يغيب تحت مياه السيل، ويعود إليها تبكي على ذراعه، تقف أمامه مودعة وتدخل صندوقًا زجاجيًّا، وتشعر بلهب يسري في جسدها، ثم تصرخ عاليًا والأنبوب يخرج من حلقها، وتقول مرددة خلف طبيب التخدير "الحمد لله".

نائمة على فراشها في غرفة صغيرة منفصلة والمورفين يلعب برأسها، ويملؤها بنشوة لذيذة مختلطة بنشوة ذكرياتها التي استعادتها. كانت الصور مشوشة لا تذكر أين كانوا، ولا ماذا حدث بالتفصيل، تذكر صورة هنا ولحظة هناك. تستسلم لنشوة المورفين مستعيدة معها نشوتها وهي تنظر إلى وجه عمر، وهو يلتهمها قطعة قطعة بشفتيه قبل أن يتوقف ويختفي.

في الليل أفاقت وطلبت رؤيته. لم يسمحوا لها خشية العدوى لكنها أصرت، اقتادوها على سرير متحرك ووضعوها جواره. نظر إليها معاتبًا فقد آلمه منظرها وهي مستلقية هكذا وهو السبب. قالت له إن الأميرة النائمة قد استيقظت وأنها تذكره الآن.

هب محاولاً الاعتدال في فراشه، فطلبت منه ألا يتحرك حتى لا تفسد الرقع، فسألها في جذل عن كيفية تذكرها. لم تكن تعلم السبب سيقول الأطباء -لو أنهم اقتنعوا بأن الحكاية حدثت- إن الألم في فخذها

ونقص الاكسجين الذي دفع بالأدرينالين إلى مخها تشاركا في إحداث تأثير نَشَّطَ ذكريات مرتبطة بألمها. ستقول هي أنها مكافأة كما في الحكايات القديمة؛ تضحية كبرى تهدي إليك حبًّا كبيرًا.

كان الفراشان متجاورين ومتعاكسين، فكانا ينظران لبعضيهما ويتحدثان كأنهما جالسين في حديقة على مقعدين متقابلين. تسامرا ساعة أو ساعتين ثم اقتادها الأطباء مرغمة إلى غرفتها. بعد يومين كانت شرائح من جلدها قد التصقت بجسده، ومنحته مع جلد ابن عمه تحسنًا كبيرًا في حالته. بعد عشرة أيام دخل لغرفة العمليات ليستبدل ذلك الجلد بجلد آخر من جسده هو. كانت واقفة في أول غيار له مرتعبة، تبتهل وتدعو الله أن تنجح العملية، وهي لا تزال تعاني من بقية ألم في مكان جراحتها.

نجحت جراحته وكانت الأولى في سلسلة من العمليات التي تستهدف ترقيع حروقه بالكامل. قبل العملية الثالثة، كانت في عملها ووجدت مظروفًا كبيرًا في انتظارها، قالت لها السكرتيرة إن رجلاً قد أحضره منذ قليل يرتدي بدلة رسمية، رغم أنه طبقًا لقولها: "شكله أستغفر الله العظيم كده شكل القرد بالظبط". أخذت المظروف ودخلت مكتب أعضاء هيئة التدريس وفتحته. وجدت فيه علبة مثل علب أقلام الباركر، فتحتها وجدت فيها محقنين غريبي الشكل، ورسالة مطوية بعناية مكتوب فيها:

"العزيزة زهرة.. أعتذر على ما حدث للعزيز عمر، وعن التأخر في إرسال تلك المساعدة له، نحن نمر بصعوبات شديدة هنا، لكننا مستمرون من أجل إعلاء قيمة الإنسان أيًّا من كان نوعه وأصله

وموطنه، نقاوم من أجل غد أفضل لأبنائنا وأبنائكم. حقنيه بهذين المحقنين أعلى كتفة واحدة اليوم وواحدة بعد أسبوع ستسرع من شفائه... أعدك بمحاولة التواصل قريبًا".

لم يعد لديها شك الآن في أنها لم تكن تهذي، وأن ما حدث لهما حقيقة لا مراء فيها. احتارت هل تعطي عمر هذا العلاج أم أنه الآن يتماثل الشفاء، ولا يحتاج علاجًا لا تعرف فوائده ولا أضراره. ظلت تفكر قليلاً ثم قررت أن تطلب من زميل لها في معمل كبير أن يحاول تحليل محتويات المحقن قبل أن تعطيه المحقن الثاني.

في اليوم التالي دخلت المستشفى وكان عمر خارج فراشه، سألت عنه فقالوا في غرفة الغيار، انتظرته على كرسي في غرفته إلى أن فوجئت بكف تربت على كتفها. التفتت فوجدته واقفًا لأول مرة منذ الحادثة ينظر إليها مبتسمًا. وقفت هي الأخرى وأخذت تتحدث بحب وحماس عن قرب خروجه، وعن أصدقائهم المشتركين الذين أرسلوا رسالة لهم اليوم. خرجت العاملة وقالت إنها ستنظف غرفة الغيار وأغلقت الباب خلفها. اقترب منها بذراعيه المغطيان بالضماد وأحاطها بهما وطبع على جبينها قبلة وهو يضمها وذهنهما خالٍ من كل شيء.

تتمة

"العزيزان عمر وزهرة

أولاً تقبلا تهنئتنا المتأخرة على الزواج وعلى طفلكما الأول، وتمنياتنا بأن يعيش هو وأبناؤه من بعده في عالم يسوده الأمن والسلام.

مرت خمس سنوات منذ كنتما مختطفين عندنا. قمنا في الفترة الأولى بعد رحيلكما بتحرير آخرين من الأرضيين وإعادتهم بسلام حتى استطاعت السلطة تقويض جهودنا تلك، ودمرت كل أجهزة التنقل التي أنتجناها، لكننا كنا سعداء بما حققناه. أغلب المحررين مثلكما استعادوا ذاكرتهم ويعرفون كل ما حدث لهم على كوكبنا والخطر الوشيك المحدق بكم وبنا.

لقد حاولنا كثيرًا تغيير الوضع القائم على كوكبنا. استطعنا ضم الكثير من الأنصار وخرجنا إلى العلن، وأقمنا الاحتجاجات وكشفنا الكثير من المؤامرات الخفية ووثقناها ونشرناها للجميع. أعلنا عصياننا وتوجهاتنا المناهضة للهجرة إلى الأرض، وكان خطؤنا الأكبر أننا كشفنا تنظيمنا ودعونا إلى إجراء استفتاء على موضوع الهجرة إلى الأرض ليقرر الشعب بأكمله.

كشفنا الحقائق أمام الناس وكشفنا الأغراض الخفية لأهل الحكم وفندنا حججهم. كان الطرف الأقوى في منظومة الحكم هم المتدينون المتعصبون، وكانت حجتهم في الهجرة هو أن ثمة نبوءة في الكتب المقدسة تنبأت بأن نسل شعبنا من الذكور سيصيبه العطب، وأن هذه هي العلامة التي ينبغي عندها أن نعود إلى الأرض الأصلية.

لم نقدح في حقيقة إيمانهم ولم نقل إنها مجرد خرافات. حاولنا أن نقنعهم بنفس حججهم وقام المتدينون المتعقلون من المقاومة بعقد مناظرات توضح رأينا. قلنا لهم إن النصوص مطاطة ويمكن تفسيرها بشكل آخر، وإن الذكور لم يصبهم العطب، وإنما صار إنجابهم نادرًا نظرة لمشكلة في الصبغي الذكوري، وأن صفة العطب قد تنطبق على أي طرف آخر غير الذي يعاني شعبنا منه. قلنا أيضًا إن الأرض التي يريدون الهجرة إليها واستيطانها والتي يضفون عليها صفة القدسية لا تطابق الأماكن التي اكتشف فيها الأرضيون حفريات لأجدادنا.

كانت لنا مناظرتنا أيضًا تجاه الجناح غير المتدين في السلطة. كانت حجتنا القوية هي كشف العلماء من المقاومة عن طرق بديلة للتزاوج مع البشر الأرضيين، وعن طرق للعلاج الجيني تستخدم صبغيات من الأرضيين وتدمج مع صبغياتنا، وأن حلاً كهذا سيحتاج الكثير من البحث، لكنه أفضل من أن نلجأ إلى حل مدمر مثل الهجرة الجماعية إلى الأرض.

كانت ورقتنا الأقوى حين كشفنا أن الكثير من الموجودين في أروقة الحكم من المتدينين وغير المتدينين لديهم مكاسب من هذه الهجرة، وأن تلك المكاسب هي الدافع الأساسي وراء تخصيص موارد

هائلة لمسألة الهجرة، لو تم تخصيصها للبحث العلمي لوجدنا حلولاً أسهل. كوكب الأرض بالنسبة لهم غنيمة مذهلة ولا يهم ما سيحدث في سبيل استيطان أجزاء منه والاستفادة بتلك الغنيمة.

في النهاية دعونا لأخذ رأي الشعب بأكمله، وليس مجرد الاعتماد على النظام الحالي الذي يجعل اتخاذ تلك القرارات للطبقة الحاكمة فقط. تحت ضغط كبير استجابوا لنا ونظموا استفتاءً كما تفعلون عندكم لكنه عندنا قاصر على فئات معينة وليس لكل الناس. نشطت أبواقهم تعد الناس بالنعيم المنتظر على الأرض تارة، وبالعفو الإلهي تارة أخرى، واستطاعوا إعادة تغييب عقول الناس التي أنرناها بالكاد. كانت نتيجة الاستفتاء خسارة فادحة لنا، وبعدها قاموا بحظر أنشطتنا وتصفية الكثيرين منا.

في الحقيقة لسنا ملائكة نتصرف بداعي الخوف على أهل الأرض، وإنما نخشى في الأساس على شعبنا، وعلى من يستغلون آمال الناس ومعتقداتهم في مكاسب رخيصة. نخشى عليهم من عواقب الحياة في مناخ جديد وأرضٍ مختلفة، وسأكون صريحًا وأقول إننا نخشى منكم أنتم في الأساس.

أنتم جنس أكثر ذكاءً منا وأوسع حيلة، وكل التجارب التي أجريت على أرضيين كانت تبدو ساذجة وسهلة بالنسبة لكم. أنتم أشد قسوة، لم يحدث في تاريخنا كله حوادث بالبشاعة الموجودة في تاريخكم، ولم يتخيل أكثر القادة وحشية في تاريخنا أن يفعل بشعبه أو بأعدائه أفعالاً كالبشاعات التي حدثت وتحدث على كوكبكم ويجد الملايين منكم الجرأة لتبريرها أخلاقيًّا.

قادتنا يعتمدون على الفرق التقني الهائل بيننا وبينكم، ونسوا أو تناسوا أنكم تتعلمون بسرعة وأنكم ستجدون الوسائل لقتالنا وإيقاع الإصابات بيننا.

ما نريده منكما ومن بقية الأرضيين الذين حررناهم هو التعاون معنا لإفشال مخططات الهجرة لأرضكم. سوف نعاونكم بالخبرات والأدوات التي تستطيعون بها مقاومة الغزو، ستكون جميعها وسائل لشل الغزاة، ومنع قدرتهم على الانتشار، ما يجعلهم يعودون سريعًا بعد التأكد من فشل خططهم.

بلدكما مصر سوف تكون أولى الأراضي المستهدفة، وسوف تليها كل البلاد على ساحل البحر المتوسط الشرقي، وشرق الشمالي حتى المضيق الذي يفصله عن البحر الأسود، أي خمس دول سوف يحتلون شريطًا على كل ذلك الساحل بعمق يصل في بعض الأماكن إلى ثلاثمئة كيلومتر بوحدات قياسكم ولا أحد يدري سبب تحديد تلك المسافة، غير ما يعلنونه من أنها تلك هي حدود الدولة القديمة التي هاجر منها أسلافنا.

العزيز عمر، أعلم يقينًا أنك متشكك وأنك قد لا تقتنع بما في هذه الرسالة، وستتهمنا بأننا نجعل من أنفسنا ملائكة ونشيطن الآخرين، وأن إمدادنا لكم بأسلحة لمقاومة الغزو قد يكون له أغراض أخرى، وقد تشكك أساسًا في محتوى الرسالة وتقول إنها تجربة جديدة، لكن الأيام ستؤكد لك صدق نوايانا.

هذه الرسالة هي الأولى في سلسلة مراسلاتنا ونلتمس العذر لطريقة التواصل البدائية تلك، فالرسائل الإلكترونية سهلة الكشف.

أنتما وبقية أصدقائنا أمل شعوبكم في تجنب ذلك الغد الكارثي. حافظا على سرية التواصل بيننا، واكتبا لنا إن أردتما وابعثا رسائلكما على صندوق البريد الموضح بالأسفل.

تمنياتنا بحياة رائعة وغدٍ خال من الخوف والألم".

الكتب خان للنشر والتوزيع ®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٢٥١٩٦٥٦٩+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com